عبدالله مناع

شموس لاتغيب نجوم لاتنطفئ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع : 2015/3576

تصميم الغلاف والتخطيطات والإخراج

الفنان عبادة الزهيري

شموس لا تغيب
نجوم لا تنطفئ

تمهيــد

كان القرن العشرين.. رغم الحربين الكونيتين اللتين تخللته، والمآسي والدمار.. اللذين خلفتهما، والضحايا.. الذين سقطوا فيهما، من مقاتلين وأبرياء.. من الشباب والشيوخ، والنساء والأطفال.. الذين نافت أعدادهما عن الستين مليوناً من البشر.. إلا أنه كان قرن الإنجازات العملاقة، والتقدم الإنساني الباهر.. غير المسبوق، وعلى مختلف الأصعدة، فقد قطعت البشرية فيه.. فوق مشوار تطورها: العلمي والصناعي والزراعي والطبي والحياتي والتقني.. ما لم تقطعه طوال القرون الماضيات مجتمعة، ولذلك كان إجمالاً: قرن الذروة.. في كل منحى، وقرن الأمجاد.. في كل شيء..!!

ولأنه كان كذلك.. فقد امتلأت أيامه وسنواته وعقوده بـ«الأسماء» و«النجوم».. بـ «الشموس» و«الأقمار» في كل مفردات التقدم الإنساني على اتساعها وكثرتها، والتي كان من بينها.. وربما في طليعتها الملفتة: الآداب والفنون، والفكر والفلسفة، والشعر والموسيقى، ثم ولّى زمنه كما يولي كل شيء في هذه «الدنيا».. إلا أن أسماء نجومه وأقماره وشموسه لم تولِّ معه، بل بقيت خالدة في ذاكرة الأجيال وسمعها. شاخصة في ضميرها ووجدانها.. لأنها تركت بصمات لا تنمحي، وكلمات لا تنسى، وأفكاراً لا تموت.

* * *

ولقد كان من حسن حظي.. أنني عرفت بعض البعض من هؤلاء.. عن قرب، وعشت مع الأكثرية منهم فكراً وروحاً والهاماً.. عن بُعد، إلا أن هؤلاء وأولئك.. ظلوا يعيشون في قلبي وعقلي، في روحي ووجداني.. حتى بعد أن باعد الموت بيني وبين من عرفت منهم، وبيني وبين مَن لم أعرفهم من قبل.. ولذلك عندما دعتني مجلة «جدة» - وهي إحدى المجلات التي تعنى بـ «القيمة» - لمواصلة الكتابة الشهرية فيها بعد أن انتهت حلقات (النقش على الذاكرة.. عن جدة: المكان والإنسان).. لم أجد خيراً - ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين - من استرجاع لمحات من حياة تلك الأسماء والنجوم.. تلك الأقمار والشموس الساطعة في القرن العشرين.. لا لأتذكرها وأذكّر بها.. فقط، بل ولأبعث لها وهي في غيبة موتها الجسدي.. بـ «صحبة» ورد و«باقة» حب تقول لهم: إنكم فوق النسيان.. بما قدمتموه وسطرتموه بآرائكم وأفكاركم.. بأقلامكم ودموعكم.. بأفراحكم وأحزانكم، وأن أجيالاً وأقلاماً تعرفكم وربما لا تعرفونها.. ستكتب عنكم ذات يوم وكما كنتم تتوقعون: سطراً.. أو سطوراً من الإجلال والتقدير والعرفان لكم.

وها أنا أفعل ذلك مجدداً.. بعد أن نشرت هذه الفصول صحفياً في مجلة (جدة) الشهرية على مدى أكثر من عامين.. بـ (إعادة) جمعها ونشرها في (كتاب) واحد، يسهل تداوله بين يدي القراء.. ممن يشاركونني تقدير واجلال هذه (القمم).. هذه الأقمار والشموس الساطعة في سماء القرن العشرين: فكراً وأدباً وفلسفة وشعراً.

الحلقة الأولى

العواد.. أول الرواد

كان طبيعياً أن يكون أول من يقفز لذاكرتي «محلياً» من نجوم ذلك القرن وشموسه.. هو الأديب المفكر.. والكاتب الشاعر.. أو الشاعر الكاتب: الأستاذ محمد حسن عواد، صاحب «ثالث» أول كتب النهضة الأدبية في بلادنا بعد أن انتهى العصران التركي بطوله والهاشمي بقصره.. لكن الكتابين الذين سبقاه بشهور قليلة وهما «أدب الحجاز» و«المعرض».. لم تكن لهما ذات القيمة الأدبية الفكرية والاجتماعية التي كانت لكتاب العواد، فقد كانا عبارة عن مجموعة من المقالات والقصائد الشعرية لعدد من الكتاب والشعراء الذين تنفسوا مع أوائل سنوات الملك عبدالعزيز.. تم جمعها ونشرها في هذين الكتابين، أما كتاب العواد: «خواطر مصرحة».. فقد كان شيئاً مختلفاً. كان كما قال الأديب الشيخ محمد علي مغربي «**مفاجأة مذهلة للناس.. فاستحق أن يدخل التاريخ إيذاناً بابتداء حركة التجديد في الأدب والفكر**»، ومع أن الكتاب كان أيضاً مجموعة من المقالات وإن لم يسبق نشرها.. إلا أنها - وهذا هو الأهم - كانت على غير ما عرف الناس وألفوا، فبدا الكتاب - بتلك المقالات - وكأنه صرخة مدوية في المجتمع وفي فكره وفي تقاليده وعاداته البالية وفي حذلقة المتحذلقين من أبنائه.

نعم.. كان الكتاب - في مجمله - دعوة صريحة جريئة للنهوض بالأمة.. والخروج بها من واقعها المتخلف إلى رحبات التطور والتقدم بمقياس ذلك الزمان، ولكن العواد لم ينس في خواطره الملتهبة تلك.. التعريض بكتّاب السجع والمحسنات، وبالشعراء الكلاسيكيين التقليديين.. الذين تخلو مقالاتهم من الفكر ونبضه، وقصائدهم.. من الشعر وإلهام إيحاءاته وصوره. لقد قال الأستاذ عزيز ضياء عنهم بعد ذلك بربع قرن.. «إن الأدباء في بلادنا ظلوا يمشون في اتجاه مضاد لحركة الزمن. فإذا كان العالم اليوم في النصف الثاني من القرن العشرين.. فإن أدباءنا قد بلغوا النصف الأول من القرن التاسع عشر»..!!

* * *

ومع أن الزمن الذي صدرت فيه تلك الخواطر المصرحة.. كان زمن جهل وتخلف، زمن يحجم فيه الآباء عن إدخال أبنائهم إلى المدارس.. أما قراءة الصحف - على قلتها وندرتها - فهي عمل سياسي هدام يستحق مرتكبه العقاب.. كما قال زميله وصنوه الأستاذ عزيز ضياء.. إلا أن الكتاب استنفر بطرحه وحدته وجرءته الكثير من المسؤولين وغيرهم.. حتى طالب البعض بمحاكمة كاتبه وسجنه أو نفيه، لكن الأمير فيصل الذي كان نائباً عن الملك في الحجاز آنذاك كان له رأي آخر، قوامه: إن الرأي لا يقابل إلا بالرأي.. والكلمة لا يرد عليها إلا بالكلمة.. والحجة لا تقارع إلا بالحجة، أما الكتاب والشعراء .. الذين استخف بهم فأسماهم بـ«الكويتب» و«الشويعر»، فقد حاضوا وخاض معهم معارك أدبية لا حصر لها.. كان أولها مع الشيخ الأديب عبدالقدوس الأنصاري، وكان ثانيها مع الشيخ الأديب أحمد عبدالغفور عطار، وقد رد عليهما

أحد مقالاته [illegible] (في [illegible] للبيماني [illegible]
(السـ[illegible] [illegible]

على أية حال ظلت المعارك تشكل جزءاً من حياة العواد [illegible] امتداد سنواتها.. وربما كانت آخر معاركه هي تلك التي [illegible] مع الأستاذ عبدالعزيز الربيع حول (شوقي) وإمارته للشعر. إذ كان يقول - في تلك المعركة - بأن الشعر ليس «قرية» لها أمير.. ولا حارة لها «عمدة»...!!

* * *

كان (الشعر) في حياة الأستاذ العواد.. هو الركيزة والأساس، فالشعر عنده «روح متمرد عات، يأبى أن يسكن الخرائب البالية».. والشعر عنده «روح يهبط من السماء إلى الأرض».. والشعر عنده «قوة سحرية».. والشعر عنده «فجر، والفجر يبدد بأشعته الظلام إذا بزغ»، وقد بدأ كتابته.. قبل أن يبلغ الخامسة عشر من عمره أو دون ذلك، وكان من حسن الحظ أنه جمع شعر كل مرحلة من مراحل عمره على حدة، وأصدرها في دواوينه الأربعة الرئيسية.. فديوانه الأول «آماس وأطلاس» تضمن شعره من حين أن بدأ في كتابة الشعر إلى العشرين من عمره، وكان ديوانه الثاني «البراعم» يحمل بقية قصائد تلك المرحلة، وكان ديوانه الثالث «نحو كيان جديد» يحمل شعر الثلاثينات من العمر، وكان ديواناه الرابع والخامس «في الأفق الملتهب» و«رؤى أبولون» يحملان شعر الأربعينات إلى الستينات. لكن شعره كان أداة لإيصال فكره وآماله الوطنية وأحلامه السياسية.. بل وشكل في معركته الأدبية مع صديقه وتلميذه الشاعر حمزة شحاتة «كتيبة» من خمسمائة بيت هي قوام قصيدته الشهيرة: «الساحر العظيم.. أو يد الفن

تحطم الأصنام». فإذا كان الشعر عند المتلقين هو حديث القلب والعاطفة.. فهو عند العواد حديث العقل والفكر في المقام الأول، ولذلك قال عنه الأستاذ الآشي أول رئيس لتحرير صحيفة صوت الحجاز.. في مقدمته لـ (خواطر مصرحة) «إنه في نثره وشعره يفكر فيما يكتب.. لا كيف يكتب»!! ومع ذلك قال عنه صديقه الأديب الكبير والناقد الفنان الأستاذ عزيز ضياء: «لقد كان العواد أول شاعر.. يكتب شعراً يقرؤه ويحفظه الناس»..!!

.. وأحسب أنه بقوله هذا.. كأنما كان يسترجع قصيدة العواد المدوية التي شق بها فضاءه الشعري في شرخ شبابه - فبراير ١٩٢٥م -، وهو يدافع عن (الملك) علي بن الحسين في حربه مع (ابن سعود) لـ (فك الحصار) عن جدة:

(حديثهم عن بأسنا يا حراب
وأذقهم نكالنا.. يا عذاب
وأمطريهم قذائفاً يا منا
طيد كأن الدخان منها سحابُ
واسحقي المارقين يا خير سيا
رات فتك حتى يذوب الإرهاب
واسحقي القوم بالقنابل سحقاً
بهذا الملعلع الغلاب

* * *

أيها المصلحون في الشرق مهلاً
أين إصلاحكم وأين الصواب
ضحك الغرب ملء شدقيه منا
واستخف الورى بنا واسترابوا

قد عرفنا الإصلاح من عهد عيسى
أنــه لـيـس شـأنـه الإرهــاب
نـحـن يـا قـومـنـا وأنـتـم سـواء
مـا لـديـنـا لـلـترهـات حـسـاب
نـحـن قـوم نـقـدس الله والـتـو
حيد ما للإيمان فينا ارتياب)

.. والتي قرأها عليه - وعلى بقية زملائه - أستاذ مادة (الإنشاء العربي).. همساً في منزله، بعد أن جاء بها (البريد) إلى المدرسة منشورة في صحيفة (بريد الحجاز) التي كانت تصدر في (جدة) آنذاك.. لتبهره بمطلعها ومفرداتها وجرءتها.. ثم لتستقر في وجدان وعقل وذاكرة اليافع آنذاك (عزيز ضياء)..؟!

وإذا كان الشاعر النجدي محمد بن عبدالله البليهد.. قد رد عليها في ديوانه (ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام).. قائلاً:

(مـا أصـبـتـم ومـا لـديـكـم صـواب
بـعـدمـا نـصَّ في الـبـريـد كـتـاب
وانـتـبـهـنـا لـقـولـكـم حـين قـلـتـم
حـدثـيـهـم عـن بـأسـنـا يـا حـراب
إن هـرمـتـم عـلـى الـحـروب فـإنّـا
كـلـمـا طـالـت الـحـروب شـبـاب
إن أردنـا أتـت إلـيـكـم سـراعاً
من بني الحرب إذ يعاف الضرابُ
ومـلأنـا الـثـغـور جـيـشـاً وخـيـلاً
ضـامـرات كـأنـهـن الـذئـابُ

لم يصيحوا بساحة الحي إلا
أن تداعوا إلى الظلال وخابوا
علم الله أن فيكم رجالاً
إن دعاهم سفيه قوم أجابوا)

إلا أن «الخوف» من القصيدة نفسها.. أدخلها إلى سرداب اختفت بداخله، ولم يبق منها في ذاكرة الأجيال المتعاقبة إلا مطلعها عند أشجع أدباء وشعراء تلك المرحلة على وجل..؟!

لكن القصيدة التي دخلت السرداب.. إلى جانب (خواطره) المدوية.. جعلته يتقدم صفوف الشعراء والأدباء آنذاك، فكان طبيعياً أن يكون من بين (الثلاثة) الذين انتدبتهم وزارة المعارف - أيام وزيرها الأول (الأمير فهد بن عبدالعزيز) - لاستقبال الدكتور طه حسين رئيس اللجنة الثقافية التي شكلتها الجامعة العربية لزيارة دولها، والتعرف على أوضاعها الثقافية.. بهدف صياغة برامج ثقافية عربية مشتركة تضاعف من لحمة شعوبها الأول (سوريا وشرق الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية ولبنان ومصر واليمن)، فكان أن تناقل شهود تلك الزيارة التاريخية ما حدث بعد أن فرغ الدكتور من(عمرته).. واختلى لأول مرة بأدباء الحجاز.. فهاله صمتهم، ليقول الدكتور طه بلغته العربية الفخمة: (أتهابونني)..؟!

فرد الأستاذ الفدا عليه قائلاً: هيبة العلم يا دكتور!! ثم أضاف قائلاً: رغم أن شاعرهم يقول:

(من هنا شع للحقيقة فجر. من قديم.. ومن هنا يتجدد)، ليطرب الدكتور طه.. قائلاً:

إن هذا هو الشعر، فينتشي قائله (الأستاذ العواد).. وتتفتح أبواب الحديث.

* * *

فـ (العواد) شاعراً.. لم يترك قضية من قضايا الوطن والإنسان.. إلا وعبر عنها شعراً موزوناً مقفى أو شعراً حراً، فقد كان رائده الأول والسباق به في جزيرة العرب.. قبل أن يُعرف هذا الشعر على مستوى العالم العربي مقروناً باسم الشاعرة العراقية الشهيرة نازك الملائكة، فقد حرمته طبيعة المكان.. آنذاك، من الذيوع والانتشار على المستوى العربي..!!

لكن ومع شعره الفكري الأوضح والأعلى نبرة.. إلا أن دواوينه لم يختف منها ذلك الشعر الذي يخاطب القلوب والوجدان، كقوله في قصيدة «في أعقاب الهوى»:

ألهبتك النار من وقدة إحساسي
.. على ساحة قلبك
وتداعت لأغانيك عذارى البحر
.. يحلمن بقربك
فتبناك «كيوبيد»..
.. وقد روّع من ثورة حبك
وتهاوت أنجم الليل تدانيك
.. لكي تحيا بقربك

لكن شعره الروحاني.. فاض في ديوانيه الأخيرين.. بتلك القصائد الدينية والفلسفية الرائعة، كقصيدة «صلاة نفس» أو قصيدة «دافق النور رحمة وسلاماً».. التي يقول فيها:

قد أفاق بنو الأرض من السكر حين عافوا الخمارا
ولسرعان ما يفيق السكارى

ولسرعان ما يثوب الحيارى
وإذا العزم في المفاصل ثارا
قلبَ الليلُ في الأنام نهارا
وأحال التراب والنقع نارا
وأثار الشرار يتلو الشرارا
فلكاً من نهوضه.. دوارا
وعباباً من الهوى، موارا
يخلق المؤمنين والأحرارا

دعوني بعد هذا أتوقف معكم عند رائعته: قصيدة «الغار».. أو ملحمة «الغار»، التي يبدأها قائلا:

في ذات أمسية لئيمة
إبليس أودعها سمومه
جمعت قريش أمرها - لا حبذا هي من سخيمة
فتجمهرت للكيد، والشيطان يلهمها علومه
فكأنما هو مأتم دامٍ ومعركة أثيمة

* * *

ومضى النبي إلى أبي بكر، لتدبير الرحيل
وبدت لرأي الصاحبين فداحة الأمر الجليل
فتوجها للغار يختفيان عن نظر الرعيل
ومشى النبيل المطمئن على هدى سنن السبيل
وتعاظم الصدّيق - أول أمره - هول المكان
إذ راعه شبح الجهامة فيه من أثر الزمان
حيث العناكب قد نسجن.. وحيث مأوى الأفعوان
فتقدم المختار يسبقه لطمأنة الجنان

ولشد ما أتت السكينةُ فاستحال الغار أفقا
وتبدلت أمناً، مخافة من تجهمه.. فرقا

* * *

ورأى السماء تكاد تحتضن الثرى حدباً ورفقا
وقالوا إذن فرَّ ابن آمنة ليثرب دون شك
وسيفعل القرآن بعد فراره في كل مكّي
وسينبري نحو الشمال بدعوة الإسلام يذكي
وسيصبأ العرب الغداة.. وهذه الأصنام تبكي

* * *

وتدخل القدر العظيم لينفذ المرسوم حتما
فأزاغ أعينهم من المتسترين، وأعمى
وأضلهم نسيج العناكب من الممر يثير وهما
والبيض في وكر الحمائم فوق باب الغار أوما
فتراجعوا نحو الوراء
ويمموا شطر الفضاء
والصاحبان على مدى شبر وقد سمعا النجاء
وكذلك ترتفع العقيدة، والمبادئ، والسماء
ولله في نصر الرسالة - بعد - يفعل ما يشاء

لقد أشعل العواد بامتداد سنوات حياته الثمانين.. شموعاً بعد شموع، وكان الرائد الحق لحرية الفكر والتعبير، ليقول قبل رحيله «إن الولادة الثالثة لأصحاب الرسالات تبدأ في اللحظة التي يغادرون فيها هذا العالم إلى عالم الرفيق الأعلى».. وقد بدأت ولادته الثالثة فعلاً مع رحيله..!!

الحلقة الثانية

حمد الجاسر

فارس هذه الصفحات القليلة هو العلاّمة: الشيخ حمد الجاسر.. الباحث، والأديب، والرحالة، والنسّابة، وعضو مجامع اللغة العربية في دمشق وبغداد والقاهرة. المولع بمواضع ومواقع الجزيرة العربية.. من قراها إلى مدنها.. ومن سهولها ووديانها إلى مرتفعاتها وجبالها.. ومن شواطئها إلى رمالها وصحرائها، الذي كتب معجمين عنها.. كان أولهما: «معجم المنطقة الشرقية».. وكان ثانيهما: «معجم شمال المملكة»، وكان أمله أن يعينه نظراؤه حتى يكتمل «المعجم الكبير» للمملكة، وقد أعانه أربعة منهم: الأستاذ محمد أحمد العقيلي بمعجمه عن «المخلاف السليماني».. والأستاذ علي بن صالح السّلوك الزهراني بمعجمه عن «بلاد غامد وزهران».. والأستاذ محمد ناصر العبودي بمعجمه عن «بلاد القصيم».. والأستاذ عبدالله بن خميس بمعجمه عن «بلاد اليمامة»، ولم يبق إلا ثلاثة أجزاء، عن شمال غرب المملكة، وعن الحجاز، وعسير ليكتمل «المعجم الكبير».. تنتظر رواداً مثله وعشاقاً مثله يؤمنون بأن المعاجم هي ذاكرة الوطن الجغرافية التي لا يصح ولا يجب أن تغيب عن أبنائه. فمن لا يعرف أرضه.. لا يعرف تاريخه.

لقد كان ولعَه بـ «المعاجم»: قراءة في البدء، وكتابة فيما بعد.. أعجوبة أقرب ما تكون إلى الخرافة منها إلى الحقيقة. فمن يصدق أن يعكف مدرس مادة الإنشاء في مدرسة ينبع الابتدائية - وقد كانت تلك أولى وظائفه - على نقل كتاب ياقوت الحموي «معجم البلدان» بخط يده في سبعة أيام حتى يسلمه لمشتريه بعد أن قرر بيعه بمائة وخمسين ريالاً، لينفق بها على نفسه.. نظراً لانقطاع راتبه عنه لسبعة أشهر في أزمة الثلاثينات الميلادية الشهيرة من القرن الماضي. إلا أن نقطة الاشتعال في ذلك الولع لم تخلُ من الطرافة فعلاً. ففي إحدى حصص الإنشاء.. كان الأستاذ الجاسر يشرح لطلبة السنة السادسة الابتدائية - في مدينة ينبع - بعض أبيات من قصيدة أبي العلاء المعري الشهيرة المعروفة باللامية، والتي يقول مطلعها:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ

عفافٌ وإقدام وحزم ونائل

.. إلى أن وصل في شرحه إلى البيت الذي يقول:

يهم الليالي بعضُ ما أنا مضمرٌ

ويثقِلُ «رضوى» دون ما أنا حامل

ليقول الأستاذ الجاسر في شرحه: «أما رضوى.. فهو جبل قريب من المدينة، وهو جبل سهل.. ترقاه الإبل» استناداً إلى ما كان قد قرأه من قبل في «مقامات الحريري».. فصاح الطلبة بصوت واحد: لا يا أستاذ.. ها هو «رضوى» أمامك وهم يشيرون إليه من

النافذة. ليفاجأ الأستاذ بمنظر جبل رضوى وارتفاعه وشموخه الذي لا يمكن أن ترقاه الإبل.. كما قال لطلبته. ليبدأ بسؤال نفسه: كيف يصح له أن لا يعرف جبلاً تمثل به أبو العلاء المعري ابن بادية الشام.. بينما هو ابن الجزيرة العربية لا يعرف عنه شيئاً؟! لينطلق منذ تلك اللحظة.. منذ ذلك الدرس الذي تلقاه على يد طلبته.. إلى رحلته المعرفية لجغرافية جزيرة العرب التي أخذت منه ما يزيد عن ستين عاماً من عمره.. وحتى وافاه الأجل.

* * *

إن قصة.. هذا النجم.. هذا الرائد.. هذا الفتى البدوي الفقير الذي خرج من قرية «البرود» في أقاصي القصيم وهو في الثامنة من عمره ليبدأ رحلة تسياره الطويلة بحثاً عن المعرفة والذات.. بادئاً بمدينة الرياض.. فمكة ومدارسها وحياتها.. فمصر وجامعاتها وأنديتها.. فدمشق وبغداد ومجامعها.. إلى أن جلس بعد تسعة وأربعين عاماً إلى جوار لطفي السيد وطه حسين والسنهوري والعقاد والحكيم والدكتور إبراهيم مدكور: عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.. جنباً إلى جنب، وكتفاً لكتف..!!

هي قصة طويلة.. بطول تاريخه.. وتعدد رياداته في قلب الجزيرة العربية، فهو المُعْجَمي الأول.. وهو المجمعي الأول.. وهو الباحث والنسَّابة الذي أغنى مكتبتنا بسلاسل رحلاته، والتي يذكرني الحديث عنها الآن.. بذلك اليوم الذي زار فيه «مراكش»، وكعادته فقد وضع حقيبته في الفندق الذي نزل به.. ثم توجه من فوره إلى أقرب مكتبة إليه، وبعد أن أطال الوقوف على كتب المكتبة..

كانت قد نشأت بينه وبين أمينها علاقة الأديب بـ «الأديب»، فدعاه هذا لتناول طعام الغداء عنده في اليوم التالي.. وعندما ذهب لتناول الغداء، قدم له أمين المكتبة.. وجبة «الكُسْكُسي» المغربية الشهيرة التي أكل منها الأستاذ هنيئاً حتى شبع. عندها سأله أمين المكتبة إن كان يعرف قصة وجبة «الكسكسي» هذه، ونشوءها..؟

فقال له إنه لا يعرف، ليقول له أمين المكتبة: إن هذه الوجبة كما تقول بعض الروايات هي وجبة سليمان الحكيم الذي شكا ذات مرة إلى طبيبه من الجان.. من أرق كان يلازمه ويبعد النوم عن عينيه، فعاد إليه طبيبه في اليوم التالي بهذه الوصفة.. التي تتمثل في وجبة (الكسكسي) التي أكل منها سليمان الحكيم فلم يأرق بعدها أبداً، وبالتأكيد فإن الأستاذ الجاسر نام بعد تلك الوجبة نوماً هنيئاً كما أكل هنيئاً.

* * *

أعرف أن المساحة في مقال كهذا لا تسمح لي.. بالتوقف عند كل تلك الريادات التي حققها شيخنا بأعلى درجات الصبر والجلد.. ولكنني سأتوقف عند واحدة منها، ريادة المعرفة والتنوير في قلب الجزيرة العربية، التي قادها «الجاسر» بإيمان ويقين بأن المعرفة.. هي أول أدوات التنوير والتغيير..؟

فبعد.. أن تناقلته الوظائف التربوية.. من ينبع إلى الإحساء إلى مكة المكرمة مدرساً، ومربياً.. فمراقباً للتعليم في مدينة الظهران.. حطت به عصا الوظائف التربوية في أعلى مراتبها

بعد واحد وأربعين عاماً: مديراً عاماً للمعارف في منطقة نجد.. أو معتمداً للمعرف بها بلغة ذلك الزمان وكادره.

... فكان يصح له بعد كل تلك السنين أن يضع ساقاً على ساق في أوقات فراغه وأن يهتم بعائلته ويلتقي بأصدقائه ومعارفه، ويكرس بقية وقته لمقالاته وأبحاثه التي كان ينشرها في صحف المنطقة الغربية كـ «أم القرى» والبلاد السعودية والمدينة المنورة، ولكنه لم يفعل ذلك وحده وقد كان يكفيه.. ولكنه تقدم للجهات المختصة بطلب السماح له بإنشاء أول «مكتبة» في الرياض.. هي: «مكتبة العرب».. حتى تقرأ الشبيبة والناشئة التي بدأت تتزايد.. صحف ومجلات مصر والشام والعراق.. والكتب والمؤلفات والمترجمات التي تصدر عنهم، والتي كانت تصلهم أخبارها ولا يدرون عنها شيئاً.. حتى يتواصلوا مع عالم النصف الثاني من القرن العشرين وأحداثه ومجرياته المتلاحقة والعاصفة.

ولم يقف الجاسر عند هذا الحد.. بل تقدم بعد أربع سنوات من استقراره في الرياض وفي وظيفته.. بطلب إلى ولي العهد آنذاك صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبدالعزيز لإصدار صحيفة يومية هي «الرياض».. على أن تبدأ شهرية.. فأسبوعية.. فيومية، فأذن له، ليسافر إلى «القاهرة» في مطلع الخمسينات الميلادية. حتى يتمكن بمعونة الدارسين من الشباب السعوديين في الجامعات المصرية من إصدارها وطباعتها هناك، ثم لتلحق به في الرياض.. ولكن عند وصولها منعت من الدخول بعد أن اعترض مدير مكتب

سموه وسكرتيره على مسمى «الرياض».. لتعاد ثانية إلى القاهرة لتعديل عنوانها إلى «اليمامة» بدلاً من الرياض.. فكانت المفارقة التي ظهرت للقراء أن محرري الصحيفة وكتابها يتحدثون عن صحيفة اسمها «الرياض» بينما اسمها الذي كانت تحمله هو «اليمامة»..!!

ثم دارت الأيام والسنين لتصدر صحيفة الرياض اليومية بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات ومن خلال مؤسسة اليمامة التي هندس قيامها الجاسر نفسه.... في عهد المؤسسات الصحفية.

ولم يقف الجاسر عند المكتبة والصحيفة الأسبوعية التي كان يعاني فيها الكثير من رقباء ذلك الزمان مع كل عدد يصدر منها، بل طلب بعد ذلك.. السماح له بإنشاء أول (مطبعة) في نجد، هي مطبعة الرياض: لتقوم بطباعة «اليمامة»، وما أخذ يصدر بعدها من صحف ومجلات ودوريات.. بفضل الشعلة التي أضاءتها صحيفته فـ «مجلته» في القلوب وفي العقول كمجلات: الجزيرة الأسبوعية والقصيم الأسبوعية وغيرهما..

وهكذا.. اكتملت له في تلك الظروف الصعبة أولى خطوط التنوير.. وأهم أدواته: من المكتبة.. إلى الصحيفة.. إلى المطبعة.. ومن خلفهم قلمه الوقاد.. وقلبه الشجاع، ليكون بحق رائد التنوير المعرفي في قلب الجزيرة العربية.. وأحد تلك النجوم التي لا تغيب.. وتلك الشموع التي لا تنطفئ التي ظللت سماء القرن العشرين.

الحلقة الثالثة

نزار قباني

كنت أقول كما قال قبلي كثيرون.. وقد يقول بعدي كثيرون: بأن الإكثار في حياة الشاعر يهبط بشاعريته وشعره.. ولا يرقى بهما، وأنه يدخله في دائرة التكرار، ويسقط عن ألفاظه جمالها وجدتها.. وعن معانيه صدقها وحرارتها وقوة تأثيرها التي تمثل هدف الشعر وبوصلة كل شاعر..

وأظنني كنت في هذا متأثراً بحوليات الجاهلية.. أو المعلقات السبع أو العشر.. وبتلك القصائد الفريدة في الشعر العربي عموماً كقصيدة دوقلة المنجليّ المعروفة بـ «اليتيمة» لتفردها، التي قال فيها:

هـل بـالـطـلـول لـسـائـل ردُّ
أم هـل لـهـا بـطـول تـكـلـم عـهـدُ؟

أو قصيدة «الحصري».. القيرواني الكفيف:

يـا لـيـل الـصـبُّ مـتـى غـدهُ
أقـيـام الـسـاعـة مـوعـده
رَقَـدَ الـسـمـارُ و
أرّقـه أسـفٌ لـلـبـيـن يـردده

[illegible]

مما يرعاه ويرصُدهُ

كَلِفٌ بغزال ذي هيفَ

خوف الواشين يشرُدُه

ولكنني على وجه اليقين كنت متأثراً في هذا الرأي، أو هذا اليقين الذي انتهيت إليه.. بثلاثة من الشعراء المقلين إلى أبعد الحدود والكبار إلى أبعد مدى: الشاعر والسياسي الفرنسي: (لامارتين).. الذي مات عن ديوان واحد هو: «خواطر شعرية».. ضم أربعاً وعشرين قصيدة، كان من بينها قصيدة «البحيرة» التي سافرت إلى أصقاع الدنيا، وقرأها الملايين بكل اللغات، والشاعر المهجري الرائد «جُبران خليل جبران».. الذي مات عن ديوانين هما: «عرائس المروج» و«رمل وزبد»، وأخيراً نيزك الشعر العربي في مصر: الشاعر والفيلسوف والفنان كامل الشناوي.. الذي مات عن ستة وخمسين عاماً وديوان واحد من الشعر هو: ديوان «لا تكذبي»، الذي ضمنه وطنياته أيضاً.. إلا أن عدد قصائد الديوان لم تزد عن ستة وعشرين قصيدة، وقد لحن وغنى معظمها كبار الملحنين والمطربين.. من عبدالوهاب إلى أم كلثوم إلى فريد الأطرش إلى عبدالحليم حافظ، حتى حفظ الناس كل تلك القصائد.. ورددوها وتغنوا بها. فمن لا يحفظ قصيدة «لا تكذبي» و«عدت يا يوم مولدي».. ومن لم يغن معه نشيد «الحرية»، و«أنا الشعب»؟

* * *

نعم. استقر يقيني، بأن الإكثار في حياة الشاعر.. ليس حياةً له.. بل وربما تتحول دواوينه الكثيرة إن كانت عشراً أو عشرين إلى مقبرة له، إلى إن كانت قصتي مع أحد أعلام الشعر في القرن العشرين.. الشاعر المبدع: «نزار قباني» الذي قلب موازيني واستقراري رأساً على عقب.. ولكن بصفة استثنائية دون شك، إذ ليس كل الشعراء المكثرين كـ«نزار»..!! فليسوا هم في إبداعه الفذ.. وليسوا هم في مفرداته وقاموسه.. وليسوا هم في حداثة وعصرية معانيه.. وليسوا هم في جرأته إن كتب عن الحب والعواطف.. أو إن تحدث عن الوطن ومآسيه.

لقد كتب سبعة عشر ديواناً كان أولها «قالت لي السمراء».. وكان آخرها «أشعار خارجة على القانون»، إلى جانب أعماله الشعرية «السياسية» التي تضمنها الجزء الثالث من أعماله الشعرية الكاملة في أكثر من ستمائة صفحة..

كان شاعراً مكثراً.. ولكنه كان مختلفاً في ألفاظه.. وفي معانيه.. وفي صوره الشعرية الجديدة: الرائعة والباهرة التي ترى وتلمس وتعيش فيها روح العصر بكل أجوائه ومناخاته. لقد بدأ في أوائل الأربعينات من القرن الماضي شاعراً في بلاط المرأة: يصفها ويتغزل فيها. يخاصمها ويصالحها. يدافع عنها ويقسو عليها، ويشقى ببعدها ويحن إلى قربها.. وقد استغرقه البقاء في بلاطها على هذا النحو لأكثر من عشرين عاماً، ولأكثر من عشرة دواوين.. فلم يستلفتني كل ذلك الشعر الذي كتبه عن المرأة.. وكل ذلك الضجيج الذي أثاره حولها وحول نفسه حتى اتهم بالخلاعة

والميوعة وما هو أكثر، لكن كان يستوقفني في ذلك الشعر.. بعض تلك الصور التي لم تغنَّ كقوله عن المناضلة الجزائرية «جميلة بوحَيَرَد»:

- الاسم: جميلة بوحيرد
  تاريخٌ.. ترويه بلادي
  يحفظه بعدي أولادي
- تاريخ امرأة من وطني
  جلدت مقصلة الجلاَّد
- امرأة دوَّخت الشمس
  جَرَحَتْ أبعاد الأبعاد
- يذكُرها الليلك والنرجس
  يذكرها.. زهرُ الكبَّادِ
- ما أصفر جان دارك فرنسا
  في جانب جان دارك بلادي

مضافاً إليها بعض تلك الصور المغناة كقوله في قصيدته «أيظن»:

(حمل الزهور إليَّ.. كيف أرده
وصبايا مرسوم على شفتيه
ما عدت أذكر والحرائق في دمي
كيف التجأت أنا إلى زنديه

خبأت رأسي عنده.. وكأنني
طفل أعادوه إلى أبويه
حتى (فساتيني) التي أهملتها
فرحت به.. رقصت على قدميه
سامحته وسألت عن أخباره
وبكيت ساعات على كتفيه
وبدون أن أدري تركت له يدي
لتنام كالعصفور بين يديه)

وكقوله في «ماذا أقول له».. قصيدته الأخرى المغناة:

(ربَّاهُ أشياؤه الصغرى تعذبني
فكيف أنجو من الأشياء ربَّاهُ؟
هنا جريدته في الركن مهملةٌ
هنا كتابٌ معاً.. كنا قرأناه
على المقاعد بعض من سجائره
وفي الزوايا بقايا.. من بقاياه
ما لي أحدّق في المرآة.. أسألها
بأي ثوب من الأثواب.. ألقاه؟
أأدعي أنني أصبحت.. أكرهه
وكيف أكره.. من في الجفن سكناهُ)

أو كقوله في قصيدته المغناة.. الجديدة فكرة وبناء «قارئة الفنجان»:

(بحياتك يا ولدي، امرأة
عيناها سبحان المعبود
فمها.. مرسوم كالعنقود
ضحكتها.. موسيقى وورود
لكن سماءك ممطرةٌ..
وطريقك.. مسدودٌ.. مسدود
فحبيبة قلبك.. يا ولدي
نائمة في قصر مرصود
من يطلب يدها.. من يدنو
من سور حديقتها.. مفقود.. مفقود)

* * *

لكن هذا الشعر.. على جمال صوره.. وبراعة التقاطه.. وسلاسة وعذوبة ألفاظه، لم يحملني على إعطائه صفة التقدير التي يستحقها دون شك، ولكن عندما خرج من فردوس المرأة أو قفصها.. وحديث الحب ولياليه والسمراوات والشقراوات وكتب قصيدته: «هوامش على دفتر النكسة».. بعد كارثة يونيه ١٩٦٧م.. قائلاً:

(يا وطني الحزين
حولتني بلحظة

من شاعر يكتب «شعر الحب» والحنين

لشاعر يكتب بالسكين)

.. كان وكأن ملايين القراء العرب... ينتظرون قصيدته.. ملحمته، وينتظرون عودته من عالم المرأة والحب والحنين إلى تلك الكتابة بالسكين.. ليفاجئه.. كما فاجأ - العالم كله - نبأ وفاة (عبدالناصر) الصاعق وغير المتوقع.. بعد دقائق من وداعه لآخر الزعماء العرب، الذين لبوا دعوته لحضور القمة العربية الطارئة في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠م لـ (احتواء) الصراع الدموي الذي اندلع بين الأردنيين و(المقاومة) فيما عرف آنذاك بـ (أيلول الأسود).. فيتدفق حزنه ودمعه بتلك القصيدة التي تعتبر بحق واحدة من أروع المراثي العربية وأعظمها.. وهو يقول بـ (دراميته) ووعيه السياسي لما في صدور البعض من العرب:

(قتلناك.. يا آخر الأنبياء

قتلناك..

ليس جديداً علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا..

وكم من إمام..

ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء..

* * *

قتلناك..

يا جيل الكبرياء

وآخر قنديل زيت..

يضيء لنا في ليالي الشتاء

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقلنا المنية..

لماذا قبلت المجيء إلينا؟

فمثلك كان كثيراً علينا..

سقيناك سُمَّ العروبة حتى شبعت..

رميناك في نار عمان.. حتى احترقت

أريناك غدر العروبة حتى كفرت

* * *

لماذا ظهرت بأرض النفاق..

لماذا ظهرت؟

فنحن شعوب من الجاهلية

ونحن التقلُّبُ

نحن التذبذبُ..

والباطنية..

نبايع أربابنا في الصباح

ونأكلهم حين تأتي العشيَّةْ)

.. لتصادفه بعد شهور قليلة - في الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧١م - مناسبة (ذكرى ميلاد عبدالناصر) الواحدة والخمسين، والتي جرى الاحتفال بها بصورة شخصية ورسمية لم تعرفها (مصر) طوال حياتها رغم الموت الذي غيب صاحبها.. لتتكأ (الذكرى) جرحه الذي لما يندمل على فقد (الزعيم)، فيشسيد به وبـ (زمانه) وهو يبكيه.. ويبكيه وهو يشيد به وبزمانه في واحدة من روائعه العروبية النزارية.. قائلاً:

(زمانك بستان وعصرك أخضر
وذكراك عصفور من القلب ينقر
ملأنا لك الأقداح، يا من بحبه
سكرنا، كما الصوفيُّ بالله يَسْكَر
دخلت على تاريخنا ذات ليلة
فرائحة التاريخ مسك وعنبرُ
تناديك من شوق إليك مآذن مكة
وتبكيك يا حبيبي بدر وخيبر
ويبكيك صفصاف الشام وورده
ويبكيك زهر الغوطتين ودمرُ
أبا خالد.. أشكو إليك مواجعي
ومثلي له عذر ومثلك يعذر)

.. لكن وقبل أن ينقضي عقد السبعينات ورغم نصر أكتوبر العظيم - عام ١٩٧٣م - إلا أن السادات - الذي خلف الزعيم -

أخذ يسعى بصورة لاهثة لتحقيق (سلام جائر) مع (إسرائيل) برعاية أمريكا جيمي كارتر، ليعطي إسرائيل السلام الذي تريده بخروج القوة العربية الوحيدة القادرة على التصدي لـ (طغيانها) و(عدوانها) المستمر على (كل) العرب.. دون أن تسترد مصر كامل أراضيها إلا في أوائل الثمانينات، أما فلسطين والفلسطينيون.. وهم الحلقة الأضعف فقد داستهم غوغائية الاحتلال الإسرائيلي المدعوم أمريكياً.. لأنهم تخلفوا عن لقاء فندق ميناهاوس.. كما كان يقول السادات (!!) لينقسم العرب إلى قسمين: أقلية قليلة مع مصر السادات.. وأكثرية كاثرة ضدها.. حتى هاجر مقر الجامعة العربية من (القاهرة) قلب العروبة النابض إلى (تونس)، وأخذت تمضي السنون.. إلى أن جاء عام ١٩٨٥م.. عام (ذكرى) مرور أربعين عاماً على قيام (الجامعة العربية) والعرب في أسوأ حالاتهم: انقساماً وتشرذماً وغدراً ببعضهم البعض.. لينوح (نزار) – وقد دعته (أمانة) الجامعة للمشاركة في احتفالاتها ب (الذكرى الأربعينية) لقيامها – في قصيدته التي ألقاها في ليلة الاحتفال.. وبعد خمسين بيتاً من مطلعها قائلاً:

(أنا يا صديقتي متعب بعروبتي

فهل العروبةُ لعنةٌ وعقابُ

أمشي على ورق الخريطة خائف

فعلى الخريطة كلنا أغرابُ

أتكلم الفصحى أمام عشيرتي

وأعيدُ ولكن ما هناك جوابُ
لولا العباءات التي التفوا بها
ما كنت أحسب أنهم أعرابُ)

.. ليطلق بعد سنوات قليلة من عودته من (تونس) أضخم منجنيق شعري عرفه الشعر والشعراء في ذلك (التقرير السردي) عن (دولة قمعستان)، والذي قذف به من عاصمة البحرين «المنامة»، والذي قال فيه ما لم يجرؤ أحد على قوله من قبل.. بادئاً تقريره بقوله:

(هل تطلبون نبذة صغيرة عن أرض قمعستان
تلك التي تمتد.. من شمال أفريقيا.. إلى بلاد نفطستان
تلك التي تمتد.. من شواطئ القهر.. إلى شواطئ القتل
إلى شواطئ السحل.. إلى شواطئ الأحزان
وسيفها يمتد من مدخل الشريان إلى الشريان
ملوكها يقرفصون فوق رقبة الشعوب بالوراثة
وأول البنود في دستورها،
يقضي بأن تلغى غريزة الكلام في الإنسان
الله... يا زمان)

.. فـ (موضحاً) ماهيته.. قائلاً:

(هل تعرفون من أنا؟
مواطن يسكن في دولة قمعستان
مواطن يحلم في يوم من الأيام أن يصبح في مرتبة الحيوان

مواطن يخاف أن يجلس في المقهى..
لكي لا تطلع الدولة من غياهب الفنجان
مواطن يخاف أن يقرب زوجته
قبيل أن تراقب المباحث المكان
مواطن أنا من شعب قمعستان
أخاف أن أدخل أي مسجد
كي لا يقال إني رجل يمارس الإيمان
كي لا يقول المخبر السري
أني كنت أتلو سورة الرحمن
الله... يا زمان)

.. فـ (منتهياً) إلى قراره الإنساني النبيل بـ (العصيان).. قائلاً:

(يا أصدقائي:
إنني مواطن يسكن مدينة ليس بها سكان
ليس لها شوارع.. ليس لها أرصفة
ليس لها نوافذ.. ليس لها جدران
ليس بها جرائد..
غير التي تطبعها مطابع السلطان
عنوانها؟ أخاف أن أبوح بالعنوان
كل الذي أعرفه..
أن الذي يقوده الحظ إلى مدينتي.. يرحمه الرحمن
يا أصدقائي:

ما هو الشعر.. إذا لم يعلن العصيان
وما هو الشعر.. إذا لم يُسقط الطغاة.. والطغيان
وما هو الشعر.. إذا لم يحدث الزلزال.. في الزمان والمكان؟
وما هو الشعر.. إذا لم يخلع التاج الذي يلبسه كسرى أنوشروان؟
من أجل هذا أعلن العصيان)...

.. ليبلغ (نزار) بتقريره هذا مرحلة الذوبان بينه وبين «قضيته» في الدفاع عن أزمة الإنسان ومآسي الأوطان.. حتى لم يعد يعرف أحدٌ: أين الشاعر وأين الإنسان..؟ فقد أصبح الإنسان هو الشاعر.. والشاعر هو الإنسان.!! وقد كانت تلك اللحظة واحدة من أسطع وأعظم لحظات حياته.

* * *

لقد عاش (نزار) في زمن عمالقة الشعراء العرب في القرن العشرين إجمالاً.. في زمن الرصافي، والزهاوي والجواهري، والبارودي، وشوقي، وجبران، ومطران، وحافظ، والشناوي، وشحاتة، والعواد.. ولكنه تقدمهم جميعاً عندما انتهى به إيمانه إلى خندق الدفاع عن قضايا الإنسان والحريات والأوطان.. بقلم عربي مبين، وبفكر عز نظيره، وبشجاعة قل مثيلها.. ليحلق في سماء الشعر كوكباً لا ككل الكواكب.. وشمساً لا ككل الشموس، وهو ما أعطاه (الصدارة)، ليأخذ مكانه في قطار الخالدين منهم.

الحلقة الرابعة

أندريه مالرو

دعونا نغادر أرض الوطن.. وحدود الوطن العربي كله.. إلى قارة أوروبا: قارة الحضارات والثقافة والفكر والآداب والفلسفة والموسيقى والفنون.. القارة التي استعمرت العالم قديماً وبهرته ومازال تبهره حديثاً، بتقدمها الصناعي.. وبجمالها المعماري.. وبحيوية فكرها وآدابها وفنونها وموسيقاها، ونماذجها العلمية والأدبية والفنية التي لم تنقطع عن تصديرها إلى العالم كله.. منذ الثورة الصناعية في القرن السادس عشر وإلى اليوم، لأقف، وتقفون معي عند واحد من أدبائها في القرن العشرين.. عند «أندريه مارلو»: المثقف.. والسياسي والمحارب والأديب والروائي والفنان، الذي ولد في مطلع القرن العشرين، وشارك في الحرب الأهلية الصينية ما بين عامي ١٩٢٥م إلى عام ١٩٢٧م.. فاستهوته عاصمة الصين: «بكين» وحضارتها وفلسفتها وثقافتها.. فمكث بها سنيناً طويلة كتب خلالها أولى رواياته الثلاث، لكن أهمها.. كانت روايته «مصير البشر» الذي أخذ عنها الجائزة الفرنسية المعروفة «جونكور».. فكان بذلك كسلفه السياسي والأديب «كليمنصو» الذي كتب في الصين روايته الرائعة «قناع السعادة»..

وكان عجيباً أن ينتقل هذا الأديب الفنان والسياسي المحارب.. إلى «أسبانيا» ليكتب عن المقاومة الأسبانية في أوائل الثلاثينات عبر روايتيه الأشهر: «الاحتقار» في ١٩٣٥م، و«الأمل» في عام ١٩٣٨م، ليعود بعد ذلك إلى فرنسا.. وإلى مقاومة الاحتلال النازي لـ «فرنسا» وباريس خلف الزعيم الفرنسي شارل ديجول، الذي أعجب به.. وبوقفته وسط انهيار فرنسا أمام جحافل القوات الألمانية الهتلرية. إذ كان «ديجول» ساعتها.. ليس بأكثر من موظف فرنسي صغير برتبة وكيل وزارة في وزارة الحربية، ولكنه خطف عقله وقلبه.. عندما هرب من فرنسا إلى إنجلترا وأعلن المقاومة للنازية: وهو يقول: أنا فرنسا.. الحرة.

وعندما انتهت الحرب بانتصار «الحلفاء»، ومعهم «المقاومة» التي قادها ديجول وإلى جانبه مارلو.. وجرت الانتخابات التي لم تعط ديجول وصديقه ما تمنياه لينصرف كل منهم إلى مسقط رأسه، ثم ليعودا من جديد مع أزمة الثورة الجزائرية والانقسام الفرنسي الشعبي الذي حدث وقتها حولها.. بين الجنرالات الفرنسيين الذين يعتبرون الجزائر أرضاً فرنسية، وبين «ديجول» الذي كان يقول وقتها كما ذكر مارلو: «كان على فرنسا أن ترتدع عن التعلق بمستعمرة، وترك الخيار لها بأن تنضوي تحت الهيمنة الفرنسية، أو أن تتسلم استقلالها».. ليقيم الجمهورية الرابعة برئاسته.. وليكون «مالرو» وزير ثقافته الدائم فيها..

* * *

لقد كتب مارلو الكثير من الروايات.. والمئات من المقالات.. والعشرات من القصص ولكن عندما مات ديجول أثناء اعتزاله الأخير في نوفمبر عام ١٩٧٠م بقريته الثلجية «كولبي».. كتب عنه ربما أجمل كتبه ورواياته وبإطلاق. إنه كتاب: السنديانات التي يقطعون.. أو «ديجول وأنا»..

لقد أحبه في ذلك الكتاب.. وكتب قصة حياته.. وقدم فكره وعشرات العشرات من مواقفه وذكرياته وسخرياته وأحزانه.. فيما لا يزيد عن مائة وستين صفحة من الحجم الصغير، وعلى طريقة الفرنسيين خصوصاً والأوروبيين عموماً الذين تكتنز سطورهم القليلة.. معان كثيرة تبهر وتدير الرؤوس..!

في البدء قال عنه: «وجه بلا عمر. وصمت أجمل من الكلام. وكلام أمتع من الصمت».

وقال عنه: «إنه بطل ينتمي إلى الميدان الأسطوري، ولذلك فإن فعله لا يتأتى من النتائج التي يبلغها.. بل من الأحلام التي يجسدها»..!!

و«أن في مجده عنصر غير عقلاني، فهو قائد التحرير، والمنتصر المنفرد، والمتمرد، وصاحب قيامة الطاقة الوطنية، ومن ثم قيامة الأمل حتى عام ١٩٥٨م، وهو الوحيد الكان جديراً بمواجهة الكارثة (ويعني بها الاحتلال الألماني) لا لأنه قادر على تحقيق الوحدة الوطنية على طريقة بوانكاريه. لكن لأنه كان يحمل فرنسا فيه»..!!

وأخيراً «إن أصدقاءه وخصومه معاً، يجدون فيه ساحراً كما جان دارك في محكمة روان..! التي حكمت عليها المحكمة بالموت حرقاً، وهي الوطنية والقديسة الحالمة بفرنسا ومجدها»..!!

ولكن ما أجمله عندما تحدث عن «المساواة» و«التمايز» عند الفرنسيين وهو يتوجه بخطابه إلى ديجول: «الفرنسيون كما تعرف يصعب عليهم التصرف بين رغبتهم في التمايزات وذوقهم في المساواة»..!؟ وما أروعه وهو يسترجع مع ديجول قولته: «الزمن وحده يصنع التاريخ. وإذا تاريخ فرنسا يمر في استقلال الجزائر، فليمر! في اتحادنا مع ألمانيا، فليمر، لم يكن مفرحاً الندم على استقلال الجزائر»، وما أمتعه وهو يستعيد موقف ديجول «عندما رأى الفنانة بريجيت باردو في إحدى حفلات الإليزيه تصل بثوب فاضح على الطريقة الفرنسية.. ليبتسم لها قائلاً: ما أقل حظي يا سيدتي. أنت بالزي العسكري وأنا بالزي المدني»..!

وكان أكثر روعة وهو يتحدث عن حب «ديجول» الملتبس لنابليون، الذي أعجب بقولته عندما وصل إلى منفاه في جزيرة سانت هيلين: «هذا محزن.. كما العظمة»! لكن.. مع ذلك، قال عنه: «ترك فرنسا أصغرَ مما وجدها»!! ليضيف برؤياه التاريخية الرائعة «لكن الأمة لا تتجدد هكذا، فقد كان يجب من صالح فرنسا.. أن يوجد، كما فرساي.. كان يجب بناؤه. لا يجب أن نفخر بالعظمة»!!

إلا أن عظمة «مالرو» و«ديجول» تجلتا معاً.. عندما طلب مالرو من ديجول العودة عن استقالته بعد أحداث ٦٨م والاستفتاء الذي

جرى بعدها.. فقال له: «لن يمكنني للمرة الثالثة الإمساك بفرنسا من شعرها.. في اللحظات الأخيرة»..؟!

ما أمتع وأروع ذلك الذي كتبه أندريه مارلو.. وجعل منه نجماً ساطعاً من نجوم القرن العشرين يلحق بمن سبقوه وجايلوه من أدباء وأديبات فرنسا.. الذين سيكون لي معهم أكثر من لقاء عودة في هذه السلسلة من المقالات.

الحلقة الخامسة

عــزيز ضيــاء

إذا كان القرن الماضي بويلات حربيه العالميتين: الأولى والثانية.. قد أخرج عشرات الكتاب والأدباء والفلاسفة والفنانين من أوروبا الغربية والأمريكتين.. فإن الجزيرة العربية التي شاركت مشاركة فعالة في «الحرب الأولى»، وحايدت في «الحرب الثانية» إلا من مساعدات فرضها عليها: النفط والخوف من بطش الأقوياء.. كان لها نصيب من ذلك.. وإن بدا غير محسوس أو غير معترف به من السبَّاقين من أدباء وشعراء مصر، والشام، والعراق، بسبق دولهم إلى المدنية والتقدم والرقي.. عندما كانت الجزيرة العربية إجمالاً تتعثر في فقرها وقلتها في كل شيء.

إن أول هؤلاء الذين يشرِّق بهم تاريخهم وتسطع بهم ذاكرتي.. هو هرم الأدباء والكتاب والمترجمين والنقاد والمحللين السياسيين: الأستاذ عزيز ضياء، فقد ولد في مطلع العام الذي شهدت نهايته بدايات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م)، ليعيش تلك الحرب وهو لا يدري منها شيئاً.. في رضاعه وفطامه، ثم ليفيق وهو ابن الخامسة.. ليجد نفسه طفلاً خائفاً زائغ البصر والنفس فوق وبين أكوام من الأمتعة، وحوله أمه وخالته و«دادته» وجده ودموعه وهي

تسيل على لحيته البيضاء، وشفتاه لا تكفان عن الصلاة على النبي وترديد الآية الكريمة «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، ليعلم أن الشيء الذي كان يهتز به.. هو: «سفر برلك».. أو آخر عربة قطار تغادر المدينة المنور إلى دمشق، وهي تحمل رعايا الدولة العثمانية إلى بقايا أراضيها في الشام بعد أن أصدر «فخري باشا» والي المدينة المنورة العثماني أوامره بالرحيل عنها.. بعد أن استولى «الشريف الحسين» على مكة وجدة والطائف وينبع، وسقطت القدس وفلسطين في يد البريطانيين.. وبيروت ولبنان في يد الفرنسيين، ليرى هناك بعد حين في دمشق وحلب وحماة.. بقايا الجنود العثمانيين و«الألمان» وخوزاتهم وسياراتهم و«جبخانات» أسلحتهم، ولتروعه من قبل مشاهد الموت.. جوعاً ومرضاً على أرصفة الشوارع والميادين وفي المساجد والطرقات، ثم ليعود بعد ذلك من القنطرة إلى اللاذقية ثم عبر البحر إلى «ينبع».. ثم فوق الجمال إلى «المدينة» ثانية وقد فقدت العائلة جده الشيخ، وخالته الحسناء، و«الدادة» التي قتلتها مشاهد الحزن والأسى على الأسرة وما آل إليه مصيرها من تشرد وفقر ومرض وضياع.. فلم يبق معه إلا والدته الصابرة المكافحة التي استوقفت «الجمّال» بعد أن بلغوا محطة «الاستسيون» في المدينة المنورة.. لتتوضأ وتصلي صلاة الشكر لله لعودتها إلى «المدينة المنورة» وهي تلعق ترابها مرة.. وأخرى.. وثالثة ودموعها تسبق ركوعها وسجودها.

* * *

لقد كان مشهد الافتتاح في طفولته.. مروعاً ومرعباً. دامعاً ودامياً.. ولكنه كان معلماً وملهماً له، فقد ملأه عزيمة وطموحاً، وملأه يقيناً مبكراً بأن الحياة والحزن: توأمان!! وإذا كان من سوء حظه أنه تيتم وهو في شهره التاسع بسفر والده الطويل الذي لم يعد منه.. حتى مات، فقد كان من حسن طالعه أن تقترن والدته بصيدلي أرستقراطي مثقف (زاهد ضياء)، يعرف «الكتاب» و«الأسطوانة» ويستخدم أرقى أدوات العصر حياة.. مما لا يعرفه الكثيرون من أبناء المدينة وأهلها آنذاك، وقد كرهه بداية.. لانتزاعه أمه منه، ثم أحبه في النهاية.. إلى الحد الذي جعله يأخذ من اسمه: لقباً له.. ومن طرائق وأسلوب حياته مرجعية له، هي تلك التي عاش بها.. ورأيته عليها طوال العشرين سنة الأخيرة من حياته.. حتى أسميته بـ «اللورد عزيز» خلافاً لما أجمع عليه محبوه عندما كانوا يسمونه بـ «الأب عزيز» لتميزه، وتميز كتاباته، وللغته الإنجليزية التي صقلها بجهوده بين الندرة ممن كانوا يتحدثون بها أو يكتبونها، ولتفرده باستخدام الآلة الكاتبة بين كل من سبقه ولحقه من زملائه في كتابة مقالاته وقصصه.. ككبار المراسلين الصحفيين.. وككبار الكُتّاب في الغرب.

* * *

فبعد أن أنهى دراسته في «المدرسة الراقية» بالمدينة.. غادرها إلى «مدرسة الصحة» التي تم افتتاحها آنذاك في مكة ظناً منه أنها مدرسة لتخريج «الأطباء»، وعندما اكتشف أنها «مدرسة

للتمريض».. غادرها ليعمل موظفاً بإدارة الصحة نفسها، لكن طموحه الدراسي لم يجعله يستسلم لخدر الوظيفة، فاستقال منها ليحقق حلمه - وقد ضاع منه لبعض الوقت - في الحصول على «الثانوية العامة» في سنة واحدة حتى يتمكن من دخول الجامعة.. فسافر إلى القاهرة والتحق بـ«مدرسة الخديوي إسماعيل» الثانوية، ولكن حلمه لم يتحقق في الحصول على الثانوية في سنة واحدة بعد أن رسب في مادتين.. وعندما دخل امتحان الدور الثاني رسب أيضاً في مادة الفيزياء، ولكن تلك النتيجة المخيبة لآماله.. لم تجعله يلغي حلمه في الالتحاق بالجامعة، فسافر إلى بيروت للالتحاق.. بالقسم الحر في «الجامعة الأمريكية»، وفي عامه الثاني بدأت طلائع الحرب العالمية الثانية.. وقد كانت حرباً ضروساً تتواضع أمامها الحرب العالمية الأولى.. فعاد إلى الوطن، وإلى الوظيفة ثانية.. ليتحقق له جانباً من حلمه الجامعي بعد ذلك عندما التحق بمعهد التحقيق الجنائي في «كلية الحقوق» بالجامعة المصرية.. وتخرج منه بتفوق مكنه من اعتلاء عدد من المناصب، لكن المثقف فيه كان قد نما وكبر.. ولم يعد يحتمل الصمت.. فَفُصل من «الوظيفة»، ليذهب إلى القاهرة ثانية.. ومنها إلى الهند مذيعاً ومترجماً في القسم العربي بإذاعة «دلهي»، ولكنه استدعي من هناك.. ليتسلم واحدة من أكبر الوظائف (آنذاك): مديراً لمكتب مراقبة الأجانب.. فوكيلاً للأمن العام لشؤون الجوازات والجنسية.

* * *

إن الكاتب والفنان المبدع.. في عزيز ضياء لم يكن لينتظر كل هذه السنين التي اختصرت بعضاً منها في السطور السابقة ليعلن عن نفسه ووجوده، فقد بعث بأول مقال له لصحيفة «صوت الحجاز» عند ظهورها (١٣٥٠هـ).. عندما كان في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره موظفاً بمديرية الصحة، فكان احتفاؤها بنشر مقاله الأول.. داعياً له أن يصحب مقاله الثاني في أول زيارة يقوم بها لمكتب الصحيفة في مكة، وقد خيلت له قراءاته.. أنه سيجد في صالونها: جوته.. آخر، وفولتير.. آخر، وبلزاك آخر، ولكنه فوجئ بغير ذلك.. كما فوجئ رئيس تحريرها بأن صاحب المقال الذي احتفت به صحيفته.. هو هذا الشاب الصغير النحيل الذي يقف أمامه..!!

ولعل أسباب المفاجأة عند الطرفين.. تكمن في ذلك الاختلاف بينه وبين الآخرين والذي كانت تقوم عليه مفردات حياة الأستاذ عزيز: فهو مختلف في قراءاته عن سابقيه ومجايليه.. وهو مختلف عنهم في أدائه بين الإبداع والترجمة.. وهو مختلف عنهم في تنوع إنتاجه بين المقالة والقصة والتمثيلية والتعليق، وهو مختلف عنهم في أسلوبه الذي جمع بين جزالة الماضي وعصرية الحاضر وإشراقات الآتي.. ولذلك لم يكن غريباً أن يحتل موقعه .. إلى جانب الأساطين ممن سبقوه من أمثال الغزاوي والصبان والآشي والعامودي في ثالث كتب النهضة الأدبية في بلادنا وأعني به كتاب «وحي الصحراء».. وهو في الثالثة والعشرين من عمره.. حيث

يقول في واحدة من مقالاته ومقطوعاته السبع التي نُشرت له فيه بعنوان «أمتي»:

«كنت يا أمتي فجراً فضياً في ظلمات الماضي السحيق.. وأصبحت بصيصاً خابياً في نور الحضارة الجديد.

كنت يا أمتي شمساً يستضيء بها الضالون وأصبحت ظلاماً يضِلُّ فيه المهتدون.

كنت يا أمتي قوة يخافها الأقوياء.. وأصبحت ضعفاً يعبث به الضعفاء».

وفي أخرى عن «العيد» وقد تذكر خالته الشابة الحسناء التي ماتت وهي في ميعة صباها أثناء الحرب الأولى.. فتمثلها في الشمس وهي تغيب.. وإلى الحد الذي يختلط على قارئه إن كان يتحدث عن الشمس أو عن خالته الشابة:

«كانت تحب الحياة وتبغي البقاء

فكان احتضارها أملاً وهوى

ولكن الأجل قد جاء والوقت قد حان

فتخاذلت، وهناك وراء الجبال لاقت الردى

فحملها الأفق إلى مثواها في أعماق الدهور

وكلل الشفق نعشها بالزهور

وبكاها فأراق على الأفق الدماء

ثم لما ابتلعها لحدها وغيبها دهرها

صاح في الروض طير

لقد ماتت ذكاء

فكان يوم قديم قد مر، وكان شهر قديم قد انقضى

وجُن جنون السحاب الحزين

فناح نواحاً.. يثير الحنين»!!

وفي ثالثة بعنوان «وطني».. يقول فيها:

«من حرارة شمسك استمددت حرارة إخلاصي

من صفاء جوك اكتسب الصفاء ضميري

وسأظل يا وطني

سأظل وفياً لك مادامت لبان أمي تجري في دمائي

وستظل حرارة إخلاصي مادامت حرارة شمسك

وسيدوم صفاء ضميري مادام صفاء جوك

وسأبقى صريحاً قوياً ما بقيت سهولك وجبالك»

.. بهذه الأنفاس المختلفة، وبهذه الحرارة المبكرة تدفق عطاء الأستاذ عزيز.. في مئات المقالات التي جاءت فيما بعد، والتي تم تبويبها وحصرها عند إعداد أعماله الكاملة في أربعة مجلدات هي: «مع الفكر والمجتمع» و«حصاد الأيام» و«آراء في الحب والفن والجمال» و«كان القلب يقول».. إلى جانب مجموعته القصصية «ماما زبيدة وقصص أخرى»، وروايته التي لم تكتمل «عناقيد الحقد»، وكتابه الشهير عن حمزة شحاتة «قمة عرفت

ولم تكتشف».. إلى جانب تمثيلياته التي كان من أجملها وأبرزها: «الحصاد» و«الأطلال» و«كانت أيام» و«هذا هو الحب».

* * *

كانت قراءات الأستاذ عزيز للإنجليزية.. سبباً لتعرفه على كثير من رموز الأدب والفكر والفن في العالم، والإعجاب بهم وبأعمالهم الأدبية والفكرية والمسرحية والموسيقية.. بل وأحسب أن تلك المعرفة وذلك الإعجاب كانا سبباً رئيسياً في كتابة كتابه الجميل: «جسور إلى القمة» الذي ترجم فيه لحياة سبعين من ألمع أدباء ومفكري وفناني العالم من العرب والمسلمين والغرب.. فكان من بينهم اثنان وثلاثون من أدباء ومفكري وفناني أوروبا كـ «روسو» و«ديكارت» و«موليير» و«شو» و«شوبان» و«دافينشي».. على سبيل المثال، بل وأحسب أن الإعجاب بهم.. كان أحد دوافعه الأساسية لترجمة الكثير من أعمالهم، وأعمال غيرهم التي بلغت ما يزيد عن ستة عشر عملاً.. كان في مقدمتها ترجماته لأعمال «سومرست موم» القصصية، ولأعمال «طاغور» ولبعض مسرحيات «أوسكار وايلد» و«الخادمتان» لجان جينيه، ومدرسة الزوجات لـ«تولستوي» إلى جانب ترجمته لرواية «عهد الصبا» في البادية التي كتبها مؤلفها «إسحاق الدقس» بالإنجليزية عن الحياة العربية في البادية.. إضافة إلى ترجمته الضخمة لرواية «العالم عام ١٩٨٤م» الشهيرة.. لمؤلفها جورج أرويل..

لقد استغرقته.. التراجم كثيراً وطويلاً إلى جانب مقالاته اليومية والأسبوعية في الصحافة، وتعليقاته في الإذاعة، ومحاضراته في الأندية والجمعيات، ولكنه التفت في اللحظة المناسبة لكتابة قصة حياته.. وكأنه قد أخذ بقول القائلين: إن أجمل قصة في حياة الكاتب.. هي قصة حياته!! ليكتب حياته مع «الجوع والحب والحرب».. في ثلاثة أجزاء لا أجمل ولا أمتع منها، وكان طبيعياً أن يهديها لـ «أمه».. وأن يقدمها لـ «ولده»، وكان رائعاً أن يصدرها بالمثل الفرنسي الذي يقول: «الحياة كالبصلة.. يقشرها المرء وهو يبكي»..!؟

الحلقة السادسة

عبدالله البردوني

تقول قصة حياة الشاعر اليمني الكفيف عبدالله البردوني: أشهر شعراء اليمن وأعظمهم في القرن العشرين.. بين من سبقوه كالزبيري ومن لحقوه كالمقالح، إنه ولد في قرية «بَرَدُون» من قرى محافظة ذمار اليمنية في عام ١٩٢٩م، وأنه أصيب بالجدري وهو في الخامسة من عمره.. فشوه وجهه وأفقده بصره منذ ذلك الحين.. وإلى الأبد، ومع ذلك.. فقد تردد على كتّاب قريته.. حتى حفظ القرآن، ثم انتقل إلى عاصمة محافظته «ذمار».. حيث التحق بالمدرسة ليتم حفظ القرآن وتجويده على القراءات السبع. وأنه انتقل بعد ذلك إلى «صنعاء».. حيث درس على يدي العلامة أحمد الكحلاني والعلامة أحمد معياد.. علوم الدين واللغة والبلاغة، ليلتحق بمدرسة دار العلوم الموازية بصورة ما.. لـ «دار العلوم» القاهرية المعروفة آنذاك.. فيحصل منها على إجازة في العلوم الشرعية واللغة، مكنته من أن يصبح بعدها «مدرساً» للأدب العربي في ذات الدار.

ورغم أنه قال الشعر.. مبكراً فاستلفت إليه الأنظار.. بل وسُجن بسببه تسعة أشهر قبل أن يصدر له ديوانه الأول: «من أرض

بلقيس» وهو في الثانية والثلاثين من عمره.. إلا أن كل تلك السنين على طولها وطول معاناته فيها بسبب فقره وعجزه، وتحديه لهما.. الذي أخرجه بداية من دائرة أن يكون إماماً في أحد المساجد أو مقرئاً للقرآن في الزوايا والمقابر.. وجعله نهاية شاعراً تعرفه مدن اليمن وقراها، وكاتباً وأديباً يدير إذاعة صنعاء، إنما تمثل من وجهة نظري.. الولادة الأولى له، أما الولادة الثانية له.. وهي الأجل والأعظم والأهم فسيحين موعدها. في أواخر أيام وليالي خريف عام ١٩٧٢م على وجه التحديد.

ففي إحدى تلك الليالي الباردة من ليالي ديسمبر.. وفي قاعة الاحتفالات الكبرى بمدينة «الموصل» العراقية التي تم إنشاؤها من أجل الاحتفال بألفية الشاعر العربي الكبير «أبو تمام»، الذي تضم المدينة ضريحه، والذي لا أدري ما فعل بها جيش الاحتلال الأمريكي البريطاني هذه الأيام.. وصل الشاعر اليمني عبدالله البردوني الذي لم يكن يعرفه آنذاك غير الجهة المنظمة للحفل، ونفر قليل من أولئك الأدباء والشعراء والمثقفين الذين تجمعوا بالمئات في تلك القاعة لمتابعة الاحتفالية والاستماع إلى قصائد الشعراء الذين دعوا للمشاركة فيها.. ففاجأ الجميع برثاثة هيئته واتساخ ملابسه وقبح منظره إذ إنه لم يضع حتى نظارة سوداء على عينيه ليخفي بها بشاعتهما وقبحهما.. كما يفعل بقية المكفوفين، ولكن كان من حسن حظه على الجانب الآخر.. أن الذين سبقوه في اعتلاء منصة الإلقاء قدموا «نظماً» بارداً و«شعراً» سقيماً لا يملأ

القلوب ولا يعني العقول «مما جعل القاعة تغط في نومها» كما قال الناقد والمؤرخ العراقي الدكتور سيار الجميل، إذ لم يقدموا ذلك الشعر الذي يليق بصاحب رائعة: «السيف أصدق أنباء من الكتب».. وبـ «ألفيته» التي كانت تنقل حية على الهواء: إذاعياً وتلفزيونياً.. إلى أن دعا مقدم الحفل الأستاذ البردوني للصعود إلى المنصة.. ليواجه الجميع بمعطفه البالي ووجهه المجدور وعينيه المفقوعتين ولينشده ارتجالاً دون ورقة أو كتاب.. قائلاً:

(ماذا جرى.. يا أبا تمام تسألني؟
عفواً سأروي..ولا تسأل..ما السببُ؟
يَدمي السؤالُ حياءً حين نسأله..
كيف احتفت بالعدي (حيفا) أو النقبُ
من ذا يلبي؟ أما إصرار معتصم
كلا وأخزى من (الأفشين) ما صُلبوا
اليوم عادت علوج «الروم» فاتحةً
وموطنُ العرب المسلوب والسَلَبُ
ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم
نصدق.. وقد صَدَقَ التنجيمُ والكتبُ
فأطفأت شهب «الميراج» أنجمَنَا
وشَمْسَنَا.. وتحدت نارَها الخطبُ
وقاتلت دوننا الأبواقُ صامدة
أما الرجال فماتوا.. ثمَّ أو هربوا

ثم أخذ يحدثه عن مدينته وفاتنته «صنعاء».. قائلاً:

حبيبُ وافيتَ من صنعاء يحملني
نسرٌ وخلفَ ضلوعي يلهثُ العربُ
ماذا أحدث عن صنعاء يا أبتي؟
مليحةٌ عاشقاها: السلُّ والجربُ
ماتت بصندوق وضاح بلا ثمنٍ
ولم يمت في حشاها العشقُ والطربُ
كانت تراقبُ صبح البعث.. فانبعثت
في الحلم.. ثم ارتمت تغفو وترتقبُ
لكنها رغم بُخل الغيث ما بَرحت
حبلى وفي بطنها «قحطان» أو «كرْبُ»
وفي أسى مقلتيها يغتلي «يمنٌ»
ثان كحلم الصبا.. ينأى ويقتربُ

ثم انتقل إلى الحديث عن نفسه قائلاً:

حبيبُ تسأل عن حالي وكيف أنا؟
شبَّابةٌ في شفاه الريح تنتحبُ
كانت بلادك (زحلاً)، ظهر «ناجيةٍ»
أما بلادي فلا ظهرٌ ولا غَبَبُ

أرعيتَ كل جديب لحمَ راحلةٍ
كانت وفاء الروض ينسكبُ
ورحتُ من سفر مضنٍ إلى سفرٍ
أضنى.. لأن طريق الراحةِ التعبُ
لكن أنا راحلٌ في غير ما سفر
رَحلي دمي.. وطريقي الجمرُ والحطبُ
إذا امتطيتَ ركاباً للنوى، فأنا
في داخلي.. أمتطي ناري وأغتربُ
قبري ومأساة ميلادي على كتفي
وحولي العدم المنفوخُ والصخبُ

.. ليختتم ملحمته ومعارضته الرائعة تلك قائلاً:

«حبيب» مازال في عينيك أسئلةٌ
تبدو.. وتنسى حكاياها فتنتقبُ
ومازال بحلقي ألف مبكيةٍ
من رهبة البوح تستحيي وتضطرب
يكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا
ونحن من دمنا نحسو ونحتلبُ
سحائب الغزو تشوينا وتحجبُنا
يوماً ستحبلِ من إرعادنا السُّحُبُ

ألا تـرى يـا أبـا تمـام.. بـارقـنـا؟
إن السماء تُرجى حين تحتجبُ)

لقد كان ذلك اليوم.. هو يوم ميلاده الثاني، وكانت تلك القصيدة التي وقف الحاضرون جميعاً في ختامها تقديراً لها وإجلالاً لـ (صاحبها).. ليستقبلوه وهو يهبط من المنصة.. هي سطور شهادة ذلك الميلاد، فقد عَبَرت به تلك القصيدة.. الأوطان والأقطار والقارات، وقرأها عرب المشرق.. وعرب المغرب، حتى جعلت منه الشاعر العربي اليمني الأول.. على كثرة ما في اليمن من شعراء.. كما عبَّرت تلك القصيدة عن مجمل همومه وأحلامه وقضاياه التي شغلت عقله وقلبه، ودواوينه الاثنى عشر ودراساته الثمان قبل وبعد تلك القصيدة..

لقد كان همه الأول.. «عروبته» التي تساءل حولها قائلاً في ديوانه الأجمل «لعيني بلقيس»:

من نحن يا «صـرواح» يا «ميتمُ»
مـوتـى.. ولـكـن نـدّعـي.. نزعمُ
نـنـجـرُّ.. لا نمضـي.. ولا ننثني
لا نـحـن أيـقـاظٌ.. ولا نـوّمُ
نغفو بلا نـوم ونصـحـو بلا
صـحـوٍ.. فـلا نـرنـو ولا نحلمُ

كم تضحك الدنيا وتبكي أسًى
ونحن لا نبكي ولا نبسمُ
فلم يعد يضحكنا مضحكٌ
ولم تعد آلامنا تؤلمُ
أضاعت الأفراح ألوانها
وفي عروق الحزن جفّ الدمُ

.. وكان همه الثاني «حريته» التي قال عنها في ديوانه العاشر «رواغ المصابيح»:

قلت يوماً أحب شعر «المعري»
بلغوا بي، أن المعري عشيقي
وبأني أزوره كل يوم
وله ورشة جوار «الغريقي»
وبأني في غرفتي أتخفّى
تحت دعوى تساعلي أو صفيقي

* * *

من أخي؟! لو ذبت لطفاً تعالوا
: إن سُمّي مخبأ في رحيقي
لو تحولت فرخةً لتعلبوني
لو تضفدعت خبروا عن نقيقي

لو رأواني أمسي حماراً لنادوا

خبراء.. يترجمون.. نهيقي

.. وكان حبه وعشقه الأول.. والثاني.. والأخير هي «صنعاء» التي لم يغب اسمها عن لسانه في معظم دواوينه ودراساته إن لم يكن فيها جميعاً، وفي واحد منها يقول:

أشرق وهي قدامي أغرب وهي مرآتي

إليها ينتهي روحي ومنها تبتدي ذاتي

أغني وهي أنفاسي وأسكت وهي إنصاتي

وأظمأ وهي أحراقي وأحسو.. وهي كاساتي

أموت وحبها موتي وأحيا وهي مأساتي

وعندما سألته إحدى المعجبات عن عنوانه.. أجاب قائلاً:

«صنعاء» يا سلوى.. عنواني

بيتي: في مزدحم الأحزان

عملي: عزاف مبتدئٌ

يبكي أو يشدو.. للجدران

صندوق بريدي.. معروف:

برميل الحرقِ.. أو النسيانِ

كان طبيعياً أن ينال الجائزة الأولى في مهرجان «ألفية» أبي تمام.. بعد تلك القصيدة التي نافت عن الخمسين بيتاً من أروع ما قيل شعراً، لتتوالى عليه الأوسمة والجوائز بعد ذلك واحدة بعد

أخرى: من جائزة «مهرجان جرش» في عمان.. إلى جائزة «شوقي وحافظ» في القاهرة.. إلى «وسام الأدب والفنون» في عدن.. فوسام الآداب والفنون في صنعاء.. لكن أعظم جوائزه والتي لم ينل أحد مثيلاً لها من قبل كانت في ١٩٨٢م عندما أصدرت الأمم المتحدة: عملة فضية عليها صورة الشاعر والأديب عبدالله البردوني.. كمعوق تجاوز عجزه بأعلى درجات التفوق والإبداع، أما أنبل تلك الجوائز وأكثرها حميمية.. فقد كانت في ذلك الكتاب المسموع الذي أصدره «مجمع أبو ظبي الثقافي» بدولة الإمارات بعد وفاته في عام ١٩٩٩م بعنوان: «عاشق بلقيس.. وداعاً».. تخليداً لاسمه وذكراه التي لن تنمحي ولن تغيب.

ما أعجب وأعظم هؤلاء العباقرة المكفوفين من الشعراء.. من هوميروس إلى بشار.. ومن المعري إلى الحصري.. ومن الصاوي شعلان.. إلى شاعرنا اليمني العظيم: عبدالله البردوني.. الذي أحسب أنه آخر عباقرة القرن الماضي من الشعراء الذين سيعيشون أجيالاً وأجيالاً في قلوب ملايين القراء.. وعلى اتساع الزمن ومداه.

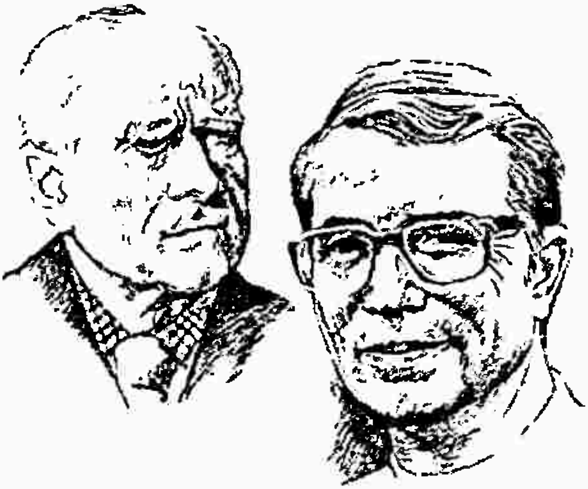

الحلقة السابعة

ألبرتو مورا فيا
كولن ويلسون

كان القرن العشرين إجمالاً هو قرن «المعجزات» العلمية و«الويلات».. قرن التقدم والحروب الكبرى.. قرن الإيديولوجيات والفلسفات.. قرن الصراع بين اليسار واليمين، ورغم أنه سبح في بحار غزيرة من الدماء.. بعد أن بلغ عدد ضحايا حربيه العالميتين الأولى والثانية فقط ما يزيد عن خمسين مليوناً من البشر جلهم من شباب ورجال دول أوروبا الغربية، حتى أصبح سائقو الشاحنات والحافلات وعربات الأجرة فيها من النساء، إلا أنه كان قرناً حافلاً بعشرات العباقرة والمبدعين في سماء الفكر والفلسفة والأدب والمسرح والموسيقى والغناء والتشكيل.. وكأن تلك الحربين بآلامهما المروعة هما البوتقة التي صُهروا فيها، ليخرجوا من وسط الخرائب والدماء والدموع ليكتبوا فكراً وأدباً ومسرحاً.. وليعزفوا ويغنوا ويرسموا.. بما لم يُأت بمثله حتى الآن بصورة عامة..

ولأن العالم العربي والإسلامي كان في قلب تلك الحربين وما سبقهما وما تلاهما.. فقد كان نصيبه من أولئك العباقرة في الفكر والأدب والفنون ليس بأقل كثيراً من أوروبا، وبالتأكيد فإنه

كان أكثر من أولئك الذين ظهروا ولمعوا في الأمريكتين: الشمالية والجنوبية إلى حد ما.

لقد صعد كل هؤلاء وأولئك عالمياً.. ليصبحوا بحق نجوماً لا تنطفئ، وشموساً لا تغيب.

وسأقف.. عند ثلاثة من أولئك النجوم في سماء الفكر والأدب والفن من دول أوروبا الغربية: من إيطاليا، وبريطانيا، وفرنسا..

* * *

الأول.. هو الكاتب والروائي الإيطالي الأشهر: ألبرتو مورافيا.. الذي عرفه العالم ولم يعرفه عالمنا العربي بعد روايته الأولى المناهضة لفاشية موسوليني: «الحفل المقنع».. ولكنه عرفه بعد روايته الذائعة الصيت: «امرأة من روما» التي تُرجمت إلى كل لغات العالم الحية، والتي قدمتها السينما الأمريكية.. في زمن السينما الأمريكية الجميل في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، والتي كانت تحكي قصة حياة فتاة من فتيات روما.. هي: «أدريانا» الجميلة الفقيرة والبائسة.. التي تعمل «موديلاً»، ليرسمها الرسامون بليرات معدودات وهي تغتصب ابتسامتها لهم صباح مساء.. بينما كانت تقبع خلف تلك الابتسامة مأساتها التي هزت الإيطاليين والعالم كله بعد أن قرأها، أما بعد ظهور رائعته رواية «السأم».. فقد عرفه وقرأه العالم كله من أقصاه إلى أقصاه مبهوراً بـ «الرواية» وأحداثها.. ومأخوذاً بـ «مقدمتها» الرائعة التي نافت عن ستين صفحة، والتي شرح فيها «مورافيا» بقلم الأديب

وروح الفنان وعقل الفيلسوف معنى «السأم» الذي كان يقصده، وأنه أكبر من «الطفش» و«الملل» العاديين اللذان يعاني منهما بعض الناس لبعض الأوقات في كل أصقاع الدنيا.. فهو «الحيرة» في فهم ما حدث ويحدث، وهو البكاء عليه، وهو الخوف منه ومن الغد المجهول الذي قد يعيدهم إلى مستنقع الدماء الذي أفنى البشر والزرع والضرع والعمران وتلك المهج الحالمة بمستقبلها الذي لم تره، وهو القلق.. الذي أيقظ الناس من سباتهم ليسألوا من جديد عن معنى وجودهم؟ وعن معنى الحياة والموت؟ فـ «السأم».. هو كل ذلك الذي يفضي بالناس إلى حالة من التبلد واللامبالاة تصرفهم عن كل أمل وعمل. كانت الرواية تشخيصاً بارعاً دامعاً لما عانته أوروبا على وجه الخصوص، والعالم في عمومه بعد الحربين العالميتين اللتين أريقت فيهما دماء الملايين بقسوة ووحشية لم يعرفهما تاريخ الإنسانية من قبل.. دون ما هدف أو غاية.. غير غاية التسلط والهيمنة ورسم حدود دول ما بعد الحربين وإمبراطورياته!!

وبقدر ما كانت رواية السأم.. عظيمة، كان استقبال القراء والنقاد لها.. أعظم، فقد رأى القراء فيها على اختلاف مستوياتهم الثقافية.. أنها تعبير عنهم، وعن حالهم.. وعن ضياعهم.. وعن موت الرغبات في نفوسهم.. بينما رأى النقاد فيها.. أنها عمل أدبي فريد نادر لم يسبقه إليه أحد، وأن مكانها الطبيعي.. هو أن تقف إلى جانب أمهات الروايات، كـ «الحرب والسلام» لتولستوي، و«قصة مدينتين» لـ «ديكنز» و«الأم» لجوركي.. فكان طبيعياً أن يحصل بها «مورافيا» على نوبل للآداب.. لكن الجائزة العالمية تخطته إلى

شاعر متواضع غير معروف من أبناء جلدته هو: الشاعر سيلفادور كوازيمودو.. الذي لم تنفعه ولم ترفع اسمه بعد الحصول عليها، وعندما سئلت هيئة الجائزة.. عن أسبابها فيما فعلت؟ وكيف تخطت «مورافيا» وهو الأحق.. إلى «كوازيمودو» الذي لم يكن يعرفه أحد؟ لم يكن لديها جواب مقنع إلا أن تقول: السبب.. هو أننا نحب كوازيمودو..؟!

■ إن ثاني النجوم الثلاثة.. هو الكاتب البريطاني العبقري الشاب: «كولن ويلسون».. الذي صعد إلى سماء الخلود بصاروخ.. أو هبط على قمتها بمظلة في أوائل النصف الثاني من القرن العشرين.. وكان صاروخه هو مظلته.. هما كتابه الفريد بحق: «اللامنتمي» كما ترجمته دور النشر اللبنانية.. أو «الخارجون» كما هي ترجمته الحرفية لمن يعرفون الإنجليزية..

لقد كان الكتاب والكاتب.. مفاجأتين للبريطانيين عموماً.. ولأبناء عاصمتهم الكبرى «لندن» خصوصاً، بجامعاتها ومعاهدها ومراكزها، وصحفها ومكتباتها ومسارحها ودور السينما فيها، فلم تعرف كل هذه الأوساط العلمية والثقافية فيها.. شيئاً عن هذا الكاتب الشاب الذي ظهر فجأة.. وبيده كتاب هو الأول من نوعه، في موضوعه، وفي استشهاداته، وفي استرجاعه لأعمال وتجارب عشرات من المبدعين في أوروبا وأمريكا.. وفي مبيعاته إذ تخطى فور صدوره كل ما سبقه من الكتب.. بل وبعد أربعة أشهر - فقط..!! - كانت قد أعيدت طباعته عشر مرات حتى لم يبق أحد من المثقفين وطلبة العلم والعاديين من الناس.. إلا وقرأه.

إن هذا الكاتب الشاب الذي ظهر فجأة.. هو أحد أبناء أحياء لندن الفقيرة فيما يعرف بـ «الويست إند» أي الطرف الغربي من المدينة، وقد كان فقيراً كالحي الذي يسكنه... ولذلك لم يتمكن من الذهاب لا إلى جامعة أكسفورد أو كامبريدج الشهيرتان.. أو إلى غيرهما، ولكنه اكتفى بتعليمه الثانوي.. ثم أخذ يتردد في ساعات فراغه على «مكتبة المتحف البريطاني»: يقرأ ويفكر ويتأمل.. ثم يعود إلى عمله المتعدد والمتنوع والمتغير من حين لآخر، فقد عمل بأصغر المهن وأقلها شأناً.. وربما كان من أفضلها عندما عمل «نادلاً» بأحد المقاهي، ولكن كان في قلبه شيء.. وفي عقله شيء.. وفي أحلامه أشياء..

لقد ساعدته قراءاته الطويلة.. وساعات صمته وتأمله في مكتبة المتحف دون شك.. على أن يستلهم منها ما يريد، فكان هذا الكتاب: «اللامنتمي» الذي خرج بعد خمس سنوات.. فأثار عاصفة في كل الأوساط الثقافية حتى قال عنه أحد النقاد مغتاظاً بأنه لا يصدق «أن مؤلفه فتى في الرابعة والعشرين من عمره»..!؟

والعجيب حقاً.. أن هذا الكتاب الذي حقق كل هذه الشهرة الكاسحة وعلى مستوى العالم كله. لم يكن رواية أو قصة أو مسرحية أو حتى ديوان شعر.. ولكنه كان «دراسة تحليلية» لـ «هموم» المثقفين النفسية في القرن العشرين.. من خلال قراءة عميقة متأملة في أعمال كوكبة من أبرز وأعظم كتابه: من كامو وكافكا وهيمنجواي.. إلى ديستوفسكي وهيرمان هيس وجويس.. ومن وليم بليك إلى تولستوي وبرنارد شو.. إلى عشرات غيرهم..

واستخلاص لشخصية «اللامنتمي» هذا من خلال تلك الأعمال، ومن خلال حيوات مبدعين كباراً من أمثال ڤان كوخ، وفاز لوف نجنسكي وتومس لورنس وغيرهم..

فمن هو هذا «اللامنتمي» الذي وجده.. أو الذي كان يبحث عنه ثم عثر عليه في كتابات هؤلاء وأعمالهم؟

إنه «إنسان يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واه».. ولذلك فهو يرفض الحياة والكثيرون منهم يعادونها.. بل ويرون أن الإنسان فيها «يجرجر ظله العملاق في طريقه المظلمة: مستسلماً حيناً ومتمرداً حيناً آخر».. و«أن الزمن كالجدول الجاري أبداً، الذي يحمل أبناءه سعيداً.. وهم يتلاشون كما يتلاشى الحلم عند مطلع الفجر».. ومع ذلك فإن هؤلاء اللامنتمين إلى أي شيء يبحثون جميعاً عن خلاصهم..

إن سر أسرار النجاح في كتابه المدوي.. أنه كان عميقاً.. وكان شاملاً.. وأن «ويلسون» كتبه بعذوبة وشفافية من يتقاسم مع أولئك اللامنتين همومهم وأحزانهم.. لأنه واحد منهم!!

* * *

لقد كان من حسن حظي.. أنني التقيت بالأول: «مورافيا» في بيته بروما على نهر التيڤري، وأنني بعثت لـ «كولن ولسون» بأول محرر عربي ليجري معه حديثاً عنه وعن كتابه.. لأكون قارئه الأول.

الحلقة الثامنة

سارتر

■ أما ثالث الثلاثة(*) من أدباء ومفكري أوروبا الغربية الذين خرجوا من وسط دمار وخرائب الحربين العالميتين.. فهو الكاتب الفرنسي المبدع، والروائي المسرحي الفنان، والفيلسوف الإنسان.. المختلف حول فلسفته في الوجود والعدم: جان بول سارتر.. أحد ألمع الأسماء وأكثرها بريقاً في سماء الفكر والأدب والثقافة الفرنسية.. ليس على مستوى فرنسا أو أوروبا وحدهما، ولكن على مستوى العالم بأسره، فقد ولد في مطلع القرن العشرين.. في السنة الخامسة منه على وجه التحديد، وتخصص في الفلسفة في عام ١٩٣٠م.. ودرّسها ليس في موطنه فرنسا بل في ألمانيا واليابان أيضاً حتى عام ١٩٤١م ثم استقال من تدريسها بعد عام وتفرغ لمجلته «الأزمنة الحديثة»، وللكتابة التي أخذت عليه مجامع قلبه وعقله قبل أن يبلغ العاشرة من العمر.. منذ أن سمع (جده) الذي عاش في كنفه يتيم الأب بين أمه وجدته.. يقول: «إن الشيء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشيء الذي نعيشه ونحياه».. ومنذ أن شعر بضرورة أن يبرر وجوده - كما كانت تلح عليه أمه - حتى لا يكون زائداً عن الحاجة!!

(*) تحدثت في الحلقة الماضية عن الكاتبين: الإيطالي.. ألبرتو مورافيا، والبريطاني كولن ولسن.

وأنه لابد وأن يكون ضرورياً كصديق جده «المسيو سيمونو».. الذي قال جده عن غيابه في إحدى الحفلات: «ينقصنا شخص هنا. إنه سيمونو»!.. أو كجدته التي قال عنها بعد أن أصبح «سارتر» ذلك الكاتب الذي يتخاطف الناس كلماته ومقالاته وإبداعاته أياً كانت: رواية أو مسرحية أو دراسة: «كان تكبُّرها يمنعها من السعي للحصول على المكان الأول، وكان زهوها.. لا يدعها ترضى بالمكان الثاني»..!!

لكن هذا الطفل القصير واليتيم والحزين الذي لم يكن يلاعبه أنداده والذي أدرك فيما بعد بأن حزنه كان يؤسس أهميته.. استطاع أن يبرر وجوده وسط عائلة جده البرجوازية والمتكبرة.. كما قال: «كان جدي يعولني.. وكنت أصنع سعادته» وإلى الحد الذي كانت تصيح معه العائلة معترضة على وِله «الجد بحفيده، وإمعانُ الحفيد في تَدَلله.. قائلة: «لقد أصابه بالجنون.. هذا الشقي»..

وسط هذه العائلة السعيدة والشديدة الإخلاص والولاء لعائلها الجد «شارل».. وبين ملحمة الحب التي عاشها «سارتر» مع جده، والحزن الذي كان يلف قلبه الصغير لفقد أبيه وهو في الثانية من عمره.. تعلم «الخربشة» على الورق أو الكتابة وهو بين السابعة والثامنة، ليصفها بعد أن بلغ التاسعة والخمسين أجمل وصف: «إن الكتابة هي إضافة لؤلؤة لعِقد عرائس الشعر.. هي ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة.. هي الدفاع عن الشعب.. ضد نفسه، وضد أعدائه»، لكن «جده» المولع بالمفكرين والكتابة

والكتَّاب وصاحب معهد تدريس الفرنسية لغير أبنائها.. لم تُعجبه أولى محاولات (حفيده) القصصية «بائع الموز» التي كتبها.. قبل أن يتم العاشرة من عمره.

* * *

بعد أن أنهى «سارتر» دراسته الثانوية والجامعية بحصوله على ليسانس الفلسفة.. وغادر تلك الحياة الناعمة الرتيبة المستقرة مع جده وجدته ووالدته في مدينة «مودن».. إلى وظيفة مدرس للفلسفة في مدينة «هافر» بعزلتها ووحدته ودخله المحدود.. بدأ رحلة التعرف على ما حوله من مدن وأقاليم فرنسا، فكان «يركب الدرجة الثانية.. لأنه لا توجد على القطارات السريعة الخارجة من باريس درجة ثالثة»!!.. إلا «أن اشمئزازه من الأغنياء في أبهتهم لم يضعف»!!، وإيمانه بصعود نجمه الذي تنبأت به جدته وإلى الحد الذي قالت معه بأنه «سيكون هناك - في المستقبل - أموات كبار من أمثال نابليون وتمستوكليس وفيليب أوغسطس وجان بول سارتر».. لم يذبل، فكان يكتب.. ويكتب طوال ساعات فراغه وراحته وكأنه الكاتب الفرنسي الأشهر «شاتوبريان» الذي كان يقول عن نفسه «إني أعلم جيداً بأنني لست إلا آلة لعمل الكتب»..!!

وهكذا صدر له في أيامه الأولى كتاب: «عدن العربية» مصوراً مثاليته.. فـ «أسطورة الحقيقة» أو «خرافة الحقيقة» الذي صور فيه شكه.. لكن كتابه الأول والأجمل والأمتع والذي رد به وقد بلغ الثلاثين من عمره على أولئك الذين كانوا يقولون عنه فيما بينهم «إن هذا الرجل يتباطأ! إنه يتعلم منذ خمس وعشرين سنة دون أن

يفعل شيئاً! هل سنموت دون أن نقرأه».. فكان يجيب عليهم «اتركوا لي وقتاً للعمل!».. فكان العمل.. هو هذا الكتاب.. هو هذه الرواية التي تخاطفها آلاف الآلاف من القراء في الغرب وفي الشرق بحد سواء حتى غدت رمزاً ومعلماً من معالم ثقافة القرن العشرين وآدابه في حياة كل مثقف وأديب. إنها.. رواية: «الغثيان»، التي قدم فيها فكره وفلسفته.. من خلال قصة بطلها «روكنتان» - الذي لم يكن غير سارتر نفسه - الذي ذهب لإحدى المناطق الفرنسية لكتابة قصة حياة نبيل من نبلائها.. ولكنه بدلاً من ذلك كتب قصة حياته واشمئزازه. قصة غثيانه.. من نفسه ومن كل ما حوله ومن حوله!!

ثم أتبع تلك الرواية الرائعة.. بـ «ثلاثيته» الخالدة - دروب الحرية - التي أخذ جزءها الأول عنوان «سن الرشد»، وجزءها الثاني.. عنوان: «وقف التنفيذ»، وجزءها الثالث.. عنوان: «الحزن العميق»، فكانت أدباً في أرقى مستوياته.. وكانت فلسفة في أعلى تجلياتها.. وكانت قبل وبعد ذلك تاريخاً وسيرة ذاتية لكاتبها.. وزمانه ومجايليه..

* * *

عندما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تطل في أفق الثلاثينات من القرن الماضي.. كان سارتر الذي عاش الحرب العالمية الأولى طفلاً مندهشاً من أحداثها في بداياتها.. وسعيداً في ختامها بعودة الإلزاس واللورين إلى حماهما (الفرنسي)، وتعيساً في ذات اللحظة: لأن ذلك إنما يعني إغلاق جده لـ «معهده» الذي كان يعلم فيه الفرنسية لغير الناطقين بها.. وهم الألمان الذين استولوا عليها

في المقام الأول. كان سارتر الأديب والفيلسوف الذي تعلق أول ما تعلق بـ «هُوسّرِل» وفلسفته «الظاهراتية» الألمانية قبل أن يلقاه في برلين ويتعلق بـ «كير كجارد» و«هيدجر» ونظريتيهما «الوجودية» التي تعتمد على «الإدراك» و«الحرية» و«الاختيار» كأساس لها.. يعتقد بأن الحرب «عندما تجري ستكون حرباً عصرية.. بلا مجاز، كما هو الرسم العصري.. من غير موضوع، والموسيقى.. من غير نغم، والفيزياء.. من غير مادة» (!!) كما قالت رفيقة فكره الكاتبة الفرنسية.. ذائعة الصيت: سيمون دي بوفار.. في كتابها «أنا وسارتر.. والحياة»!!

ولكن عندما تم تجنيده وهو في الرابعة والثلاثين.. في جيش الجمهورية الفرنسية الثالثة للدفاع عنها وعن الوطن، وتم أسرُه من قبل الألمان لتسعة أشهر.. وعاش نيران تلك الحرب.. علم بأنها لم تكن «عصرية» بالصورة التي تخيلها، وأنها أتون من النار له بداية وليست له نهاية، أتون.. أحرق أخضر الحياة ويابسها، والتهم الملايين من البشر والشجر.. ومزق كل جميلٍ عرفه.. وحرمه حتى من الكتاب الذي يمثل جوهر متعته وحياته. فإذا كانت باريس وروما.. قد نجيتا من ذلك الأتون لاستسلام الأولى وتحصن الثانية واتفاق (الحلفاء) على عدم المساس بالمدينتين اللتين تمثلان جوهر الحضارة بما تكتنزانه من نفائسها التراثية والمعمارية.. فقد تحولت بقية مدن أوروبا إلى خرائب وأطلال ينعق فيها البوم.. وتَصّفُر فيها رياح الوحشة والعدم. في تلك اللحظة، أخذ سارتر قراره بداية بالتوجه إلى العمل السياسي.. بالانضمام

إلى «المقاومة» التي أطلق شرارتها من لندن الزعيم الفرنسي «شارل ديجول» ثم بتأسيس حزب «الأحرار الاشتراكيين» الذي دعا من بين ما دعا.. إلى دعم الثورتين الجزائرية والكوبية، وانتهاءً بالتوجه إلى العمل الفلسفي.. بجمع أفكاره الفلسفية في مواجهة طغيان الحروب وتجارها.. فكان كتابه أو نظريته: «الوجود والعدم»، وكانت مسرحياته «الجحيم» و«الذباب» و«الأيدي القذرة»، التي ألهمت فيما بعد الأستاذ توفيق الحكيم.. بكتابة مسرحيته الرائعة: «الأيدي الناعمة»..؟!

كان طبيعياً.. أن ينال «سارتر» بعد كل ذلك جائزة نوبل للآداب، ولكنها تخطته في عام ١٩٥٧م إلى زميله الأديب والفنان «ألبير كامو»، عن رائعته الروائية (الغريب).. ليرفضها عندما جاءته عام ١٩٦٤.. كما رفضها البابا من قبل، وبوريس باسترناك الروسي من بعد.. عن روايته (دكتور زيفاجو)؟!

* * *

لكن.. وقبل أن تطرح معركة الجائزة نفسها عليه كان في مطلع عام ١٩٦٢م يجلس في شقته الفاخرة بالطابق العاشر من منزله الجديد.. وقد دان له المجد من أطرافه وهو يرى «باريس وتلال سان كلو الزرقاء» ليصحح الجزء الأول من كتابه الأخير والجميل «الكلمات».. وهو يسأل نفسه: «عندما كنت طفلاً.. هل كنت أريد أن أستحق هذا المركز العالي؟ لابد أن في حبي لأبراج الحمام أثراً للطموح والزهو.. وتعويضاً لقامتي القصيرة»..!!

فإذا أعطيت نفسي حق الإجابة على تساؤله. فإنني أقول: نعم تستحق.. لكل ما فعلته وقدمته، وبكل ما انتهيت إليه في كتابك هذا الجميل: «الكلمات».. عندما قلت فيه «بأن من المهم جداً أن أستأنف الجري، فأقفز على قدميَّ وأنساب زاحفاً».. وعندما قلت: بـ «أن الموت كلما اقترب مني كان يزيدني نوراً بضوئه المعتم».. ولأن رؤيتك لنفسك انتهت عند قولك عن حياتك وجماع أيامك: «فماذا يتبقى؟ إنسان بكله.. مصنوع من كل الناس، يساويهم جميعاً، وأي واحد فيهم يساويه»، فهذا المعنى الرائع والكبير عن نفسك ومن حولك لا يساويه!! إلا قولك عن كتبك وأعمالك «إن خير كتبي هو الذي أقوم بكتابته الآن.. ويأتي بعده تواً آخر كتاب نُشر لي، ولكنني أُعد نفسي سراً لكي أشمئز منه»..!!

فهذان المعنيان.. يعطيانك ذلك المجد الذي نلته وعشته في حياتك.. وسيبقى بعد مماتك.

الحلقة التاسعة

الزيدان

في الحديث عن الشموس والنجوم في سماء الفكر والأدب والثقافة.. في القرن العشرين، فإنه.. يمكن القول وبمنتهى الدقة.. بأن الأستاذ محمد حسين زيدان.. أو الأستاذ الزيدان كما تعارفت الأوساط على تسميته بذلك اعتزازاً وتقديراً وإكباراً لا انتقاصاً منه.. هو ابن القرن العشرين، الذي عاش معظم سنواته، فقد ولد في عقده الأول.. ومات في عقده الأخير، عن سبعة أو ثمانية وثمانين عاماً، ولذلك فقد عاش آخر العهود الثلاثة التي مرت بالحجاز: بدءاً بالعهد العثماني حين ولادته.. إلى أن قامت نهضة الأشراف عام ١٩١٦م.. وإلى أن انتهت في عام ١٩٢٥م.. وقامت دولة التوحيد تحت راية مؤسسها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن طيب الله ثراه، وكانت أمانة منه أن يسجل ذكريات تلك العهود الثلاثة.. في آخر كتبه الذي حمل ذات العنوان: «ذكريات العهود الثلاثة».. وإن كان تحته عنوان آخر مشبعاً برومانسية قد تتغلب على أمانة التاريخ عند البعض هو: «طيبة.. رحلة في الزمان والمكان»..

لكن تلك السنوات على طولها وقلة وفقر الكثير من أيامها لم تذهب هباءاً في حياة الأستاذ الزيدان، فقد جمع في قلبه

وعقله وصدره.. خلالها، ما لا يجمع من ألوان المعارف والثقافات والعلوم.. ليكون في النهاية هذا المثقف الموسوعي الشامل: اللامع والممتع والمحبوب من زملائه.. ومن الأجيال التي تتابعت من بعد، ولحقت به.. وقد كنت أحدهم خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته على الأقل، فهو المؤرخ والنسابة.. المولع بسير أبطال التاريخ العربي الأول الإسلامي، وهو الكاتب والخطيب الذي إذا اعتلى المنبر.. أدار الرؤوس بارتجاله شغفاً وطرباً، وهو الأديب.. العاشق للكلمة: يكتبها أو يقرؤها أو يسمعها من شاعر أو مغنٍ أو بائع متجول في عرض الطريق، وهو الإذاعي التلفزيوني الفنانٌ.. عاشق الحياة وعاشق النغم.. بل والطرافة والنكتة.

إن هذا النجم الموسوعي الذي ملأ حياتنا الثقافية كاتباً ومتحدثاً ومحاضراً طوال سنوات نضجه وكهولته وشيخوخته.. بامتداد سنوات القرن العشرين، والذي عرف «حاضرة» المدينة المنورة و«باديتها» بعد أن تربى بين يدي جدته في «بيت الشّعر وسط حوش خميس» بطيبة الطيبة.. حتى إذا مرض بـ «ذات الجنب» برداً خافت عليه من أن يُصاب ثانية «فبنت داخل بيت الشّعر حجرة من الطين» تسعه وتسعها، فإذا وقف على قدميه لامس رأسه سقف الحجرة. عرف اليتم عندما ماتت «أمه» بـ «الدفتيريا».. وهو دون السابعة، وعرفه ثانية.. عندما ماتت «جدته» وهو دون التاسعة، وعرفه طوال حياته، لانشغال والده عنه بزوجاته الأحد عشر على التوالي فعاش «سأم الجفوة من زوجات الأب» كما روى، ولكنه آثر اعتزال زوجات أبيه، والعيش في «دكانه».. بعد أن هداه

وعيه المبكر بأن ذلك سيسلمه «من أحداث كدر لوالده أو تكدر لزوجاته»، لينشغل بدراسته في المدرسة الهاشمية.. وبتحصيله في حلقات العلم بالمسجد النبوي الشريف، ليستزيد من علوم الشريعة والتاريخ الإسلامي والنحو والبلاغة، وليكمل منظومة دراسته في المدرسة وتلقيه في المسجد بتردده الدائم والمستمر على مكتبات المدينة المنورة، وإلى حد المبيت فيها.. كما علمت منه بأنه كان ينام في مكتبة «حكمت عارف» الشهيرة، حيث قرأ معظم ما فيها من أمهات الكتب والتراث لا.. بل أحسب أنه ذوَّب سطور تلك الكتب بالماء، ثم شربها دفعة واحدة.. فكان امتلاؤه الثقافي التاريخي التراثي غير المحدود، الذي جعله خطيب طلبة مدارس المدينة المنورة.. الذي يستقبل الدكتور محمد حسين هيكل صاحب «حياة محمد» عند زيارته للمسجد النبوي والتشرف بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جعل منه خطيب مثقفيها عندما أصبح «معلماً للصبيان» كما كان يقول، أو مدرساً عَلماً من مدرسيها ليستقبل بكلمات لا يقولها سواه: الزعماء والقادة الذين كانوا يترددون على زيارة المسجد النبوي من أمثال شكري القوتلي وأمين الحسيني ورياض الصلح، إنه هو ذلك الذي رآه صحبة الفكر والقلم الذين تجمعوا في العاصمة مكة.. عندما انتقل إليها قبل عام من بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٨م).. ليبهرهم بحافظته وذاكرته ومخزونه الثقافي التراثي الأصيل.. فيفسحوا له مكاناً بينهم، ليسبق الكثيرين منهم.. بعد ذلك.

* * *

كان طبيعياً أن يتقدم الأستاذ الزيدان في مكة من موقع لآخر.. فقد كان كما قال «أجد نفسي في مكة.. مكياً من أهل المدينة، وأجد نفسي في المدينة.. مدنياً من أهالي مكة».. وكان قد ترك المدينة ومهنة التدريس بها أو مهنة تعليم الصبيان، ليبدأ سكرتيراً لشيخ مشايخ الجاوة آنذاك.. ثم لتخطفه وظيفياً: مالية عبدالله السليمان وكوكبة المثقفين الذين تجمعوا فيها بدءاً من الصبان والآشي والعامودي والفقي.. وانتهاءاً بالكتبي والسعد والفودة إلى غيرهم.. وتجذبه صحفياً «بلاد» عبدالله عريف التي عاودت الصدور بعد انتهاء الحرب، ليكون أحد كتابها.. ثم ليصبح مديراً لتحريرها.. فرئيساً لتحريرها بعد دمجها مع صحيفة عرفات، ثم رئيساً لتحرير «جريدة الندوة» عند قيام عهد المؤسسات الصحفية..

لكن وعيه القديم والحكيم بمغادرة بيت والده إلى دكانه.. كان قد عاوده قبل ذلك عندما استقال من الوظيفة الحكومية في أحلى الأوقات وأفضلها وقبل أن يبلغ الخمسين من عمره.. ليتفرغ للقراءة والكتابة والبحث، فيسطع نجمه ويزداد تألقاً كواحد من أبرز كتاب المرحلة بعمقه التراثي وحرارة عروبة فكره وإسلامه الذي لم يفصل بينهما فاصل عنده طوال حياته، يستغرقه البحث التاريخي.. وتستغرقه الكتابتان: «السياسية» و«الاجتماعية» إلى جانب صوره القلمية التي تفرد بها عمقاً وإيجازاً، دون أن ينسى كلماته المجنحة.... التي كانت تطربه شخصياً قبل أن تطرب قراءه وسامعيه.. والتي تمتد جذور تربتها إلى أمير البيان الثاني عنده:

«مصطفى صادق الرافعي».. بعد أن حفظ في نفسه مكانة أمير البيان العربي (الأول) «شكيب أرسلان».. فقد ظل يبحث شهوراً طويلة عن قصيدته التي رثى بها أمير الشعراء شوقي حتى وجدها، والتي يقول مطلعها:

نادِ القريحة ما استطعت نداءها

إن الحقوق لتقتفيك أداءها

والتي يقول في ختامها:

فاسعد بعرش إمارة الشعر التي

ألقت إليك لواءها وولاءها

.. ليجمع كلماته المجنحة تلك في كتاب حمل العنوان نفسه، هو الخامس بين كتبه السبعة.. التي بدأت بكتابه التاريخي الإسلامي: «سيرة بطل».. وانتهت بكتابه عن الملك عبدالعزيز الذي فُتن به وبإنجازه في توحيد معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية في وطن واحد فكان كتابه التاريخي المعاصر: «عبدالعزيز والكيان الكبير»، وكان بينهما مجموعة أحاديثه الماتعة عبر الإذاعة فـ «التلفزيون».. التي أصدرتها له دار تهامة للنشر والتوزيع بذات العنوان الذي كانت تذاع به: «كلمة ونصف».. التي أحسب أن آلاف المستمعين والمشاهدين مازالوا يذكرونها، فقد كانت تلك الكلمة والنصف والتي كان يرتجلها.. ملفوفة بصدقه وإخلاصه.. مشبعة بدفء وعذوبة شجنه.

* * *

عندما بلغ الأستاذ الزيدان الثمانين من عمره.. أقام نادي جدة الأدبي حفلاً.. ليقول له: عمراً مديداً وسعيداً بإذن الله.. شارك فيه حشد من نخبة نخب الكتاب والمثقفين والأدباء والمتخصصين من الدارسين والأكاديميين، من الضياء وبلخير والزواوي وأبو مدين والخوجه.. إلى الشعراء: العارف والأميري ومحمد هاشم رشيد.. إلى الناقد المبدع الدكتور الغذامي، وقد كان لي شرف أن أكون من بين أولئك المشاركين.. تشدني إلى الأستاذ الزيدان محبتي له وسعادتي به وفرحتي ببلوغه الثمانين وهو في أعلى درجات لياقته النفسية والفكرية والوجدانية، ومن خلف ذلك كله.. أصداء مهاتفاتي الطويلة والحميمة له، ولقاءاتي المكتبية معه لأسوح معه مستمعاً في الغالب.. وهو يتنقل من الأدب إلى السياسة إلى التاريخ.. إلى مواقف الإسلام وسماحته.. إلى الفن والموسيقى والغناء وإعجابه بقولة جورج جرداق في قصيدة هذه ليلتي: «سهر الشوق.. في العيون الجميلة / حلم.. آثر الهوى إن يطيله».. وحديث في الحب.. إن لم نقله/ أوشك الصمت حولنا.. أن يقوله».. وإلى كلماته الرائعة المجنحة التي مازلت أحفظها وأذكر بعضها الآن.. كقوله لي عن أحد الزعماء والمنادين بالسلام مع إسرائيل كيفما كان: «تهود فكره.. حين تصهينت أعماله وتأمركت آماله»..!! وكقولته الأخاذة عن القرآن: «لقد نزل بالحجاز، ودُرس في المغرب، وقرئ في مصر، وحفظ في استانبول»..!! و... و. وما أكثر ما قال وحفظته له ذاكرتي..

لكن البهجة التي خرج بها من تلك الليلة.. بدأت تتآكل شيئاً فشيئاً.. ثم سريعاً، حتى وصلت به بعد خمس سنوات.. إلى حالة.. من الزهد.. والضجر.. بل والاكتئاب بعد أن تأكد له أن «جائزة الدولة التقديرية» قد تخطته - إلى غيره - وهو الأجدر والأحق بها..؟!

الحلقة العاشرة

الأخطل الصغير

عرف جيلنا من صبية الخمسينات في القرن العشرين.. الشاعر اللبناني الأشهر: الأخطل الصغير.. أول ما عرفوه من خلال أغنيته الذائعة: «يا ورد مين يشتريك»، التي كان يرددها حتى باعة الأقمشة في الأسواق.. بل وسموا بها نوعاً جديداً من الاقمشة «الجورسيه» عند وصوله إليها، وهي أغنية من الشعر العربي الفصيح: الجميل.. البسيط، الشجي والسهل في مفرداته.. إلا أنها مطعمة ببعض الألفاظ العامية القليلة نزولاً على رغبة مغنيها صديقه الأستاذ محمد عبدالوهاب.. الذي كتبت الأغنية أو القصيدة من أجله، ومن أجل أن يغنيها.. كما أشار ديوانه الوحيد والجميل: «الهوى والشباب».. الذي أخذ عنوانه من أولى قصائده «الهوى والشباب»، والتي اشتهرت هي أيضاً بغناء الأستاذ محمد عبدالوهاب لها في الثلاثينات بعد سنوات من كتابتها في عام ١٩٢٥.. وقبل أن تقوم دار المعارف في القاهرة.. بطباعة الديوان لأول مرة عام ١٩٥٢م.

لقد ردد تلك القصيدة الأغنية.. أو الأغنية القصيدة ملايين المستمعين، وحفظها عشرات الآلاف من القراء والمثقفين.. ولكن

العجيب أن كثيراً من المشتغلين بالعمل السياسي أخذوا يرددون أحد أبياتها فيما بعد دفاعاً عن تقاعسهم في الملمات الوطنية.. وهو البيت الذي يقول:

أأنا العاشق الوحيدُ لتلقي تبعات الهوى على كتفيا

وهو البيت الذي يأتي في ختام ذلك المقطع الرومانسي الجميل:

أيها الخافقِ المعذَّبُ يا قلـ ـبي نَزَحتَ الدموع من مقلتيا
أفحتمٌ عليَّ إرسال دمعي كلما لاح بارقٌ في محيًّا
ياحبيبي لأجل عينيك ما ألـ ـقى وما أوّل الوشاةُ عَليًّا

نعم.. لقد رددوا تلك القصيدة.. كما رددوا من بعد قصيدته الساحرة التي تغنى بها الأستاذ عبدالوهاب أيضاً في أوائل أفلامه السينمائية: «الصبا والجمال».. التي استهلها بقوله:

الصبا والجمالُ ملكُ يديك أيُ تاج أعز من تاجيك
نصب الحسنُ عرشه فسألنا من تراها له.. فدل عليك

واختتمها قائلاً:

قتل الوردُ نفسَه حسدا منـ ـك وألقى دماه في وجنتيك
والفراشات ملَّت الزهر لما حدثتها الأنسامُ عن شفتيك
رفعوا مِنك للجمال مثالاً وانحنوا خُشَّعاً على قدميك

لقد كان لقصائده المغناة تلك.. والتي جاءته من بعدها جماهيرية كاسحة على مستوى الوطن العربي كله كقصيدة:

جفنُه علَّم الغزل ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا في جحيم من القُبل
ونشدنا ولم نزل حلم الحب والشباب
حلم الزهر والندى حلم اللهو والشراب

وكقصيدة «بأبي أنت وأمي» التي تغنت بها الفنانة أسمهان باسم «اسقنيها».. والتي تقول:

اسقنيها بأبي أنت وأمي لا لتجلو الهمَّ عني أنت. همي
املأ الكأس ابتساما وغراما
فلقد نام الندامى والخزامى
زحمَ الصبحُ الظلاما فإلاما
قم ننهنه شفتينا ونذوب مهجتينا رضَى الحبُ علينا يا حبيبي

وأخيراً قصيدة «أغضَاضَةٌ يا روض».. التي لحنها وغناها واختتم بها حياته الفنية الأستاذ فريد الأطرش.. بعد أن عدل عنوانها إلى «عش أنت».. وكما جاء في مطلعها:

عش أنت. إني متُّ بعدك
وأطل إلى ما شئت صدك
كانت بقايا للغرا
م بمهجتي فَختَمتُ بَعدك

وعندما مات الشاعر والمغني.. لم تمت تلك القصائد والأغنيات.. بل سافرت عبر القلوب والأزمان حتى تحولت إلى صفحة من أرقى صفحات تراثنا الغنائي الموسيقي.. والفني بصفة عامة.

* * *

لقد عرفنا كما عرف العالم العربي خارج سوريا ولبنان.. فيما بعد، بأن «الأخطل الصغير».. ليس هو الاسم الحقيقي للشاعر.. بل إنه «ثاني» الأسماء التي استعارها ليتخفى بها من ظلم وجبروت الوالي العثماني: جمال باشا السفاح.. الذي حكم سوريا ولبنان بالحديد والنار، وساق الأحرار إلى المشانق والسجون من مطالع القرن العشرين إلى الحرب العالمية الأولى، فقد اختار لنفسه في البدء اسماً حركياً.. هو الشاعر «المتكتم» ، الذي كتب تحته أشد قصائده الوطنية عنفاً وهجوماً على الدولة العثمانية وسفاحها جمال باشا.. إلا أن الرعب السائد في تلك السنوات قضى حتى على إمكانية الاحتفاظ بمدونات تلك القصائد الوطنية في المكاتب أو البيوت، فلم ينجُ منها بعد أن دار الزمن دورته.. إلا ما علق بذاكرة الشاعر.. لينشره في صحيفته «البرق» عندما عاودت صدورها في أعقاب هزيمة الدولة العثمانية والتي تقول بعض أبيات إحدى قصائدها:

أَنْجُـم لسانك ألجم ... فـالموت للمتكلمْ
لا يسألونك إن قُبضت ... أثمت أم لم تأثمْ
فالحبل شرٌ مرحب ... والعنق خير مسلّمْ
والسجن أكرم منزلٍ ... والنفي أيسر مغنمْ

لكن الشاعر عَدَلَ عن ذلك الاسم الحركي.. واستبدله بـ«الأخطل الصغير» مع قيام أول حكومة عربية في الحجاز بعد نهضة الشريف الحسين وثورته العربية الكبرى في عام ١٩١٦م،

وتوزيره للسيد رشيد رضا، والشيخ فؤاد الخطيب، وعزيز بك المصري، واسكندر عمون.. تأسياً باسم شاعر بني أمية المسيحي الفذ: «الأخطل الكبير» الذي كان يمثل ركناً من أركان دولة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان.. في الدفاع والذود عنها، والذي بلغت به فحولته الشعرية.. أنه إذا كتب قصيدة من تسعين بيتاً.. حذف ستين منها.. واستبقى الثلاثين بيتاً الأفضل والأجود والألصق بموضوع قصيدته.. كما قال عنه الأصفهاني كاتب «الأغاني»، ومع ذلك.. فقد كان بين الأخطلين اختلاف جوهري عميق. فبينما كان الأخطل الكبير الأموي.. معتزاً بنصرانياته.. حفياً بها، كان الأخطل الصغير اللبناني.. مؤمناً بقوميته.. فخوراً بعروبته، فلم تشكل مسيحيته فخراً ولا عائقاً بينه وبين جذور عروبة تربته وأصالتها. إنه في ذلك كأبيه الطبيب الذي ربّاه على التاريخ العربي والتراث العربي والأدب العربي بشعره وشعرائه. فقد كان اسم والده المسيحي الأرثوذكسي الديانة.. هو: عبدالله، وقد ذهب به هذا الوالد إلى مدرستين وطنيتين هما «الحكمة» و«المزار».. وإلى مدرستين ذات مسميين دينيين هما: «الإكليريكية» و«الفرير» حتى يجيد العربية وتاريخها وآدابها في الأوليين، ويجيد الفرنسية وعلومها في الأخريين، لينتهي من دراسته في عام ١٩٠٦م.. وقد بدت ملامح شاعريته تظهر لكل من حوله في اللغتين: العربية.. إبداعاً. والفرنسية.. ترجمة، ولأنه كان قارئاً للصحافة.. ومتتبعاً لها.. ومولعاً بها وإلى الحد الذي لم تكن تمر فيه «ساعة من ساعات حداثتي إلا وفي يدي جريدة التهمها» كما قال، فلم يطل به التفكير والتأمل فيما يمكن أن تتجه إليه حياته العملية.. فقد

كانت «الصحافة» هي حلمه.. وهي بوصلته التي توجه إليها، وكان من حسن حظه أن أصدر في تلك الفترة اثنان من «بلدياته» هما: «إلياس جدعون» و«نجيب حبيقة».. صحيفة جديدة هي «المصباح» فأخذ يتردد عليها ومعه قصائده التي لاقت من صاحبيها كل عناية واهتمام، وبشاعرها الشاب كل تشجيع وترحيب.. فزاد تعلقه بالصحافة بل وأخذ قراراً مبدئياً بأن يصدر هو الآخر صحيفة أخرى متى ما واتته الظروف..

وبعد عامين.. جاءته الظروف التي كان يتطلع إليها مع إعلان «الدستور العثماني» في عام ١٩٠٨م.. فاستبشر به، كما استبشرت به الولايات المتحدة في الدولة العثمانية.. ورأوا أو توهموا فيه خيراً وباباً يفضي بهم إلى مستقبل أفضل وغد حر سعيد، ليتقدم بطلب إصدار صحيفة «البرق».. وليصدر العدد الأول من جريدته في ذات العام محملاً بفرحته بالدستور الذي صدر مع الاحتفال بعيد جلوس السلطان عبدالحميد.. وبقصيدته الافتتاحية التي بقدر ما رحب فيها بعيد الجلوس بقدر ما روى فيها عن معاناته ومعاناة جيله السابقة.. عندما قال:

عيد الجلوس، وأي ذي أدب ... لم تثنه يا عيد من طرب
بالأمس بَدْرُك كان محتجباً ... واليوم أمسى غير محتجبِ
عيد الجلوس لست أنكر ما ... قد مر منك بسالف الحقب
كانت، أجل كانت مباسمنا ... تفترّ قصد تجنُب الريَب
لكنما كانت محاجرنا ... تدمى وكان القلب في لهب
تبكي وما تبكي سوى بدٍ ... لعبت بمفرقه يدُ النُوبِ

في صحيفته تلك العربية الروح والآمال والطروحات والتي أسهمت قدر طاقتها في النهضة القومية.. والتي تحول مقرها إلى ناد أدبي للأدباء والشعراء، ومقهى للمثقفين، وفندقاً للقادمين والمسافرين منهم.. كتب أجمل قصائد شبابه الوجدانية والوطنية.. وختمها برائعته الفريدة التي كتبها وهو في التاسعة والعشرين من عمره: «هند وأمها»، التي حفظها عن ظهر قلب شعراء العرب جميعاً.. وأغلب المثقفين في عصره وإلى يومنا هذا، والتي يقول مطلعها:

أتت هند تشكو إلى أمها ... فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها: إن هذا الضحى ... أتاني وقبلني قبلتين
وفرّ، فلما رآني الدجى ... حباني من شَعْرِه خُصلتين
وما خاف يا أم بل ضمني ... وألقى على مبسمي نجمتين
وذوَّب من لونه سائلاً ... وكحلني منه في المقلتين
وجئت إلى الروض عند الصباح ... لأحجب نفسي عن كل عين
فناداني الروض: يا روضتي ... وهمَّ ليفعل كالأولين

إلى أن ينهيها.. مختتماً هذا الحوار الرائع والفريد بين «هند» و«أمها».. عند قول أمها لها:

فقالت: وقد ضحكت أمها ... وماست من العُجبِ في بُرْدَتَين
عرفتهم واحداً واحداً ... وذقتُ الذي ذقتيه مرتين

كانت معارضته للحكم العثماني.. سبباً رئيسياً في تعطيل صحيفته «البرق» مع بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م..

لكنها عاودت الصدور بعد انتهاء الحرب وقيام دول عربية في العراق وسوريا والأردن وغيرها.. مستبشرة بعهود من الحرية والاستقلال، لكن عهد الفرنسيين والبريطانيين الذي خدعه بداية.. كشف عن نفسه وعن أنيابه سريعاً فلم يكن بأفضل من العهد العثماني، بل كان أسوأ منهما كما سيتضح له فيما بعد ليواصل الأخطل الصغير نضاله.. بقلمه وشعره.. فيأتيه العيد وهو في قمة غليانه فيستقبله قائلاً: «أي عيد مجيد لبلد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه.. من طربوشه إلى حذائه.. غريق في الأجنبية؟ وأي عيد مجيد لبلاد ريشة كتابه وشعرائه.. أجنبية؟ فيا أيها العيد. يا أيها العيد متى نتحرر»؟ ليعود فيسأل الغرب الفرنسي البريطاني.. شعراً:

ليت شعري ماذا جنينا على الغرب
لنُشوى على يديه.. ونُقلى
الأنَّا من أفقنا تطلع الشمس
فتعطي الغذاء حباً وبقَلا
إن يكن ذلك ذنبُنا.. وهو لله
فهلا عاقبتم الله.. هلاَّ!؟

ومع قصيدته «مصرع النسر» التي رثى بها ملك العراق فيصل الأول عند موته، وهاجم فيها الانتدابين الفرنسي والبريطاني.. والتي استهلها قائلاً:

لبست بعدك السوادُ العواصم
واستقلَّت لك الدموعَ المآتم

ودَّ لو يفتديك صقر قريش
بالخوافي من الردى والقوادم
دار هول المصاب حتى احتوى الكون
كما دار بالأصابع.. خاتم

.. أصدرت سلطات الانتداب الفرنسي قرارها بإيقاف الجريدة، ولكن ذلك لم يكسر رمحه وقلمه، ليكتب عند قيام الثورة الفلسطينية الأولى عام ١٩٢٦.. أو ما عرف بـ «ثورة البراق» رائعته الوطنية الخالدة: «يا جهادٌ.. صفق المجد له»، والتي بدأها قائلاً:

سائل العليا عنا والزمانا   هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا   لم تزل تجري سعيراً في دمانا

ثم معاتباً الحلفاء الذين غدروا بآمال العرب.. قائلاً:

أمن العدل لديهم أننا   نَزرعُ النصرَ ويجنيه سوانا
كلما لَوَّحت بالذكرى لهم   أوسعوا القول طلاءً ودِهَانا
ذنبنا والدهر في صرعته   أن وفينا لأخي الودِّ.. وخانا

ثم مخاطباً فلسطين والفلسطينيين.. مؤكداً عهد التحرير العربي لهم.. قائلاً:

يا فلسطينُ التي كدنا لما   كَابَدَتْهُ من أسى ننسى أسَانا
نحن يا أختُ على العهد الذي   قد رضعناه من المهد كلانا
يثربُ والقدسُ منذ احتلما   كعبتانا وهوى العرب هوانا

.. دون أن ينسى سماحته فيما التقى عليه العرب بمسلميهم ومسيحييهم.. عندما قال:

قم إلى الأبطال نلمَسْ جرحهمْ لمسة تَسْبحُ فيه بالطِّيب يدانا
قم نَحُجّ يوماً من العمر لهم هَبْهُ صوم الفصح، هبه رمضانا
إنما الحق الذي ماتوا لهُ حَقُنَا، تمشي إليه أين كانا

والتي عارضها الشاعر المصري الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل في عام ١٩٦٠م.. وقد تبدلت آنذاك حال العرب عما كانت عليه في منتصف الثلاثينات.. برائعته الوطنية: «يا ربى الفيحاء».. التي تغنت بها أم كلثوم في ذات العام... قائلاً:

لا تسل عنا ولا كيف لقانا
واسأل التاريخ عنا والزمانا
نحن كنا مهجةً واحدةً
ودماً حراً وروحاً وجنانا
بارك الله خطانا وسرت
صيحة الفجر.. فلبينا الآذانا

* * *

كان طبيعياً.. أن تقوده «الصحافة» وتلك الوطنية العربية العالية التي كان عليها إلى «السياسة».. ليخوض أول انتخابات لبنانية جرت في لبنان عام ١٩٢٥.. لكن حظه وحالة التعصب والحزبية التي كان ومايزال عليها كثير من العرب لم تعطه ما كان يتمناه من فرصة خدمة أبناء بلده، ليشعر بتلك الآلام الممضة التي شعر ويشعر بها أمثاله في كل أحقاب التاريخ.. ولكنه وبعد عشرة

أعوام تم انتخابه لرئاسة المجلس البلدي لمدينته: «برج حمود».. فقدم كل ما يستطيعه لأبناء مدينته، ليقدم له عام ١٩٥٤م شعراء لبنان وأدباؤها وكتابها برعاية الحكومة اللبنانية أول احتفالية به وبشعره وأدبه بعد صدور ديوانه «الهوى والشباب»، وكان جميلاً أن تشارك «جمعية الشبان المسلمين» بالقاهرة، لبنان.. في الاحتفاء بتلك المناسبة..

ومع صدور ديوانه الثاني والأخير في عام ١٩٦٠م، والذي تم فيه جمع.. بقية قصائده التي لم تنشر بعنوان «شعر الأخطل الصغير».. كان الأخطل الصغير أو بشارة عبدالله الخوري قد بلغ الخامسة والسبعين عاماً من عمره.. ليتنادى شعراء وأدباء لبنان ثانية.. لإقامة مهرجان أدبي كبير يشترك فيه أدباء وشعراء العالم العربي.. من كل أقطاره.

وهكذا التقى في الرابع من شهر يونيه من عام ١٩٦١م في قاعة «اليونسكو» الشهيرة بعاصمة السحر والجمال بيروت.. أشهر مشاهير شعراء العربية آنذاك من كل الأقطار: عزيز أباظة من مصر، والجواهري من العراق، وأبو ريشة من سوريا، والرفاعي من الأردن، والسقاف من الكويت، وسعيد عقل من لبنان، والفيتوري من السودان، والقرشي من المملكة العربية السعودية، وكمال نصر من فلسطين.. تحت رعاية الحكومة اللبنانية ورئيسها شارل الحلو ورئيس وزرائها صائب سلام.. لا ليحتفلوا بالشاعر بشارة الخوري وديوانه الجديد الثاني، ولكن ليبايعوه بإمارة الشعر.. ليكون أميره

الثاني بعد رحيل شوقي، ليموت قرير العين بعد سبع سنوات.. وأصداء صوته تردد:

أيها البلبلُ المغرِّدُ في الليل على كل أخضر قيّادِ
غمرتك النجوم بالقُبَلِ السكرى، فَنَقِّر يا ساحر المنقادِ
فأنا ناي الهوى الذي اخترع المحبة وأنت الفريد من إنشادي

.. ليبقى ناي الهوى والوطنية والمحبة: أبو عبدالله.. بشارة عبدالله الخوري أو «الأخطل الصغير» معلقاً في سمع الدهور والأزمان.

الحلقة الحادية عشرة

حمزة شحاتة

ربما كان قولي عن مجمل حياة شاعر الشعراء، وأديب الأدباء.. وفيلسوف فلاسفتهم: حمزة شحاتة.. بأنها كانت تمثل لحن الافتتاح الجميل في نهضتنا الأدبية عند بواكيرها الأولى من مطالع القرن العشرين.. هو الأقرب والأدق إلى توصيف تلك المرحلة، التي شق غبار ركاكتها البلاغية، وتخلفها الفكري بداية الشاعر والأديب والمفكر الرائد الأستاذ محمد حسن عواد.. ثم ثنى عليه بعد حين من الزمن الأستاذ «حمزة شحاتة» بإبداعاته الشعرية والنثرية المذهلة..

فإذا كان الأديب والناقد الكبير الأستاذ عزيز ضياء، وهو المعاصر لتلك المرحلة.. قد قال عن حق بأن «العواد» كان أول من كتب شعراً يقرأه ويحفظه الناس.. فإن من العدل أن نقول بأن حمزة شحاتة كان صاحب تلك الألحان الشعرية الباذخة العذوبة التي سبق بها زملاءه، وعشقها الناس.. كل الناس.

لقد أزاح «العواد» بشعره الفكري وريادة التجديد فيه.. ستار التخلف جانباً، ليصدح «الشحاتة» فيما بعد بشعره الموسيقي الأخاذ الذي استهله برائعته الأولى: «سطوة الحسن» والتي قالها في عز شبابه:

«بعد صفو الهوى وطيب الوفاق
عز حتى السلام عند التلاقي
يا معافىً من داء قلبي وحزني
وسليماً من حرقتي واشتياقي
هل تمثلت ثورة اليأس في وجـ
ـهي وهول الشقاءِ في إطراقي
أي سهم به اخترقت فؤادي
حين سددتها إلى أعماقي
مُسرعاً في المسير، تنتهبُ الخطـ
ـوَ، فهل كنت مشفقاً من لحاقِي
إذ تهاديتَ مُبْدلاً نظرة العطـ
ـف، بأخرى قليلة الأشواقِ
وتهيأت للسلام، ولم تفعـل
فأغريت فضول رفاقي
هبك أهملت واجبي صلفاً منـ
ـك، فما ذنب واجب الأخلاقِ»

.. ثم برائعة روائعه الشعرية عن مدينة «جدة» التي شاءت ظروفه أن لا يولد بها، ولكنه سرعان ما عاد إليها طفلاً.. ليعيش فيها كما عاش أهله، وليدرس بها، ويُبتعث منها إلى «الهند» للدراسة أو العمل.. أو لهما معاً.. فلم يغادرها بعد ذلك اختياراً أو اضطراراً إلا ليعود إليها.. حتى في سنوات اغترابه في مصر التي امتدت به لستة وعشرين عاماً. لقد كتب قصيدته تلك عن

«جدة» بخيال فنان.. ومهجة عاشق، فلم يقرأها أو يسمعها أحد من الناس إلا وجن بها وبقائلها الذي جمحت به مشاعره وعواطفه نحو جدة.. حتى بدا له أن عقل العقلاء غريق في بحر هواها، وهو يناجيها قائلاً:

النهى بين شاطئيك غريق،
والهوى حالم فيك لا يفيق
ورؤى الحبّ في رحابك شتى
يستفز الأسيرَ منها الطليق
ومغانيك في النفوس الصديات
إلى ريها المنيع رحيق
إيه، يا فتنةُ الحياة لصب
عهده في هواك عهد وثيق
سحرته مشابه، منك للخلد
ومعنى، من حسنه مسروقً
كم يكر الزمان، متئذ الخطو،
وغصن الصبا عليك وريق
ويذوب الجمال في لهب الحب،
إذا آب، وهو فيك غريق

لقد كان موسيقار الكلمة والإبداع هذا.. والذي أمضى نصف حياته القصيرة بين عامي ١٩١٠ و١٩٧٠م مغترباً في مصر: زاهداً في كل شيء. يائساً من كل شيء. وساخراً من كل شيء.. صاحب

حياة زاخرة منتجة مزدحمة في بداياتها وسنوات نضجها إلا أنها كانت مليئة على الدوام بالعواصف مزروعة بالرياح والأعاصير. المبدع فيه.. عاشق لـ «الكمال»، والفيلسوف فيه عاشق.. لـ«التجديد»، ولذلك بدا كما لو أنه فاجأ زملاءه ومجايليه وهو في مطلع العشرينات من عمره.. بقامته الشعرية الكاملة والناضجة: فكراً وصياغة.. إبداعاً وإمتاعاً.. ليتساءل الأديب الأستاذ محمد علي مغربي وهو أحد أصدقائه وزملاء مرحلته المقربين: «هل أخفى (حمزة) ما لا يرتضيه من بداياته حتى يظهر للناس بالصورة المشرقة التي أراد بها أن يواجه الناس»..؟

وهو ما تكرر.. على لسان الأستاذ عزيز ضياء الذي كتب عنه فيما بعد واحداً من أجمل كتبه: «حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف».. وبدأه معترفاً بأن حمزة شحاتة «منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة.. وهو قمة لا تدري كيف تكونت»..؟ ثم ظل يلح في تساؤله قائلاً: «أجد نفسي مضطراً أن أتساءل: متى؟ وكيف؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التي نفترض أنه بلغها في العشرين»!!

إن طموحه غير المحدود، وطبيعته القلقة، ونزوعه الجارف نحو الكمال، وقدرته الاستيعابية الضخمة لكل ما يقرأ.. يضاف إليهم معركته الأولى والمبكرة مع أستاذه العواد حول مكونات الطبيعة من الماء والتراب والنار.. شكلت جميعها الأرض التي نصب فوقها سلالم صعوده إلى القمة: شاعراً وأديباً ومحاوراً فلسفياً جدلياً.. لا يشق له غبار.

ومهما قيل عن تلك المعركة الأدبية الراقية في بداياتها والتي دارت رمزاً بين الطرفين: بين «الليل».. وهو حمزة شحاتة، و«أبوللو» أو «الساحر العظيم».. وهو العواد.. ثم هبطت في ختامها إلى الهجاء الصريح وتبادل الشتائم وما فوقها بين الطرفين، إلا أنها أضافت مكانة لمكانة الأستاذ حمزة شحاتة.. وقيمة إلى قيمته.. جعلت منه في النهاية قمة شعرية وأدبية موازية ومواجهة لقمة العواد، لها الغلبة بأنصارها وجمهورها من المثقفين والعامة ممن أطربتهم ردود حمزة شحاتة الشعرية المفحمة ممن كانوا يتابعون سير تلك المعركة على صفحات «صوت الحجاز» أو على لسان الأديب الأستاذ عبدالسلام الساسي، الذي كان يتنقل بين معسكري «العواد» و«الشحاتة» وهو يحمل في حافظته ما لا تجيز الصحيفة نشره.

* * *

كانت حظوظ الأستاذ حمزة شحاتة الإدارية وهي معيار النجاح مع النفس وبين سواد الناس.. تقل كثيراً عن حظوظه الشعرية والأدبية الساطعة اللامعة، وهو ما جعل من تلك الحظوظ الإدارية.. موضع تندره وسخرياته هو وصديقه الحميم الشاعر الكبير الأستاذ أحمد قنديل في خلوة أحاديثهما، ثم في أزجالهما عن «الفلس» و«النحس» و«قلة البخت»، فبعد أن عاد الشاب حمزة شحاتة من بعثته إلى الهند تم تعيينه سكرتيراً للمجلس التجاري بجدة الذي كان يرأسه الوجيه الشيخ سليمان قابل أحد عين أعيان جدة.. ولكن ذلك لم يرقه فتركه إلى الأعمال الحرة ليؤسس مع

شقيقه «شركة السلام» للسيارات، ثم ترك ذلك ليذهب إلى مكة بعد عودته مع كوكبة المثقفين من الرياض ليعمل سكرتيراً لنجم الإدارة الحجازية آنذاك: الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان يعمل - بدوره - مستشاراً أو مديراً عاماً لوزارة المالية، ولكن ذلك العمل لم يُرض طموحه.. فغادره بعد عام.. ليعود إلى جدة وإلى العمل مرة ثانية مع شقيقه في التجارة، ولكنه سرعان ما غادر ذلك أيضاً.. في رحلة اجتماعية أدبية وليست تفقدية «بالتأكيد كما قال الأستاذ المغربي في كتابه إلهام: أعلام الحجاز».. إلى الجنوب.. إلى جيزان وأبها ليزور صديقاه «عبدالعزيز جميل» مدير ماليات جيزان، و«طلعت وفا» مدير شرطة أبها.. ومنطقتيهما، ليكل إليه معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بعد عودته.. إدارة سيارات النقليات الحكومية، فلم يبق في ذلك العمل إلا بضعة شهور.. حيث انتقل إلى العمل في ديوان المحاسبة بالوزارة نفسها..

كانت هذه التنقلات المتسارعة.. تعكس حالة قلقه مع نفسه من جانب.. أمام طموحه الذي لم يجد في كل ما مر به من وظائف وأعمال ما يلبيه.. على الجانب الآخر، لتدعوه «جمعية الإسعاف الخيرية» التي أقامها الشيخ محمد سرور صبان.. في ختام موسمها الثقافي الثاني وفي الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٩هـ الموافق للسابع من يناير من عام ١٩٤٠م.. وفي آخر أفضل مواسم حج قبل أن تشتد معارك الحرب العالمية الثانية.. لإلقاء محاضرة يختار هو موضوعها وعنوانها، فكانت فرصته الذهبية

الثانية.. بعد فرصة تمعركه أدبياً وشعرياً مع «العواد» والتي خرج منها مظفراً.. ليعد محاضرته الشهيرة المدوية: «الرجولة عماد الخلق الفاضل»، التي كتبها في مائة وعشرين صفحة، وألقاها في أربع ساعات، وقوطعت بالتصفيق ثلاثين مرة.. واستمع إليها جمهرة المثقفين والمتعلمين في العاصمة آنذاك.. حتى فاض بهم مبنى الجمعية إلى الشوارع والساحات المجاورة.

كانت المحاضرة: علماً وفكراً.. أدباً وفناً.. تاريخاً واجتماعاً.. سياسة وأخلاقاً، ودعوة لـ «المثالية» بإطلاقها.

كانت بحق بيان جدارة عن شخص وفكر وقمة قائلها... لكنها كانت في ذات الوقت المدخل لـ «معركته الثانية» غير المعلنة مع مؤسس الجمعية، ونجم الإدارة وراعي الأدب والأدباء محمد سرور الصبان نفسه.. ليديرها بالوكالة عنه الصحفي الكبير الأستاذ عبدالله عريف عندما استقبل المحاضرة التي أجمع على الترحيب بها كل من استمع إليها.. بمقال ظاهره الرحمة «ضريبة الإعجاب» وباطنه العذاب.. إذ إنه قال بـ «أن انصياع الجماعة واندفاعها أقوى منهما في الفرد».. وبما يعني أن النخب لا تريان الرأي ذاته، وقد أدرك شاعرنا الغمز واللمز اللذان حفلت بهما تلك المقالة، ليرد عليها بست مقالات.. جاءت بعنوان واحد هو: «بين النقد والجمال».. واستغرق نشرها شهرين من العام التالي.

لقد شعر «الشحاتة» بأن محاضرته الضخمة والرائعة بكل مقاييس زمانها، لم تلق عند ذوي القول والفعل ذات القدر من

الحفاوة، فطواها.. وطوى جوانحه على ما سببته له من آلام نفسية.. حتى أنها لم تظهر بين محاضرات الجمعية عندما قُدر لتلك المحاضرات أن تطبع وتوضع في خدمة القراء.. ليصور ما حدث في واحدة من أجمل وأبلغ قصائده.. قصيدة «حيرة».. قائلاً:

تسائلني: كيف انتهيت إلى الرضى
وما علمت أن العزائم تَصدأُ
أهبت بعزمي، فاستجاب، فردني
لسالف أطواري، حياءٌ ومبدأُ
لأمرٍ رأى ذو الرأي أن حثالة
من الناس أقضى للمراد وأكفأُ
تشبهتُ بالساعين عزماً وأهبة
فأخرني إن عجلتُ وأبطأوا
وثقَّلت من خطوي أناة وحكمةً
فقال خَليٌّ: شد ما تتلكأوا
هو الرزق. قد لا يبلغ القصدَ جاهدٌ
مصيبٌ، ويلقاه، ولم يَسْعَ مخطئُ

.. إلى أن يقول:

وقد حظي اللاهون بالصيت والغنى
فشادوا، وسادوا، وانتشوا، وتبوأوا
وعشت على ما كان، طالبُ غايةٍ
من الوهم، لا تَنأى ولا تتهيأوا

ليصمت بعد ذلك خمس سنوات متتالية.. يتأمل فيها ويفكر فيما عليه أن يفعل.. إلى أن أخذ قراره بالرحيل إلى مصر في عام ١٩٤٤م بعد أن أخذت تظهر في الأفق مشاهد انتصار الحلفاء على دول المحور، ولكنه.. وقبل الرحيل أطلق آخر سهامه عبر قصيدته الفريدة بحق والتي جاءت بعنوان «نهاية» والتي استهلها.. بسؤاله العبقري إلى صديقه اللدود محمد سرور الصبان:

أخير سبيليك التي تتجنبُ
وأدنى حبيبك الذي لا تقربُ؟

ثم واصل بوحه قائلاً:

صبرت وما صبر امرئٍ لم يعدله
على يأسه فيما يحاول مذهبُ
أيُقدم والإقدام خطة يائسٍ
رأى أن ضيق الموت للنفس أرحب
أيُحجم؟ والإحجام فسحة ساعة
سيعقبها عمر كريه معذَّبُ

* * *

في مصر الأربعينات.. وعلى ضفاف النيل.. وفي وظيفة متواضعة هي «محاسب» بإدارة البعثات السعودية اضطر إليها ولم يبق فيها.. أخذ يتنفس جراحه التي قدم بها:

هَدَرتُ شعوري حين صعَّدتُه شعراً
وأشفي لنفسي أن أفجره جَمراً

فما لي وقد عِفتُ السلامة موردَاً

وأعرضت عن أسباب طالبها كِبراً

.. إلى أن قال عن نفسه صراحة:

تطَلَّب من دنياه عدلاً فَسَوفَتْ

حكيمٌ، فلا عجزاً أقام ولا صدرا

فأنفق في ظل الخمول حَيَاتَه

وعاش على جَدْب الحقيقةِ مضطرا

ورب «مجدٍ» لم يَدَع بابَ حيلة

إلى اليسر، أفنى جُهدَه، فجنى العُسرا

وحيٌ من الأحياء، غاية قَصده

على عيشه ألاّ يَجوعَ ولا يعرى

تُساق إليه من غرائب رِزقِه

سحائبُ، فاضت حوله دِيَماً غُزْرَا

إلا أنه ومع أحزانه الدفينة.. ظل يكتب ولا ينشر عن مصر وأهلها.. وعن البيت العتيق وساكنيه وهو يتفاعل مع عاطفته ووطنيته التي اشتد توقدها في سنوات غربته.... لتبقى قصيدتاه عن: فتاة «بولاق» التي أحبها، و«الشجرة» التي تتحدث لأختها، مثالين عن جمال وكمال ما كان يكتبه من روائع شعرية في تلك المرحلة من مطالع أربعيناته، فها هو يقول لفتاته:

يا أنتِ، يا نبعَ أحلامي، ومُلهمتي

سِرُّ الجمالِ تجلى، في مزاياك

يا هاتفاً من ضمير الغيب أشرَق في
قلبي بدعوته، شمساً، فلَبَّاكِ
ما النيلُ، ما غيدُه، ما الشط مزدهياً
بهن إلا إطار حَولَ مَغناكِ
لو يسألُ الدهرُ عن فتّانةٍ بلغت
حد الكمال، لما استثنى، وسَمّاكِ
يا فجرُ، يا بدرُ، يا زهرَ المنى ابتسمَتْ
يا خمرُ، يا جمرُ، في إحساسي الذّاكي
ما كنت قَبلَكِ إلا صادحاً صمتت
به الهموم، فلمّا لُحتِ غَنّاكِ

.. وهاي هي شجرته تتحدث إلى أختها قائلة:

أي عيش هذا الذي نحن صالوه هوانا وفاقة وشنارا
أخرست فيه دعوة الحق والعز فعادا ضراعة وصغارا
وغدا راجِحُ النهى فيه منقوصاً وحُر الضمير يكدى عثارا
قد ظمئنا والماء ملء السواقي، واهتدى غيرنا وعشنا حيارى

لكن الوطن يتذكره.. عندما دعاه الشيخ محمد سرور الصبان للعمل «نقيباً للسيارات» في النقابة التي أنشأتها وزارة المالية عام ١٣٧٢هـ الموافق لعام ١٩٥١م للتنسيق بين الشركات العاملة في نقل الحجاج، فقدم إلى مكة.. ولكن إقامته في ذلك العمل لم تطل إلا لبضعة أشهر ليعود بعدها إلى القاهرة وهو في الرابعة والأربعين

من عمره أشد يأساً وقنوطاً.. وقد اتخذ قراراً بأن يطلق الشعر والكتابة وإلى الأبد، ولكن «الشاعر» فيه لم يستسلم لقراره.. فكان يكتب القصيدة وقد يُسمعها لأحد من زواره ثم يقوم بتمزيقها، وقد أدرك ذلك أصدقاءه فكانوا يأخذون القصائد منه بعد تلاوتها ليقومون بإخفائها عنه.. وقد أنقذ ذلك التصرف الذكي منهم عدداً لا بأس به من القصائد، كما أن «الكاتب» فيه.. لم يستطع أن يصمت، فعاد يتسلل إليه عبر «الرسائل» الواجب كتابتها لابنته البكر وصديقته «شيرين» التي كانت تقيم في جدة والتي تحولت فيما بعد إلى كتاب بعنوان إلى «ابنتي شيرين».. ثم اتسعت دائرتها لتشمل أصدقاءه الأقدمين: الضياء والقنديل.. ومحمد عمر توفيق، وقد تطورت مواضيعها من «الخاص» إلى «العام».. لتتحول إلى فكر وفلسفة عن الحياة والإنسان والمصير.. وهي التي تحول ما كان منها إلى صديقه وزير الوزارتين محمد عمر توفيق إلى كتاب بعنوان: «الرسائل».. ما أجمل الشحاتة، شاعراً وناثراً وكاتب حكم، أهدتها إليه تجربته العميقة الدامعة.. واستخلصتها براعة حكمته.

* * *

أخذت سنوات صمته واعتزاله ونكرانه لذاته ولكل ما أنتج وأنجز.. تقضم صحته رويداً.. رويداً، وقد ساعدت قلته التي تكابر عليها على ذلك.. ليضعف بصره تحت معاول مرض السكري الذي أصابه.. حتى كف بصره تماماً أو كاد.. ليموت وهو في الستين من عمره وفي أفضل سنواته عطاءً لولا زنزانة الاعتزال التي اختارها أو أرغم نفسه على البقاء فيها، لتصدق قولته في إحدى رسائله

لـ «التوفيق»: «إن الحياة تسمم طويل الأمد لكل من يحمل صك آدميته في يده».. ولتتأكد حكمته الساخرة: «عندما يفشل الطبيب.. تقع المسؤولية على القدر»..!!

ولكن موته المأسوف عليه.. كان بداية حياة جديدة لأدبه وشعره وأقواله المأثورة ومِزَقِ قصائده.. ورحلة جديدة لشخصه واسمه ومكانته مع المجد والشهرة والأضواء التي تعالى عليها وسخر منها طوال سني حياته. فقد أصدرت له «دار الشعب» المصرية - بعد خمس سنوات من وفاته - أول ديوان له: «شجون لا تنتهي».. الذي ضم ثلاثة عشر قصيدة من عيون شعره، ثم قامت «دار المريخ» بالرياض لصاحبها الأديب الفنان الأستاذ عبدالله الماجد.. بعد عامين من ذلك التاريخ بتجميع ونشر كتابه الفلسفي الرائع.. والذي كان مفاجأة لجيلنا: «حمار حمزة شحاتة»، ثم تحمل الأمير عبدالله الفيصل - بعد أحد عشر عاماً - نفقات طباعة ديوانه كاملاً إلا من بعض القصائد، ثم قامت «تهامة» بتجميع ونشر بقية أعماله في ثلاث كتب هامة: «الرجولة عماد الخلق الفاضل».. وهي المحاضرة الجهيرة التي أعطته بقدر ما سلبته، وكتاب «إلى ابنتي شيرين».. الذي حمل رسائله الجادة والساخرة لابنته، وكتاب «رفات عقل».. الذي قدم أجمل وأعمق اختصار لحياته وفكره الإنساني.

وهكذا.. مضى حمزة شحاتة جسداً إلى القبر.. وارتفع اسماً إلى سماء الخلود، ليكون أحد أشهر شعرائنا وأدبائنا في القرن العشرين، الذي عاش حياته مهموماً بها.. ومات غير راض عنها.

الحلقة الثانية عشرة

ليو تولستوي

نجم هذه السطور.. هو الكاتب الأديب، والروائي القاص، والمفكر الروسي، والفيلسوف الإنساني الكبير: ليو تولستوي.. صاحب رائعتي: «الحرب والسلام» و«أنّا كرنينا».. اللتان لا يدانيهما قيمة وشهرة إلا قلة قليلة من الأعمال الروائية على مستوى العالم بأسره، وهو وإن كان من أدباء القرن التاسع عشر بالولادة.. إلا أنه أحد أبرز أدباء القرن العشرين ليس بوفاته قبيل الحرب العالمية الأولى ولكن بانتشار ترجمات أعماله إلى اللغات الحية، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية في الثلث الأول من القرن العشرين، ثم بترجمتها إلى اللغة العربية في أربعينياته وخمسينياته ليتلقفها سواد المثقفين العرب العطشى لمثل هذه الروائع والتي كانت لا تعرفها إلا قلة ممن اطلعوا عليها في ترجماتها الإنجليزية أو الفرنسية.. أما الأكثرية منهم، فلم يتح لهم الاطلاع عليها إلا بعد انتشار ترجماتها إلى العربية.. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيث كان لدور النشر اللبنانية الفضل الأول في ترجمة تلك الأعمال وطباعتها وتيسيرها لأجيال القراء في أرجاء الوطن العربي كله.. التي خرجت بعد الحرب وانحسار المد الاستعماري عنها.. وهي

تريد أن تتطلع وتقرأ لتتعرف على أدب وأدباء الشعوب الأخرى، بمن فيهم تلك التي استعمرتهم.. وسامتهم سوء العذاب، حتى قال القائلون في أواخر الستينات من القرن الماضي بعد أن امتد نشاط دور النشر اللبنانية من الترجمات.. إلى غيرها إجمالاً: إن القاهرة تكتب.. وبيروت تطبع.. وبغداد تقرأ..!! مع «الفاتحة» على «بغداد».. التي كانت تقرأ..!

* * *

إن قصة حياة «تولستوي» كـ «أعماله».. تتسمان بقدر فريد من الغزارة والإنسانية والعظمة، فقد كتب كثيراً وطويلاً.. بامتداد سنوات حياته : المقالة والقصة والرواية والمسرحية.. وإلى أن وافاه أجله في الرابعة والثمانين من عمره وهو يختتم آخر أعماله بـ «مسرحية: الجثة الحية».. ترسيخاً لانتفاضته الروحية التي أعادته إلى منابع الإيمان بعد أن بلغ الخمسين، وأخذ يعيد أسئلته: «ما هي الحياة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أعيش؟ لماذا يجب عليَّ أن أفعل أي شيء؟ هل هناك أي معنى في الحياة يمكن أن يقهر الموت الذي لا يمكن تجنبه»..؟ إنها نفس الأسئلة التي جاءت على لسان بطله في رواية «الحرب والسلام»: بيتر بيزوكوف.. عندما كتبها وهو في السابعة والثلاثين من عمره مصوراً بشاعة حروب نابليون والثلوج التي قهرت جنوده البائسين، لكنها هذه المرة.. وبعد أن بلغ الخمسين عادت به إلى الإيمان وإلى اعتناق مبدأ «المقاومة السلبية» للشر، الذي شكل كفاحه – من أجلها – نقطة قلق كبرى

في حياته، قامت عليه فلسفته فيما بعد، والتي سجلها تفصيلاً في كتابه «اعترافات»، ورواها عنه «إيلمر موذ» عندما كتب: «حياة تولستوي».

ولكن قبل «الحرب والسلام».. وقبل «الاعترافات»، كان تولستوي وبتلك الغزارة في إنتاجه.. قد كتب عن «طفولته» وهو في الرابعة والعشرين، وعن «صباه» وهو في السادسة والعشرين، وعن «شبابه» وهو في التاسعة والعشرين.. ثم كتب بعد كل ذلك رائعته الخالدة «أنا كرنينا»، التي أذهلتني عند قراءتها.. بعد أن بقيت في مكتبتي بعض الوقت دون قراءة، فلم أكن أتصور أنها جميلة إلى هذا الحد.. رائعة إلى هذا المدى، فقد كانت أدباً رفيعاً.. وتصويراً باذخاً لحياة «أنا كرنينا» وصراعات مجتمع مدينتها «بطرسبرج».. مدينة الثقافة والفنون الفارهة، التي تصارع على شرف نسبتها إليه كل من «لينين» عندما أسماها «لينينجراد».. فـ «ستالين» الذي خلفه عندما أسماها بعد ذلك «ستالينجراد» لتعود إلى اسمها القيصري القديم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي: «بطرسبرج»، إنها بحق.. رواية.. تفضل كثيراً أميز الروايات وأهمها.. لتقف إلى جانب رواية «مدام بوفاري» التي كتبها الأديب الفرنسي الرائع: جوستاف فلوبير عام ١٨٥٧م.. فمنحته بعدها لقب: «رائد» الواقعية في الرواية.

* * *

لقد كان للسينما الأمريكية في عهدها الجميل فضل تقديم هاتين الرائعتين: «الحرب والسلام».. و«أنّا كرنينا».. على الشاشة

الفضية ليراها العالم كله بأمييه، وأنصاف وأرباع متعلميه دون أن تثنيها عن تقديمهما الاختلافات العقائدية مع المعسكر الاشتراكي أو طول رواية «الحرب والسلام»، الذي ابتكرت له حلاً بارعاً.. وذلك بوضع استراحة في منتصف العرض الذي أذكر أنه كان يمتد لثلاث ساعات.

وبقدر إنتاج تولستوي الأدبي اللامع والكثيف الذي أبهر وأمتع الملايين من القراء.. فقد كان له إنتاج فكري وفلسفي آخر.. تداخل مع سنوات حياته وفكره الفلسفي الذي كان يتطور زمناً.. بعد زمن، وكان أشد وضوحاً بعد (منعطف التحول) في حياته عندما بلغ الخمسين من عمره.. فكان تعبيراً لصيقاً بها، له من جوانب العظمة الإنسانية البالغة في إيثارها وتضحياتها.. بأكثر مما هو عليه، وإن أخذ عليه بعض نقاده ما جاء في مقاله «ما الفن».. دون الرجوع إلى ماضيه، وإلى أيامه الأولى، فقد ولد تولستوي.. لأبوين من «النبلاء»، وتربى في بيت «منيف».. وسط إقطاعية من الأراضي يعمل فيها عشرات الفلاحين، ثم مات أبواه.. على التوالي وهو دون التاسعة من عمره فعاش حرقة اليتم رغم رفاه العيش من حوله.. الذي أدى به فيما أدى إلى الفشل في دراسته الجامعية، وهو ما جعله يلتحق بـ «الجيش» وهو في عامه الثالث والعشرين.. ليحارب في القوقاز، وليدافع عن مدينة «سباستبول» القيصرية إلا أنه لم ينس أولئك الفلاحين المعدَمين الذين عاش معهم وبجوارهم عندما حاول افتتاح مدرسة لتعليمهم.. ولكنه لم ينجح، ليعاود محاولته مرة ثانية بعد أن ترك الجيش.. حتى

يتمكن أولئك الفلاحين بالعلم والمعرفة من استرداد إنسانيتهم وكرامتهم.. فلم يتحقق له ذلك، ليتزوج وهو في الرابعة والثلاثين.. وليعيش حياته الناعمة لخمسة عشر عاماً أنجب خلالها عدداً من الأبناء والبنات، وقد كان يمكن له أن يمضي في تلك الحياة الناعمة دون أن ينغص عليه أي منغص، ولكن وجدانه الحي وعقله الكبير.. أخذا يلحان عليه بتلك الأسئلة التي عاودته عن «الحياة» و«الموت».. ليكتب خلاصة فلسفته في كتاب شديد التركيز جاء بعنوان: «ما أؤمن به».. ثم ليبكي بعد ذلك على موت أحد الفلاحين في قصته الحزينة الدامعة: «موت إيفان إليتش».

* * *

عندما بلغ تولستوي الثمانين من عمره في ختام العقد الأول من القرن العشرين كانت روسيا القيصرية كلها تحتفل بعيد ميلاده.. فقد أصبح علماً وهرماً متكامل البناء: بالغ الضخامة في إنتاجه.. بالغ العظمة في إنسانيته، وكان طبيعياً أن يشارك رموز الفكر والفلسفة والأدب في العالم.. في تلك المناسبة الرفيعة، ليبرق له «المهاتما غاندي» الذي سيحرر الهند بعد ثلاثين عاماً بـ «المقاومة السلبية» التي دعا إليها تولستوي للانتصار بها على الشر: مهنئاً.. وقائلاً له في عذوبة بالغة: «أبلغ المائة.. يا حبيبي».

لكن براكين «تولستوي» الإنسانية.. كانت وكأنها تستعد للحظات انفجارها القادمة عندما أخذ يدعو بعد عامين جموع الفلاحين إلى بيته المنيف، ليقدم لهم ذات الطعام الذي يأكل منه.. وليتباسط

معهم وكأنهم أنداده.. ويلهو مع أبنائهم وكأنهم أبناءه، ثم ليقوم بعد ذلك بتوزيع أراضيه عليهم.. لتثور ثائرة زوجته عليه فينضم إليها أبناؤه وبناته ماعدا صغرى بناته «اليكسندرا». التي صحبته يوم أن قرر الرحيل عن بيته المنيف بأثاثه ورياشه وثرياته.. إلى غرفة متواضعة من غرف محطة السكة الحديد، ليداهمه المرض نتيجة هذا التغيير الذي لم تقو عليه شيخوخته.. ليموت وحيداً إلا من ابنته «اليكسندرا» التي أحبته أباً، وتعلقت به مبدعاً، وآمنت به مفكراً وإنساناً.. قل نظيره، ويترك خلفه أعمالاً لن تنمحي.. وحياة لن تنسى عبر القرون.

الحلقة الثالثة عشرة

د . يوسف إدريس

بقدر ما كان يدهشني.. بقدر ما كان يسعدني اكتشافي لهذا العدد الكبير من الأطباء المبدعين في القصة القصيرة، وفي الرواية، وفي المسرح، وفي كتابة المقال الصحفي، وفي الصحافة بصفة عامة.. على مساحة الوطن العربي كله وبامتداد سنوات القرن العشرين الماضية.

لقد سطعوا، ولمعوا نجوماً في سماء الإبداع: نثراً وشعراً ومسرحاً وصحافة.. بدءاً من الدكتور زكي أبو شادي صاحب مدرسة أبوللو الشعرية ومجلتها الشهيرة، ومروراً بسندباد القلم والرحلات الدكتور حسين فوزي.. إلى صاحب التأملات الإيمانية والفكرية الدكتور مصطفى محمود.. إلى نجم الإبداعات الصحفية الدكتور صلاح حافظ في مجلة «روزاليوسف» في السبعينات والثمانينات، الذي جمع بين كتابة المقال والريبورتاج الصحفي والقصة القصيرة التي أذهلت إحداها وهي قصة «الذبابة» نجم حلقتنا هذه الدكتور يوسف إدريس إلى الحد الذي جعله يتصور بأن كاتبها لابد وأن يكون من غير البشر..!! وعندما علم بأنه طالب معه في كلية الطب، وأنه زميل دفعته أخذ يتساءل حائراً: كيف يتسنى لطالب طب مثله أن يكتب قصة بهذه الروعة..؟!

ولأن أعداد هؤلاء الأطباء المبدعون شعراً ونثراً ومسرحاً وصحافة.. أكثر من أن يتم جمعهم والحديث عنهم في فصل واحد.. فإنني أستمحيكم عذراً في أن أذكركم - وعلى عجل - بواحد منهم.. هو الدكتور إبراهيم ناجي أستاذ الرومانسية الشعرية.. صاحب ديواني «من وراء الغمام» و«ليالي القاهرة»، والذي قدم أول ترجمة لأهم وأجمل دواوين الشعر الفرنسي: «أزاهير الشر».. لشاعره العظيم: «بودلير»، والذي يكفي أن أذكركم.. بأنه هو صاحب القصيدتين اللتين جمعت بينهما «أم كلثوم» في تلك الرائعة الغنائية الفريدة التي عُرفت بين ملايين المستمعين بـ «قصيدة الأطلال»، والتي لا أظن أن أحداً ممن استمعوا إليها يمكن أن ينساها أو ينسى ختامها الدرامي الرائع والمثير:

«يا حبيبي.. كل شيء بقضاء

ما بأيدينا.. خلقنا تعساء

ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء

فإذا أنكر خل خله

وتلاقينا لقاء الغرباء

ومضى كل إلى غايته

لا تقل شئنا.. فإن الحظ شاء»

.. ثم، لأقف طويلاً في حلقتنا هذه عند الأديب القاص والروائي المسرحي، وصاحب أكثر المقالات الصحفية حدة والتزاماً وصدقاً..

في صحيفة الأهرام القاهرية وعلى مدى العقدين الأخيرين من حياته القصيرة: الأستاذ الدكتور يوسف إدريس.

* * *

لم يكن في ولادة هذا الأديب الطبيب.. أو هذا الطبيب الأديب الفنان، والشجاع الجريء ، والإنسان المثقل الوجدان بأحلام وأفكار «العدل الاجتماعي».. مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين.. ما يستلفت الانتباه، فقد ولد من أسرة زراعية متوسطة الحال.. وكان أميز ما يميزها أن بها عدداً من خريجي «الأزهر».. وقد درس بالمدارس الحكومية المجانية، ثم التحق بكلية الطب، ليتخرج منها عام ١٩٥١م.. وهو في الرابعة والعشرين من عمره، فكان تخرجه المبكر أحد دلائل نبوغه «العلمي».. لكن نبوغه الأدبي كان قد سبق ذلك.. عندما بدأ في نشر قصصه القصيرة مع إطلالة عام ١٩٥٠م.. وهي التي شكلت فيما بعد مجموعته القصصية الأولى التي نشرت عام ١٩٥٤م وحملت عنوان «أرخص الليالي»، ثم أعقبتها بعد عام مجموعته الثانية والتي جاءت تحت عنوان «العسكري الأسود»، وهي تلفت أنظار النقاد نحوه ليروا فيه تباشير ميلاد قاص جديد مختلف عن كل من سبقوه.. في سهولة وسلاسة أسلوبه، ودقة وتيليغرافية أوصافه.. وفي تلقائية انتقائه لشخصياته من عرض الحياة: من الشوارع المزدحمة في المدن كقصة «الأحرار».. ومن «العِزَب» وغيطان الفلاحين كقصة «حادثة شرف».. ومن طرقات مصر الطويلة والنائية كقصة ذلك «القهوجي» البائس التي أسماها وأسماه بـ «صاحب مصر».. حتى

قالوا عن تلك المجموعة بـ «أنها البوابة الفعلية للواقعية المصرية» في القصة القصيرة.. بينما رفعها البعض الآخر إلى ما هو أكبر وأعلى عندما قال بعضهم عنهما بـ «أنها تجمع بين سمات دستوفيسكي وسمات كافكا».. وهما علما القصة والرواية الكبيرين في روسيا وألمانيا.. بل وفي العالم بأسره، أما عندما قرأ الدكتور طه حسين مجموعته التي ظهرت بعنوان «جمهورية فرحات».. وقد كان من بينها، قصة تحمل العنوان نفسه وهي تروي حكاية شرطي مسن برتبة «صول».. اسمه «فرحات».. يعمل في أحد مراكز الشرطة، ولكنه كان يحلم «بجمهورية تشفي شقاءه وشقاء النماذج البشرية التي تتوارد عليه كل يوم».. فقد قال عن الكتاب الذي ضم تلك المجموعة «أجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس، ورقة الذوق، وصدق الملاحظة، وبراعة الأداء.. مثل ما وجدت في كتابه الأول (أرخص الليالي).. على تعمق للحياة، وفقه لدقائقها، وتسجيل صارم لما يحدث فيها».. ليتتابع صدور مجموعاته القصصية بذلك التدفق الساحر العجيب من «لغة الآي آي».. إلى «العتب على النظر».. إلى «آخر الدنيا» الرائعة التي كانت تروي حكاية غلام شديد الفقر. شديد التفوق في مدرسته التي يقطع من أجل الوصول إليها مع غبشة فجر كل يوم أربع كيلومترات في ذهابه، ومثلها في عودته. ماتت والدته وانصرف والده ليجوب القرى والمدن الصغيرة حتى آخر الدنيا بحثاً عن لقمة العيش بعد أن تركه في رعاية والدته/ جدة الغلام، وفي إحدى أوبات والده ترك له قطعة نقود ثمانية الشكل.. تساوي قرشين أو «نصف فرنك» بلغة

أشقائنا المصريين.. فكان يتحرص عليها وهو ينقلها من «بنطلون» المدرسة الوحيد إلى جلباب نومه.. ومن الجلباب إلى «البنطلون».. ويده عليها في كل حين تتلمسها وتتحسسها. وتطمئن إلى وجودها.. فقد اعتقد بأنها هي التي ستذهب به إلى آخر الدنيا.. ليرى والده الذي يذهب إلى هناك سعياً، في طلب العيش.. كما كانت تقول له جدته، وفي ذات يوم.. فُقدت منه تلك القطعة الفضية الثمينة.. فظل يبحث ويعيد البحث عنها في كل مكان إلى أن تذكر أنها ربما سقطت منه في أحد الغيطان أثناء عودته من المدرسة، ليذهب إلى تلك المنطقة.. ويزرعها طولاً وعرضاً حتى وجدها، ومع سعادته بالعثور عليها.. اكتشف أنه أصبح قريباً من تلك المنطقة المحاذية لمحطة السكة الحديد الذي حذره والده من الاقتراب منها، ولم يعد يدري من شدة تعبه ما الذي حدث له بعد ذلك.. حيث التهمه القطار، وذهب إلى عالم آخر.. ربما إلى آخر الدنيا.

مع تتابع نشر مجموعاته وقصصه القصيرة في ملحق جريدة الجمهورية الأدبي الرائع الذي كان يتولى الإشراف عليه الكاتب الفيلسوف والشاعر الفنان: كامل الشناوي، والذي كنت أتابع قراءته أسبوعياً عندما كنت طالباً في جامعة الإسكندرية.. كانت دائرة الإعجاب بالدكتور يوسف إدريس تنتقل من النقاد إلى جماهير القراء بطبقاتهم المختلفة.. وصولاً إلى سوادهم وإلى البسطاء منهم الذين كانوا يشكلون في وعيه ولاوعيه بؤرة اهتمامه.

لقد كنت أقرأ تلك القصص في حين صدورها.. مثل بقية

القراء والمعنيين من زملائي في البعثة.. ولكن يبدو أنها لم تكن قراءة متأنية فاحصة بالقدر الذي تستحقه، إذ إنني عندما عدت وتلقيت بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر مجموعته القصصية: «بيت من لحم» وقد أهداني إياها ربما صديقي الأديب القاص اللامع الأستاذ عبدالله باخشوين.. أصابني ذات الذهول الذي أصاب الدكتور يوسف إدريس نفسه عندما قرأ قصة «الذبابة» لزميله الدكتور صلاح حافظ ولم يصدق أن طبيباً مثله يمكن أن يكتب قصة بهذه الروعة.

إن كلمة رائعة هي وصف شديد التواضع لمجموعة «بيت من لحم»، فهي أروع.. وهي أجمل.. وهي أمتع، وكان حقاً أن يبوئه النقاد مكانة «مهندس القصة القصيرة» في العالم العربي.. وكما بوأ العالم الغربي من قبل زميله الطبيب والأديب الروائي الدكتور «أنطوان تشيكوف» مكانة مهندس القصة القصيرة في العالم الغربي.

* * *

مع تواصل عطاءات الدكتور يوسف إدريس القصصية قصيرها وطويلها.. كان اهتمامه في نهايات الخمسينات من القرن الماضي بـ «المسرح» بدأ يتسع ويقلقه ويمرضه، فقد كان يريد مسرحاً آخر غير الذي تعارفت عليه مصر والعالم العربي.. نقلاً عن أوروبا، فمآسي يوسف وهبي وجورج أبيض.. ومسرحيات الريحاني وعلي الكسار الساخرة الضاحكة والعميقة في لمسها لجروح المجتمع ومشاكله.. كلها ذات نمط غربي أوروبي واحد: مسرح وستارة وجمهور وإضاءة وفصل أول وثان وثالث، وحتى يعثر

على ذلك المسرح الجديد والمغاير في ثقافته وتركيبته.. حوَّل قصته «جمهورية فرحات» إلى مسرحية من فصل واحد.. فنجحت عند تمثيلها نجاحاً باهراً لم يكن يتخيله.. الأمر الذي حفزه على كتابة مسرحيته الثانية والهامة ذات الفصل الواحد أيضاً: «ملك القطن» التي حملها كل رؤاه الفكرية نحو العدل الاجتماعي، منطلقاً من الصراع حول الأرض الذي كان يدور بين «السنباطي» مالكها و«قمحاوي» أجيرها، والتي أعجبت كل من شاهدها على المسرح.. ليستقبلها الناقد الأدبي الكبير الدكتور علي الراعي مفتوناً بها بعد أن قرأها نصاً وشاهدها عملاً على المسرح.. قائلاً: «لقد بدأ عهد الفلاحين في المسرح.. بظهور ملك القطن».. ليدفعه ذلك إلى تقديم مسرحيته الثالثة: «اللحظة الحرجة».. التي عانت كما عانى الدكتور يوسف إدريس من قسوة الرقيب، الذي لم يعجبه ما تضمنته من آراء مختلفة عن آرائه..!!

ومع عدم اهتدائه إلى مسرح مصري عربي مختلف.. إلا أنه ظل يواصل كتاباته للمسرحيات ذات الفصل الواحد فكتب مسرحية «الجنس الثالث».. فمسرحية «المخططين».. ثم مسرحيته الشائقة «البهلوان» التي كانت تتحدث عن حياة وأفعال أحد رؤساء تحرير الصحف المصرية في السبعينات، ليتوقف عن الكتابة بعد ذلك، ويستغرق في قراءاته بحثاً عن ذلك «المسرح الجديد» أو حالة «التمسرح» التي اعتقد بوجودها في المجتمع العربي.. وبين أناس نراهم ونسمعهم وهم ينتقدون المجتمع بصورة تجمع بين الضحك والجد دون أن يكون لهم تطلع بأن يكونوا «ممثلين» في السينما

أو على خشبة المسرح تُجرى معهم اللقاءات الصحفية، وتُلتقط لهم الصور وهم يتحدثون عن ذكرياتهم.. ونجاحاتهم أو فشلهم أو حبهم الأول، فكان أن قادته قراءاته وتأملاته.. إلى استرجاع حالة «القرقوز المصري». خفيف الدم والذكي بالفطرة والحاد في صوته ولسانه، والذي عادة ما يشتبك مع حماته الظالمة.. ثم ينتهي الاشتباك بينهما إلى (علقة) ساخنة عادلة تتلقاها تلك الحماة المخرِّبة، ثم إلى «خيال الظل».. ثم إلى «الدائرة» التي سرعان ما كانت تنشأ وسط المقاهي ليدخلها متحدثون ساخرون ناقدون، يُضحكون الناس وهم ينتقدونهم، وينتقدونهم وهم يضحكونهم.. ليصل بعد ذلك إلى فكرة «الفرافير» والفرفور «الذي لا يكف لسانه عن سلخ الأوضاع والآخرين والأصدقاء والأعداء ونفسه وكل شيء»!! لتقوم في ذهنه فكرة مسرح الفرافير.. ومسرحية «الفرافير».. التي يشارك فيها الجمهور.. والتي لا يوجد فاصل بين الممثلين والجمهور.. ولا ستارة.. ولا مسرح منفصل.. بل «فرفور» يتحدث ويضحك ويُهرج، وينتقد، ويتأوه. يعارضه أو يؤيده جمهور المتفرجين الذين ينتقلون إلى «الدائرة» أو خشبة المسرح..

لقد قدمت «الفرافير» في عام ١٩٦٤م.. وهي بحق أكبر من مسرحية.. إنها إحياء لفكرة.. ودفعها لمقدمة الصفوف.. وقد نبضت بالعديد من الأفكار والرؤى والأحلام..

وعندما مثلت عشرات المرات بنجاح ساحق... باختلاف مواضيعها.. التي تتغير بتغير.. المشاركين فيها، وعندما قلّب

الدكتور يوسف إدريس الطبعة السابعة لنصها الأول.. أدرك أن فكرة «مسرح الفرافير» التي سهر ونام عليها لسنوات قد أخذت تتجسد بين الناس، وهو ما ملأ قلبه سعادة ونشوة.

* * *

لم تشأ الظروف أن ألتقي بالدكتور يوسف إدريس في القاهرة رغم التقارب الفكري الذي يجمعنا، والرسائل التي كان ينقلها بيننا مندوب المجلة التي كنت أرأس تحريرها.. ولكن عندما دعي لحضور إحدى مهرجانات (الجنادرية) في الثمانينات من القرن الماضي.. وبعد أن شارك مشاركة محسوبة في فعالياتها وعاد إلى جدة في طريق عودته إلى القاهرة.. حرصت على لقائه والاستماع إليه والسياحة معه حول الهموم العربية.. لينساب الحوار بيننا حميماً دافئاً وصولاً إلى قضايا الساعة والتي كان من أبرزها آنذاك: آثار التوقيع على «معاهدة كامب ديڤيد» التي رفضها أكثرية العرب وإلى حد القطيعة المؤسفة مع مصر، والتي كان هو أحد معارضيها.. ليروي لي ساخراً حكاية ذلك «الحلاّق المصري» الذي كان يملك صالوناً للحلاقة في العاصمة الليبية «طرابلس»، والذي صادف أن ذهب إليه الدكتور يوسف للحلاقة عنده.. لتجره الدردشة مع الحلاق من شأن لآخر.. وكما هي العادة.. ليكتشف أن ذلك الحلاق البسيط قد وقع في فخ الدعاية الأمريكية الإسرائيلية المصرية عن الرخاء الذي سيهبط على مصر بالأطنان بعد توقيع الاتفاقية، وأنه قد أخذ يعد نفسه لبيع صالونه والعودة سريعاً إلى مصر حتى يكون في مقدمة أولئك الذين سينالون نصيبهم من

ذلك الرخاء والخير العميم..!! ثم توقف.. ليطلق ضحكة رنانة، وهو يقول: لم أشمت بأحد في حياتي.. كشماتتي في ذلك «الحلاق».. الذي هرول عائداً فلم يجد شيئاً من أطنان ذلك الخير..!!

لقد أمتعتني أحاديثه.. بمثل ما كانت وماتزل تمتعني قصصه القصيرة المذهلة التي مازلت أعاود قراءتها بين الحين والآخر... فهو بحق أحد عبقريات مصر النادرة فيما كتب من قصص ومسرحيات ومقالات. فقد كان حبر قلمه.. من دموع الناس، وكان مداده من همومهم وقضاياهم ومشاكل حياتهم. كان كما قال «جبران»: «يكتب بدماء القلب».

* * *

وعندما شاءت الصدف السعيدة.. أن أكون من بين مشاهدي حفل توزيع «جوائز الدولة التقديرية» في الآداب والعلوم والفنون الذي كان منقولاً على شاشة الفضائية المصرية.. وجاء الإعلان عن منح الدكتور يوسف إدريس لـ «جائزة الدولة التقديرية» في الآداب عن عام ١٩٩١م.. كنت أقف وسط دهشة عائلتي لأصفق مهللاً سعيداً نشواناً بحصوله عليها..

ولم أكن أعلم كما لم يكن أحد يعلم ساعتها.. بأن خلف تلك اللحظة المضيئة الساطعة في حياة الدكتور يوسف إدريس.. تختبئ لحظة إظلام دامس مفاجئة.. إلا عندما تلقت الإذاعات والتلفزيونات والصحف بعد شهور قليلة النبأ الصاعق بوفاته المفاجئة عن أربعة وستين عاماً.. لتستقبل مياه النيل الجارية دموع الملايين من محبيه وعشاقه..

الحلقة الرابعة عشرة

طاهر الزمخشري

ربما كان الأستاذ الأديب والشاعر طاهر زمخشري ظريف ظرفاء عصره.. هو أول (فنان شامل) تعرفه بلادنا في القرن العشرين، فقد كان صحفياً ترأس تحرير صحيفة «البلاد السعودية» بعد أن ترك رئاستها عميد رؤساء تحريرها الأستاذ عبدالله عريف، وكان كاتباً يكتب المقالة والقصة والرواية.. وإذاعياً يخطط للإذاعة ويسهم في إدارتها، ويكتب الكثير من برامجها في نشئتها بل ويقدم بعضها، وشاعراً غنائياً تغنى بأغنياته كبار المطربين والمطربات في الداخل والخارج بل ولحن بعضاً من تلك الأغنيات وأسهم في تلحين البعض الآخر منها.. وشاعراً رومانسياً فياضاً سلساً عذباً لم يجاره أحد في حجم إنتاجه الشعري سوى شاعر مكة الكبير السيد محمد حسن فقي، الذي مات قبيل أعوام قليلة عن عشر مجلدات.. تمثل أعماله الشعرية الكاملة.

وقد شغل الأستاذ طاهر الناس بهذا التعدد الفريد والجميل والمثير في «نسيج شخصيته».. بشعره، وظُرفه وأغنياته، وسفاراته الثقافية للقاهرة وتونس وبيروت، وبمآسيه المتلاحقة.. التي ما كان يتغلب على إحداها إلا وتلاحقه الأخرى.. حتى بدا لي - أحياناً -

كما لو أن شعره الذي توازعته دواوينه العشرون ليس إلا قصيدة واحدة.. «ملحمة واحدة».. تروي مآسيه مع الأيام وصروف الدهر وتباريح الليالي، وأن ما خرج عن تلك الملحمة من قصائد.. بدت لي كما لو أنها استراحات خضراء وسط لهيب أيامه.. يفيق فيها لنفسه ولدوره ولحضوره كشاعر يعيش حياة وأحداث أمته.

ولعل رائعته التي جاءت بعنوان«حطام قيثارة».. في واحد من أخريات دواوينه وهو «الشراع الرفاف».. تلخص موقفه الإجمالي من مآسيه الطويلة المتعاقبة عندما قال:

مهما أراق دمي في الشجو إعصار
لسوف تبلغ بي للقصد أقدارُ
وقد قطعت على الصبر الجميل مدى
فلم يطل في الطريق الوعر مشوار
ضاع الشباب، ولم أدرك لبانته
ومن عزائمه في النفس تيار
به أهيم على الدنيا وفي كبدي
حرائق نارها للناس أشعار

.. إلى أن قال:

ولي فؤاد على الأشجان خفقته
تشدو، وترجّع بالأصداء أسحار
إذا الزمان تحداه وطاوله
فالحد من صبره ماضٍ وبتارُ

يلقى القضاءَ ولا يخشى مضاربه
لأنها في رقاب الخلق أقدار
تجري الليالي بها في ظهر مركبة
لها شراعان إقبال وإدبار
فما تبسم ميسور لغبطته
إلا وداهمه بالضر إعسار

.. إلى أن يحدد موقفه من النوائب قائلاً:

يا مترع الكأس لي صابا يمزقني
زدني تجدني وفي جنبيَّ جبار
عانى وكابد ما باحت سرائره
وللواعج في جنبيه إعصار
قطع إذا ما شئت من أوصاله مزقاً
فإنها للهوى الصدّاح مزمار

قبيل الحرب العالمية الأولى وربما في سنة قيامها عام ١٩١٤م ولد الأستاذ طاهر زمخشري.. والتحق بمدرسة الفلاح بمكة، وبعد أن أنهى دراسته بها.. لم يتمكن من مواصلة تعليمه الجامعي كبقية المتفوقين من زملائه ممن كانت تبتعثهم مدارس الفلاح على نفقتها إلى الهند.. لقلته من جانب، ولمسؤوليته تجاه والده ووالدته وبقية أسرته من جانب آخر.. فكانت تلك أول الغصص في حياته، التي حملته للخروج بحثاً عن عمل يعيش منه وينفق به على الأسرة التي لم يكن لها سواه، فلم يجد عملاً في العاصمة مكة آنذاك.. ولكنه

وجد عملاً في المدينة المنورة.. فسافر إليها ليعمل مدرساً بـ «دار الأيتام»، وهناك التقى بالأستاذ «الزيدان» معلم الصبيان.. الفخور بمهنته، فكان من عجيب الصدف.. أن يلمع الشابان فيما بعد.. ويصبحا علمان من أعلام التاريخ والأدب والشعر في بلادنا. وكما قدم «الزيدان» إلى مكة للعمل سكرتيراً لدى شيخ مشايخ الجاوة.. عاد الزمخشري إليها للعمل في مطبعة الحكومة التي كانت تتولى إصدار أولى الصحف السعودية: صحيفة «أم القرى».. في الوقت الذي كان عصفور الشعر قد بدأ تغريده على استحياء في داخله، ليختطفه الشيخ عباس قطان أشهر وأول رؤساء بلدية العاصمة.. ليعمل سكرتيراً له وللبلدية، ثم ليُنتدب إلى بلدية الرياض.. في معية أول رؤساء بلدياتها الشيخ محمود قطان، ولكنه لم يبق بها إلا لشهور.. ليعود منها إلى العمل في الإدارة العامة للجمارك بوزارة المالية في مكة، ثم ليجد نفسه بعد ذلك الترحال الوظيفي ولأول مرة في حياته ككاتب وأديب وشاعر.. مع تأسيس «الإذاعة السعودية» الأولى في «جبل هندي».. ليعمل في أي شيء وفي كل شيء إلى جوار مديريها الأولين: «محمد الشورى» و«إبراهيم أمين فودة».. ولتبدأ مواهبه الإذاعية والإعلامية بصورة عامة في الظهور والإعلان عن نفسها عبر تلك السنوات، في وقت كان «الشاعر» فيه قد أخذ ينتشر ويلمع.. بل ويتقدم الصفوف لاستقبال وتحية عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ورئيس اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.. عند قدومه للمملكة (عام ١٩٥٤م)، وزيارته للحرمين الشريفين.. ليقول له في مستهل قصيدته:

تمدُّ الدراري بالسنى حين تسفر
وتبهر أرباب النهى حين تجهرُ
وتطلع «بالأسفار» في كل مشرق
صحائفها تزهو بما أنت تنشر
ففي كل لون من بيانك روضة
بدائعها فيءٌ ظليل معطر

.. فكان أبرز ما حفظه له تاريخ تلك المرحلة (الإذاعية)، هو برنامجه للأطفال.. الشائق والجميل، الذي عرفه المستمعون عند ظهوره في مكة واستمراره.. ولمعانه في جدة.. باسم «بابا طاهر»، وكأنه الموازي لأشهر برامج الأطفال العربية من القاهرة آنذاك: «بابا شارو».. والذي كان يقدمه الإذاعي المصري اللامع الأستاذ أحمد محمد محمود شعبان.

لقد كان.. من طرائف المصادفات حقاً.. أن ينسى المستمعون هنا وهناك اسْميّ الإعلاميين الكبيرين.. فلا يذكرونهما إلا بـ «بابا شارو» هناك.. وبـ «بابا طاهر» هنا، ليصبح هذا الاسم فيما بعد.. عنواناً للمحبة والحنان، وللبهجة والظرف الذي كان يحملهم «بابا طاهر» في قلبه ويسير بهم بين الناس، ولكل الناس.. رغم ما غصت به حياته من قبل، وما ستغُص به من بعد.. من هموم وأحزان وويلات.

* * *

ربما كان مرض والدته، وربما كان حزنه العاصف عليها.. وما كان يؤول إليه حالها، وربما كان فعل الواشين والحاسدين الذين تكاثروا حوله.. أو كل ذلك معاً.. هو الذي جعله يصعِّد من خلافه مع «الإذاعة».. لا ليغادرها فحسب.. بل ويغادر الوطن كله على أول طائرة إلى القاهرة: ليصور ذلك الذي اضطُر إليه في قصيدته «عذارى النيل» قائلاً:

ركبت متون الجو لا عن لذاذة
ولكن فراراً من لظى متراكب
لظًى، والشقاء المر يوري زناده
أغالبه، والعسف لي منه غالبي
تلاحقني الويلاتُ، تكوي أضلعي
وما هي إلا ثلة من أقاربي

.. وفي القاهرة انكب على علاج والدته.. الذي رأى الأطباء ضرورة دخولها إلى مستشفى «المجاذيب». فكان دخولها إلى ذلك المستشفى عناءاً.. وكان علاجها عذاباً، فكانت رؤيتها حرقة.. كما كان الابتعاد عنها جحيماً.. فكان العذاب يحاصره بلهيبه، وجمره أينما كان وحيثما ذهب.. ليتخلل ذلك العذاب معظم قصائده التي كتبها في تلك الفترة.. والتي قال في واحدة منها:

حنانيك أمي لا عقوقٌ ولا نكرُ
ولكنها الآلام في قبضتي سِفر
قرأت به الآياتِ تفري حشاشتي
ويعيش بها طرفي ويُطوى بها العمرُ

فمن مقلتي الدمع السخين سحائباً
على الخد يهميها فؤاد هو البحر
براكينُ من نار يؤججها الأسى
وثوراتُ ملتاعٍ يدوّي بها الصدر
حنانيك أمي، فالهموم تلاحقت
ولولا البلاء المر ما مُيِّز الفكر
أهاض جناحي مذ أصبت بلوثة
فضاع بها منك التودد والبِرُ
وخلاّك رهن القيد تهذين ليس لي
سوى أنَّة المذبوح لاح له القبر
وما القبر عندي غير سجنك ينطوي
عليك، كما يُطوى بأحشئنا السِّرُّ

.. إلى أن قال في ختامها:

وإن كان فن الطب قصَّر عامداً
إلى الله أشكوه . له النهي والأمر

.. فكان الله بها وبه رحيماً.. عندما امتدت يد القدر إليها لتنهي عذابها وعذابه، فيواريها القبر.. ويبدأ في تحسس طريقه للخروج من لهيب تلك الأحزان.. والعودة إلى القاهرة بناسها وحياتها ونجومها في الأدب والسياسة والإعلام والفن ليكتب قصيدته الجميلة «بين الحرم والهرم» التي لحنها الموسيقار الأستاذ محمود

الشريف وشدت بها من إذاعة صوت العرب المطربة العربية السورية «نازك»، والتي يقول فيها:

الروابي الخضر في سفح الهرم
ومجالي الوُرق عند الملتزم
والشذا المعطار من وادي الحرم
والصوت الساحر من عذب النغم
تتناجى طرباً في فجر عيد
فيرد الكون من عذب النشيد
ومغاني النيل حول الحرم
وأسود البيد عند الهرم

بل ويكتب بعدها وقبلها عشرات القصائد عن مصر وأدبائها وفنانيها وأفلامها، وعن النيل وضفافه وفيضانه، وعن تونس وثائرته الشابة ابنة الثامنة عشر عاماً أو جان دارك العرب «ملك بشخرون» التي فقدت حياتها.. من أجل حرية تونس، وعن فلسطين والجامعة وعن السودان وأحلام وحدة واديه.. وهو يقول:

فمصر لحن له السودان رجع صدىً
وأنتمو في دَرَاك المجد سِيَّانِ
وأنتمو إخوة والنيل خير أب
وكم بدافقه ريٌّ لظمآنِ
لكم بشطيه أفياء معطرة
ومن شذا عطره أفراح نشوانِ

فإن صدحتُ بناديكم فلا عجب
أني طروب وهذا الصفو أشجاني
كم لي بمكة ألحان مرجعة
وعند واديكمو أصداء ألحاني
ولي بسفح «النقا» أيكٌ نعِمتُ به
لكنني في هواكم مدنف فاني

.. لقد شكلت تلك القصائد ديوانه الخامس «أنفاس الربيع» الذي عاد به بعد تلك الغيبة، والذي لم ينس وهو يكتبه أن يهديه إلى «مؤسس المدارس الفلاحية» الحاج محمد علي زينل: عرفاناً بفضله وتقديراً لجهوده.. إذ لولا «مدرسة الفلاح» لما كان هذا الأديب الشاعر الذي اسمه طاهر زمخشري.. ولولاها لما كان هذا الإذاعي الإعلامي الذي عرف بين الناس بـ «بابا طاهر».

* * *

عاد إلى القاهرة ثانية أو ثالثة أو عاشرة.. فقد أحبها وأحب نيلها وحياتها وتلك الأرض الرحبة التي توفرها لمواهبه المتعددة كاتباً وشاعراً وفناناً.. حتى قيل عنه بأنه قطرة تذوب في كأس مصر، وهو ما سيقال عنه بعد أن أخذ يتردد على «تونس» في السبعينات وما بعدها من القرن الماضي.. بينما رأى فيه الأشقاء في مصر سفيراً للمثقفين السعوديين بينهم، لكن هذه الحياة القلقة اللامعة.. كان يتربص بها قدر ويلاته وأحزانه.. ليرمي بسهامه - هذه المرة - صدر زوجته وحبيبته وأم بناته الثلاث وابنه

الوحيد «فؤاد».. فتصاب بداء «السل» الذي كان في تلك الأيام داءً عضالاً.. ليبدأ ركضه في سبيل علاجها حائراً خائفاً من عودة تلك الليالي السوداء التي أمضاها إلى جوار والدته حتى فارقت الحياة، فلم يبق له سواها.. فهي أليفة روحه، وهي رفيقة دربه، وهي التي قطعت معه صخور طريق بداياته حتى أصبح هذا الأديب اللامع.. وهذا الشاعر الفنان.. وهذا الظريف الذي تتخاطفه المجالس، فكان يبكيها ويبكي نفسه بقلبه ودمعه وقلمه.. كما في قصيدته «صبراً»:

يقولون لي صبراً فقلت: وهل لها
سوى ذاك إن الصبر بالحر أخلقُ
عبرتُ خضماً من مصائب جُمِّعَتْ
ولي من جميل الصبر يا نفس زورق
وما بحت بالشكوى لأن عزائمي
تخوض المنايا لا تهاب وتَفْرقُ

وعندما اشتدت عليها العلة وشعر بأن الموت أخذ يقترب منها كان يواسيها بقصيدة «لا تخافي».. وهو يقول لها:

ليس لي بعدك في الدنيا بقاء
فاسلمي أو نسلم الروح سواءِ
لا تخافي صولة الداء فما
خفت يوماً من تصاريف القضاءِ
فهي أثباج وبالصبر لنا
سفن تمخرها دون عناء

.. إلا أنها ماتت في النهاية، لتتركه وحيداً على جمر أحزانه من جديد.. فيصيح قائلاً:

غُلبت على أمري وأصبحتُ ليس لي
سـواك، وحتى أنـتِ ضمتكِ أكفانُ
وثـارت شجوني دون أن ألقى آسياً
وقد كنت لي الآسـي وجدّي وسنانُ
تـذوبـين في كفـي والـسـن ضاحك
وتهصرك الأدواء والصوت مرنانُ
تـذويـن لا أدري وفـيك ابتسامة
يشع سناها وهـي للموت عنوانُ
فـأهـفـو إلـيـهـا، والحـنـان يهـزني
وأرجـع عنها والخوالـج بركـانُ
وأسـأل نفسي: ما دهاها فلم تعد
تكفكف دمـعـي، والمدامــع طوفانُ
وأسأل من حولي: أنامت فقيل لي:
نـعم إنـهـا نـامـت وأنــك يـقظان
فقلت: إذن سـوّوا عليها غطاءها
ففي صدرها من وقدة الداء نيرانُ

ثم يذهب بعد أن وسدها القبر إلى بناته أو «شاربات الدمع» قائلاً:

يـا بـنـاتـي وحـسـبـكـن شـقـاءً

أنـنـي بـيـنـكـن أبـكـي شـبـابـي

عـجـبـاً لـلـزمـان يـنـحـر آمـا

لي، ويحتث خَطْـوَهُ في طِـلابي

في ليالي تلك الرحلة إلى القاهرة.. وقبل أن يشتد المرض على زوجته.. جاءت أيام الحج لتذكرهما بساعاته وأيامه فيشده الحنين.. إلى البيت والركن والمقام.. فيكتب رائعته «إلى المروتين» التي لحنها وتغنى بها الموسيقار الأستاذ طارق عبدالحكيم رحمه الله، والتي أحسب أنه يتوجب إعادة تسجيلها الآن بأحد الأصوات الغنائية الشابة خاصة وأنه قد مضى عليها قرابة نصف قرن من الزمان.. حتى غدت تراثاً فنياً يصعب أن يتكرر في لحنها.. كما في كلماتها التي ماتزال في ذاكرة الأجيال والزمخشري يقول:

«أهـيـمُ بـروحـي عـلـى الـرابـيـة

وعـنـد الـمـطـاف وفي الـمـروتـيـن

وأهـفـو إلى ذِكَـرٍ غـالـيـةٍ

لدى البيت والخيف والأخشبين

فـيـهـدر دمـعـي بـأمـاقـيـه

ويـجـري لظاهـا عـلى الـوجـنـتين

ويـصـرخ شـوقـي بـأعـمـاقـيـه

فـأرسـل مـن مـقـلـتـي دمـعـتـين

* * *

في أوائل الخمسينات الميلادية تسلم الشيخ عبدالله بلخير المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر.. فكان أول شيء سأل عنه هو: أين بابا طاهر..؟ ليستدعيه عن طريق السفارة السعودية بالقاهرة.. فيأتي.. ويعود إلى سابق مكانه ومكانته ليعمل مع نجم الإذاعة الصاعد آنذاك الأستاذ «عباس غزاوي».. فيحققان تلك النجاحات الإذاعية التي لم تسقط من ذاكرة الأجيال.. وليعاود بابا طاهر اتصاله بالفنانين.. والفنانات.. ويبدأ مرحلة جديدة من صداقتهم ورعايتهم والحنو عليهم والكتابة لهم.. حتى بلغت أغانيه لهم ثمانية عشر أغنية بين الفصحى والعامية، فلم يبق مطرب من مطربي ومطربات المملكة إلا وغنى من كلماته.. مع تلك الامتدادات العربية إلى «لبنان» و«تونس» التي حلت مع السبعينات محل القاهرة، فقد أحبه الأشقاء التوانسة كما أحبهم.. واختاروه كما اختارهم، ليكتب من تونس وعنها مجموعته الخضراء التي ضمت دواوينه الست الأخيرة: الأفق الأخضر، والشراع الرفاف، ومعازف الأشجان، وحقيبة الذكريات، ونافذة على القمر، وعبر الذكريات.. وليمنحه الزعيم التونسي الرئيس الحبيب بورقيبة «وسام الثقافة التونسي» عام ١٩٧٤م..

وعندما أنشأ الملك فهد جائزة الدولة التقديرية للآداب.. في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، كان الأستاذ طاهر زمخشري أو بابا طاهر.. من بين ثلاثي الدفعة الثانية من الأدباء الذين تم اختيارهم لنيلها وهم الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار والأمير عبدالله الفيصل، والأستاذ طاهر زمخشري.. الذي تم استدعاءه

من تونس لحضور حفل استلام الجائزة في الرياض، فكان جميلاً.. من قائد الطائرة التي عادت به من تونس.. أن يقيم حفلاً تكريمياً له على متن السحاب.. حيث ألقيت الكلمات من الطيار ومساعده.. وقُدمت له تورتة الجائزة التي شاركه فيها ركاب الطائرة جميعاً، ليقف بعد أيام في قاعة المؤتمرات بفندق «إنتركونتننتال» الرياض أمام الملك فهد.. في ليلة إعلان الجوائز وتسليمها.. وقد اقتعد كرسيه المتحرك بعد أن أضعفه مرض الفشل الكلوي الذي كان ختام ويلاته في الحياة ومعها منيباً عنه ابنه الدكتور فؤاد لإلقاء كلمته في ذلك الاحتفال الأدبي المهيب.. الذي كانت تنقله ميكرفونات الإذاعة وعدسات التلفزيون مباشرة إلى المشاهدين في أرجاء الوطن، فلم ينس في تلك الكلمة ما عرف وحفظ عنه من قفشات وسخريات و«خفة ظل».. ليقول عن نفسه في مطلعها: «إنني لست إلا كومة من الفحم سوداء، تلبس ثياباً بيضاء، وتقول شعراً قصائده حمراء وخضراء وصفراء».. لتضج القاعة بالتصفيق تحية وتقديراً وإكباراً له.

* * *

لقد كان رائعاً أن يحتفل الأدباء والمثقفون في إثنينية الشيخ عبدالمقصود خوجة.. بحصوله على الجائزة مساء السادس عشر من شهر شعبان من عام ١٤٠٥هـ الموافق للسادس من شهر مايو من عام ١٩٨٥م.. فكان لا يداني ذلك الاحتفال بقيمته وجماله وشخوص المتحدثين فيه من أعلام الفكر والأدب والشعر إلا احتفال الأسرة الفنية بـ «عميدها»، الذي اشترك في إعداده وإخراجه

ونفقته الفنانون الذين تغنوا بكلماته.. ليعيدوها على أسماعه في تلك الليلة الجميلة والفريدة من ليالي العمر والوفاء.

لقد أعطى الأستاذ طاهر زمخشري.. الحياة، كل حبه.. كل إخلاصه.. كل وفائه، فأعطاه الناس كل الحب.. وكل الإخلاص.. وكل الوفاء، ليبقى في تاريخ الحياة والناس.. صفحة لا تنسى.. وشمعة لا تنطفئ.

الحلقة الخامسة عشرة

فرانسواز ساجان

من الصعب أن تكون «قمة» أدبية بين يوم وليلة.. في بلد كفرنسا، المزدحم بالقمم الساطعة الباهرة في الشعر.. وفي الرواية.. وفي المسرح.. بل وفي الفلسفة أيضاً، لكن «فرانسواز ساجان».. الأديبة الشابة: ابنة الثامنة عشر عاماً.. استطاعت أن تقتحم القلاع وأن تحقق الصعب فتتسلق أسوار «نوتردام»، وجدار «اللوڤر»، وكتل الحديد التي قام عليها «برج إيڤيل» الشهير في وسط باريس.. لتغدو في مطلع الستينات الميلادية الماضية نجمة في سماء الرواية الفرنسية برائعتها الأولى: «صباح الخير.. أيتها الأحزان».. فتقف بها.. جنباً إلى جنب مع روايتي «الغريب» لكامو و«الغثيان» لسارتر اللتان كانتا في تلك المرحلة من ستينات القرن الماضي أجمل وأمتع وأفخر ما على مائدة الرواية في فرنسا، فإذا كان المثقفون الفرنسيون من قراء «الليموند» و«النوڤيل أبسيرفيتوار».. لم يفاجأوا بكاتبتها التي ولدت في عام ١٩٣٥م، ونشرت روايتها لأول مرة في عام ١٩٥٣م، فإن سواد مثقفي العالم العربي.. قد صعقتهم المفاجأتين معاً: «الكاتبة» بشبابها الغض.. و«الرواية» بجمالها الأخاذ، عندما

تُرجمت إلى العربية، ووضعت في المكتبات وأكشاك بيع الصحف في عواصم وكبريات مدن العالم العربي المتابعة لحركتي الإصدارات والنشر في أوروبا والأمريكتين والاتحاد السوفييتي آنذاك..

* * *

ففي صباح يوم من أيام سبتمبر من عام ١٩٦٠م.. كانت الرواية قد وصلت إلى أكشاك بيع الصحف في شوارع وميادين «الإسكندرية»، وقد سبق وصولها حشد من الأخبار والتعليقات والصور في جميع الصحف والمجلات.. عن الرواية وعن كاتبتها الشابة الجميلة التي تأكل قليلاً، وتسهر كثيراً، وتقود عربتها حافية القدمين في شوارع باريس..!! ليتلقفها أبناء الإسكندرية والمقيمون فيها من المبتعثين إلى جامعتها، وكلياتها العسكرية المختلفة من شتى أنحاء الوطن العربي.. من أمثالنا.

ورغم أن تلك الترجمة العربية للرواية.. لم تصدر في بلد يعاني من حالة جوع روائية أو قحط روائي، بل في بلد يعيش ترفاً ثقافياً: روائياً شعرياً فنياً فريداً.. لم تعرفه حياة المصريين من قبل ولم يتكرر فيما بعد وسط أساطين من كتاب الرواية والقصة والمسرح من أمثال: نجيب محفوظ ومحمد عبدالحليم عبدالله وإحسان عبدالقدوس في الرواية، ويوسف إدريس ويوسف غراب وإبراهيم الورداني في القصة، وتوفيق الحكيم ونعمان عاشور وسعد الدين وهبه في المسرح.. الذين كانت تمتلئ مكتبات مصر بروائع إنتاجهم الروائي والقصصي والمسرحي، إلا أن الإقبال على ترجمة رواية فرانسواز ساجان «صباح الخير أيتها الأحزان»..

كان كاسحاً.. وأسطورياً، مما اضطر الدار التي تولت طباعة ترجمتها.. إلى إعادة طباعتها في طبعة شعبية رخيصة.. حتى تتيحها لغير القادرين من آلاف القراء الذين كانوا يطلبونها، وقد كنت منهم.. بعد أن فقدت نسختي الأولى من الرواية بسبب مبدأ الإعارة الدائم والظالم..!

لم يكن عنوان الرواية الأخاذ «صباح الخير أيتها الأحزان»، ولا حداثة سن الكاتبة التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين ربيعاً.. هما عنصرا الجذب الوحيدين فيها، ولكن موضوعها المعروف والمألوف.. الذي لم يلتقطه أحد من قبل بتلك الصورة الدافئة الحادة الحزينة بمثل ما فعلت «فرانسواز ساجان».. هو سر أسرار عناصر الجذب في تلك الرواية، الذي تكامل مع العنصرين السابقين.. ليجعل من الرواية: حدث أحداث فرنسا الأدبية في عام صدورها.. ومن صاحبتها: عَلماً جديداً يضاف إلى أعلام فرنسا في سماء الإبداع.

فقد كتبت «ساجان» قصة حب من نوع آخر. قصة حب فتاة لـ«أبيها» الأربعيني الذي انفصل عن أمها.. فتولى هو تربيتها.. والعناية بها.. وكان لها الأب والأم والمعلم معاً، فهو الذي يعد لها الطعام.. وهو الذي يعينها على ارتداء ملابسها.. ثم يصحبها إلى المدرسة.. ليكون في انتظارها عند خروجها منها، فيعودان معاً.. ليتناولا عشاءهما معاً.. وليذاكر لها دروسها قبل النوم، ثم يصحبها إلى سريرها فيسدل ستائر غرفة نومها.. ثم يحكم عليها غطاءها ويتمنى لها «ليلة سعيدة».. وهكذا دواليك..

لقد كان والدها يريد بتكريس حياته لها على هذا النحو.. أن يعوضها عن فقدها لأمها وحنانها، ومرت الأيام.. وكبرت الفتاة، ليصبح والدها.. هو صديقها الأول.. وربما الأوحد.. فهما يذهبان إلى دور السينما والمسارح معاً.. ويتناولان عشاءهما في مطاعم باريس معاً.. ويتبادلان الضحكات والتعليقات والقفشات معاً. لقد أصبحت في مطالع صباها.. موضع فخره، وأصبح هو كل حياتها..

كان طبيعياً أن تأتي لحظة الفراق بين زمن وزمن.. فقد شعر الأب وقبل أن يبلغ الخمسين بحاجته إلى زوجة بعد أن أدى واجبه الأبوي كاملاً نحو «ابنته» التي كان لا يحب أحداً بمثل حبه لها، ولكن ابنته قاومت.. وأبت أن تشاركها امرأة أخرى فيه وكأنها نسيت أنها ابنته، حتى بدا من سياق الرواية وكأن حبها له وتعلقها به.. قد أخذها إلى منطقة شائكة متداخلة غير منطقة الأبوة والبنوة، وهو ما يتضح من استقبال الفتاة لأبيها.. بعد أن أمضى ليلته الأولى مع زوجته الجديدة التي حسم أمر زواجه بها.. وكيف كانت تشم فيه رائحة عطره المختلط برائحة تبغه وترى رباط عنقه الجميل المتدلي على صدره.. لتصيح مستسلمة وهي تحاول أن تخرج من غابة الحزن والدموع التي غشيتها ذلك الصباح: صباح الخير أيتها الأحزان.. مرحباً أيتها الكآبة والمرارات..

لقد قيل إن سبب نجاح الرواية.. هي أنها كانت قصة الأيام الأولى من حياة كاتبتها «فرانسواز ساجان»، وأنه لولا ذلك.. لما نجحت الرواية هذا النجاح الساحق الذي جعلها تتحول بعد شهور

إلى فيلم سينمائي من أنجح الأفلام السينمائية الفرنسية، ولكن الذي كان يدحض هذا الادعاء.. هو أن اسم الكاتبة لم يكن في الأساس فرانسواز ساجان.. بل كان «فرانسواز كواريز» على اسم أبيها الحقيقي رجل الصناعة الفرنسي المعروف، ولكن حاسة الفنان في شخصها.. جعلها تستبدل «كواريز» بـ «ساجان» وهو اسم لإحدى بطلات الروائي الفرنسي «مارسيل بروست».. الحائز على أعلى الجوائز الروائية الفرنسية، وهي جائزة «جونكور»، والمعجبة فرانسواز ساجان بأعماله وحياته.. التي انتهت قبل أن تولد فرانسواز ساجان نفسها بثلاثة عشر عاماً.

على أن فرانسواز ساجان أكدت عبقريتها الروائية.. من خلال روايتها الثانية «ابتسامة ما»، فرواياتها الأخر.. التي تتابعت طوال عقد الستينات وحتى بداية السبعينات كروايات: «هل تحبين براهمز» و«قصر في السويد» و«القهقهرى» و«السحب الرائعة».. والتي تحولت جميعها إلى أفلام سينمائية من أنجح الأفلام.

* * *

لقد كانت «فرانسواز ساجان» بحق.. لؤلؤة الرواية في فرنسا لما يزيد عن ربع قرن بكتاباتها «السهلة الدافقة والتي لا تقاوم».. كما قالت صحيفة «السن داي تايمز» اللندنية وهي تستقبل روايتها السادسة: «شمس دافئة فوق المياه الباردة» في عام ١٩٦٩م، أو كما قالت صحيفة «التايمز» البريطانية المحافظة.. وهي تستقبل ذات العمل «إن رشاقة أعمال هذه الروائية ماتزال فواحة.. وأنها أزلية»..!!

وإذا كان أحد النقاد المصريين قد قال عند ظهور رواية «لا أنام» للكاتب والروائي المصري الفذ الأستاذ إحسان عبد القدوس.. بأنها مأخوذة أو مقتبسة عن رواية فرانسواز ساجان «صباح الخير أيتها الأحزان»، فإن تاريخ الأستاذ إحسان الروائي العريض.. والذي كان يسطع بعشرات القصص والروايات التي تتقدمها دون شك رائعته «شيء في صدري».. قد دفع عنه ذلك الاتهام، كما أن التزامن المتقارب في صدور الروايتين.. قد أكد ذلك الاستبعاد، ليبقى نصف قولة ذلك الناقد الذي لم أعد أذكر اسمه... في إطارها الموضوعي.. بأنه (شهادة) اعتراف بمدى ما أحدثته رواية فرانسواز ساجان من تأثير بارز ليس بين جماهير القراء وحدهم.. بل وبين النقاد والأدباء أنفسهم ليس أكثر.

* * *

على أن فرانسواز ساجان.. ومع اقترابها من سن الخمسين كانت وكأنها قد تعبت من الركض بسيارتها وأقدامها الحافية وقلمها الدافئ الذي لا يقاوم.. فكان أن خفت حجم إبداعها.. حتى أوقفت عنها دار النشر - بخساسة لا مثيل لها - مرتبها الذي كانت تتقاضاه، والذي لم يكن ليزيد عن ستة آلاف فرنك فرنسي.. لكنها سرعان ما استردت ركضها لتعود مع بدايات التسعينات بروايتها الجديدة «حزن عابر» التي قرأت عنها ولم أقرأها.. والتي تروي معاناة رجل متقدم في السن أصيب بالسرطان، ونظراً لقربها آنذاك من الرئيس فرنسوا «ميتران» المعجب بقلمها ورواياتها، والذي بدأت تظهر عليه بوادر إصابته بالسرطان في دورته الرئاسية

الثانية.. فقد تردد أن قصة «الحزن العابر» هذه، إنما هي قصة الرئيس نفسه.. ومعاناته مع السرطان الذي ظل يقاومه ويتكتم قصته.. حتى غادر الحياة مأسوف عليه..

* * *

لقد رُشحت فرانسواز ساجان بعد هذه الرواية التي تتحدث فيها عن الـ «حزن العابر».. لأعلى جائزة روائية في فرنسا، وهي جائزة «جونكور».. التي تقدمها أكاديمية جونكور لأعلام الرواية وأساطينها في فرنسا.

ولست أدري.. إن كانت قد حصلت عليها أو لم تحصل، ولكن الذي أدريه أنها ماتت مأسوف عليها قبيل سبعة أعوام في الرابع والعشرين من سبتمبر من عام ٢٠٠٤م، وأنني بكيتها.. مع مئات الآلاف من قرائها في شتى بقاع الأرض. فقد كانت بحق الحصان الأسود في مضمار الرواية الفرنسية.. الذي أتى مؤخراً، وتجاوز الجميع.. وسط دهشة النظارة من الأدباء والنقاد.

نعم.. كانت فرانسواز ساجان بأعمالها الأدبية الخلابة التي أدارت الرؤوس (نجمة) الرواية الفرنسية في القرن العشرين.. وبكل المقاييس. إنها شيء أكثر بريقاً ولمعاناً من «جاكلين كينيدي» في البيت الأبيض.. و«جريس كيلي» في قصر إمارة موناكو، فقد كانت الجوهرة السوداء النادرة في جيد الرواية الفرنسية.

الحلقة السادسة عشرة

مسطفى المنفلوطي

أحمد الله، بأني لم أشارك بـ «النسيان».. الحديث عن أديب العربية «الأشهر» طوال حياته وما بعدها.. و«المظلوم» عند وفاته وهو في عنفوان رجولته.. في الثامنة والأربعين من عمره، فقد شاءت الأقدار.. أن يموت في ذات اليوم الذي تم فيه الاعتداء على حياة سعد باشا زغلول زعيم ثورة ١٩، وبطل دستور ٢٣ في الثاني عشر من يوليه من عام ١٩٢٤م بـ «الإسكندرية».. فينشغل المصريون بحادث الاعتداء على حياة سعد، وينسون وفاة «المنفلوطي» أحد أكبر القمم الرائدة في الأدب العربي..!!

لقد كرس ذلك المعنى أمير الشعراء شوقي.. وهو يؤبن المنفلوطي عندما قال:

اخــتــرت يــوم الــهــول يــومَ وداعِ
ونـعـاك في عـصـفِ الـريـاح الـنـاعي
هتفت النعاةُ ضحىً فأوصَدَ دونهم
جُـرحُ الـرئـيـس.. نـافـذَ الأسـمـاعِ
مـن مـات في فـزع القيامة لم يجدْ
قـدمـاً تُـشـيِّعُ أو حـفـاوة سـاعِي

ولد أديب العربية الرائد مصطفى لطفي المنفلوطي.. في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.. ومات في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، ولكن ريادته وتأثيره في (الكتابة) الأدبية العربية، وصيغها، وأساليبها امتد به إلى نهاية قرنه وإلى يومنا هذا.. وإلى ما لا أدريه من القرون والأجيال القادمة. فقد كان صاحب نقطة التحول الكبرى في حياة الكتابة النثرية.. فقد نقلها من الركاكة إلى الطلاقة، ومن السجع والمحسنات.. إلى السلاسة والعذوبة، ومن التقعر والتقليد والمحاكاة.. إلى دفق المشاعر ودفء الأحاسيس وتأملات العقل ورؤى القلب، فقد كانت الكتابة والأساليب الأدبية قبل المنفلوطي شيئاً.. وأصبحت بعده شيئاً آخر، فإذا كان كتابه الأول «النظرات».. وهو الذي حمل منهجه في التعديل والتطوير والتغيير، وكان رسوله إلى القراء والأدباء معاً، قد تعرض لنقد مخملي من طه حسين بمقاله «نظرات على النظرات» إلا أن طه حسين نفسه.. عاد بعد ثلاث سنوات من ظهور «النظرات» الذي صدر في عام ١٩١٠م ليقول: «وُهب السيد المنفلوطي ملكة خارقة تكاد تكون طبعاً وسليقة، وإني لأقرأ له القطعة الأدبية فيخيل إليَّ من سحرها أن نفحة من هوجو تهبُّ عليَّ، فلا أكاد أتم قراءتها.. حتى أهم بإعادتها المرة بعد الأخرى. وأحمد الله أن وُجد في هذا العصر من ينفخ في هذا الهيكل البالي.. روحاً جديدة ليحيا حياة رغد وهناء».. أما أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، وصاحب «مجلة الرسالة» الأشهر على مستوى القرن أحمد حسن الزيات، فقد قالا عنه.. ما هو أكثر وأجمل، ليقول عنه الأستاذ العقاد..

وهو الذي ما كان يعجبه العجب: «المنفلوطي.. لا يُعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الأدبية قبل مولده إلى ما بعد وفاته، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع أن يقرِّب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة، كما استطاع صاحب النظرات.. فالمنفلوطي قبل غيره هو الذي قارب بين الجمال والصحة على نسقه الصحيح في سهولة لفظ، ووضوح معنىً، وسلامة نغم..».

لقد كان دوره بحق شبيهاً بدور «البارودي» في الشعر لغة.. ومثيلاً لدور «شوقي» في إشراقاته ودفئه وموسيقاه صياغة وإبداعاً.

* * *

لم يدرس «المنفلوطي».. في جامعة «مونبلييه» كطه حسين.. ولا «السوربون» كالحكيم، ولكنه حفظ القرآن وهو في الحادية عشر.. وأمضى في الأزهر عشر سنوات لدراسة علوم الدين واللغة.. ثم التصق بالإمام والمفكر والأديب الشيخ محمد عبده «لصوق الولد بأبيه» وأكثَرَ من مصاحبته له في درسه، ومَقْدَمه ومُنْصَرفه عشر سنوات كاملة.. فكمُلَ من علمه ما كان ناقصاً.. كما قال كاتب حياته الدكتور محمد أبو الأنوار، أما تربيته الأدبية.. فقد تقاسمتها: بيئة أبيه الأدبية وجمعها من الأدباء والمثقفين في مدينة «منفلوط» في صعيد مصر.. على الضفة الغربية من نهر النيل، وتلك الأمهات من الكتب كـ «العقد الفريد» و«الأغاني» و«زهر الآداب»، والدواوين الشعرية كدواوين المتنبي والبحتري والشريف الرضي، أما كُتَّابه الذين كان يستغرق في قرائتهم فهم ثلاثة: عبدالحميد الكاتب، وابن المقفع، وابن خلدون في مقدمته الشهيرة..

لكن صلته بالإمام محمد عبده.. أو صلته بصديقه سعد باشا، فأوصله هذا إلى الكاتب والصحفي الكبير الشيخ «علي يوسف».. صاحب جريدة «المؤيد»، ليلمع فوق صفحاتها فيما بعد بـ «نظراته» و«عبراته». وهكذا جمعت له الأقدار في المرحلة الأزهرية القاهرية من حياته إلى جانب ثقافته التراثية الانتقائية المتميزة.. ثلاثة أساتذة: إمام فقيه، وسياسي خطيب، وصحفي كاتب، ليبدأ في آخر أيامه بالأزهر «شاعراً».. لكن «الشعر» سرعان ما قاده إلى السجن عندما هجا الخديوي عباس الثاني بـ «قصيدة» وهو يستقبله عائداً من إحدى رحلاته الخارجية قائلاً:

عــودٌ.. ولـكـن لا أقــول حميد

وعـهـدٌ وإن طـال المـدى سيبيد

فحُكم عليه بالسجن لستة أشهر مع وضع اسمه على القائمة السوداء.. وهو الأمر الذي حرمه من تقلد الوظائف الحكومية التي كانت متاحة للعاديين من خريجي الأزهر آنذاك فضلاً عن البارزين منهم وقد كان المنفلوطي في مقدمتهم، لكن عندما أصبح صديقه سعد باشا المفتون به وزيراً للمعارف عام ١٩٠٦م.. استطاع أن يدبر له وظيفة ذات مسمى عجيب حقاً هي: «المحرر العربي».. لكن مهمتها كانت هي المهمة التي انتدب المنفلوطي نفسه لها، والتي تتمثل في «ترقية الأساليب داخل دواوين الوزارة في قراراتها ومكاتباتها، خاصة في المسائل الكبرى التي تُعد فيها المذكرات المطولة والقرارات المسهبة»..

لكن المنفلوطي لم يستمر في هذه الوظيفة التي فصَّلها سعد باشا على مواهب المنفلوطي.. إذ فُصل منها في أعقاب زيارة الرئيس الأمريكي السابع والعشرين: «تيودور روزفلت» للخرطوم عام ١٩٠٧م وهو في طريقه للقاهرة.. حيث حض السودانيين «على التمسك بالاستعمار وحكمه».. فكتبت «المؤيد» وهي الجريدة التي كرس المنفلوطي لها قلمه: ونظراته و«عبراته» تنبه (روزفلت) إلى عدم التورط في شيء من ذلك عند وصوله لـ «القاهرة»، ولكنه عندما جاءها مع ذلك.. «أنكر على المصريين أن يكونوا أهلاً لحكم أنفسهم»!! فثارت ثائرة «المصريين» وانبرى له المنفلوطي بمقال يطالب فيه بـ «محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل».. ففصله دانلوب مستشار وزارة المعارف آنذاك.. وقد كان لكل وزير مصري مستشار إنجليزي..!!

* * *

بعيداً عن مسلسل (الفصل) من الوظائف.. الذي كان يقيله منه صديقه الحميم سعد باشا كلما حاق به.. كرس المنفلوطي قلمه لـ «نظراته» التي كان ينشرها كل خميس في المؤيد: «ليبسط فيها جمال أفكاره وسحر أسلوبه الأخاذ الذي لم يسبقه إليه أحد.. أمام قرائه وأدباء عصره، ليجمعها عام ١٩١٠ ويصدرها في أول كتبه: «النظرات» وهو يهديه لوالده وصديقيه: (الفقيه) محمد عبده.. و(السياسي) سعد باشا، ثم ليفرغ بعد ذلك لكتابه المؤثر والخلاق «العبرات».. ليهديه لصديقه الثالث رئيس تحرير المؤيد (الشيخ علي يوسف) وهو يقول له في إهدائه.. بتلك العذوبة التي بلغ بها

أسلوبه: «كان للإنشاء في مصر ديوان.. أنت رئيسه والكتَّاب جميعاً عمَّاله، فأما وقد اعتزلته، فائذن لأحد عمال ديوانك أن يقدم إليك كتابه هذا. تذكار وداع، تحفظ له به.. ماضي إخلاصه لك، ويحفظ لك فيه سالف أياديك عنده، وسلام على عهدك الزاهر».

لقد دوَّى كتاباه «النظرات» فـ «العبرات» في أوساط القراء والأدباء معاً.. حتى لم يبق في مصر من الأدباء وطلبة العلم إلا وقرأه، ليفاجئ «المنفلوطي» الأوساط الثقافية في مصر وخارجها من أرجاء الوطن العربي برائعته الأدبية «ماجدولين».. التي نقلها إلى العربية بتصرف كبير عن رواية الكاتب الفرنسي «ألفونس كار»: «تحت ظلال الزيزفون»..

فكان عجباً أن يقوم المنفلوطي بتعريب رواية عن الفرنسية.. وهو لا يعرفها، ولا يعرف سواها من اللغات الحية كالإنجليزية أو الأسبانية أو حتى الإيطالية.. إلا أنه بسط الأمر في مقدمته للرواية عندما قال بأن «طريقته في تعريبها كانت تقوم على الاستماع إلى صديقه العالم الفاضل محمد فؤاد كمال.. الذي كان يملي عليه ترجمة أغراضها ومعانيها، ثم يعود هو إلى كتابة ما أملاه عليه بكثير من التصرف ما بين زيادة وحذف، وتقديم وتأخير.. حتى أتمها وأصدرها في عام ١٩١٧م ليقرأها ويبكي بطلتها العالم العربي كله.. ليقول أحد أشياخ الأدب «الشيخ عبدالعزيز البشري» عنها فيما بعد بأنها «مجدولين المصرية» إشارة للجهد الأدبي الكبير الذي بذله المنفلوطي في تعريبها.. حتى بدت - للقلة التي

قرأت نص الرواية - كما لو أنها - رواية مصرية مختلفة عن أصلها الفرنسي، ولقد كان من حسن حظي.. أن أتلقى في الخمسينات خلال دراستي الإعدادية تلك الرواية الرائعة هدية من صديق من أصدقائي في مكة.. لألحق بدموعي دموع من سبقوني على بطلتها الجميلة الرقيقة «ماجدولين» التي كانت تبحث عن السعادة، فخدعها المال لتختار صديق حبيبها على حبيبها. فلم تجد السعادة ولم تجد الحب.. حتى فقدت حياتها ليقتات فتاها أساه وأحزانه حتى قضى إلى جانب قبرها حباً ووفاءً.

كان نجاح رواية «ماجدولين» المصرية.. أو تحت ظلال الزيزفون الفرنسية المدوي، دافعاً للمنفلوطي لتكرار التجربة.. وبذات الطريقة.. عندما اختار بدهاء وذكاء وطني مسرحية «فرانسوا كوبيه» الفرنسي: «في سبيل التاج».. لتعريبها بنفس عنوانها عام١٩٢٠م، وليهديها وسط غليان المصريين من أجل الاستقلال في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى وانفضاض مؤتمر فرساي في «باريس» الذي أقر مبادئ الرئيس «ودرو ويلسون» في حق نيل الشعوب لاستقلالها.. إلى زعيم المطالبين باستقلال مصر آنذاك - صديقه الحميم - سعد باشا زغلول، لتكر سبحة التعريب عند المنفلوطي.. إلى مسرحية الشاعر الفرنسي «إدمون روستان» التي عربها وقدمها تحت عنوان «الشاعر».. وأخيراً إلى رواية «بول وفرجيني» للكاتب الفرنسي «برناردين دي سانبير»: «الطبيعة» التي عربها باسم «الفضيلة» وأصدرها عام ١٩٢٣.. قبل عام من وفاته الذي تزامن مع محاولة الاعتداء على سعد باشا

كما سبق وأن ذكرت، ليقول أحد العارفين بالصداقة الحميمة التي تجمع بين المنفلوطي وسعد.. لـ «كأن المنفلوطي لم يجد ما يضيفه إلى دفاعه السابق عن سعد باشا غير الفداء له»..!!

* * *

كان المنفلوطي بتجديده في اللغة وأساليبها وصياغاتها.. كالجراح الذي التف ببراعة موهبته على مواقع الضمور والتليف في بدن الكتابة العربية ليعيد إيصال الشرايين الحية في اللغة.. بعضها إلى بعض لتعود الكتابة تنبض ساحرة مشرقة من جديد، وكان بـ«تعريبه» الرائع والفريد لتلك الأعمال الفرنسية.. هو أول معرب أو مترجم لأعمال أدبية من لغة لا يعرفها.. ولكنه صنع بالأمرين حجم تأثيره الأدبي المهول على قرائه وأدباء زمانه.. الذي امتد إلى قراء وأدباء الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي وإلى أن تربع على سدته الرافعي والمازني فطه حسين والعقاد..

لقد أنصفه اعترافاً بفضله شاعر الستينات الكبير الأستاذ صلاح عبد الصبور عندما قال عنه: «كان في حد ذاته خطوة بعيدة في التطور.. يدل على خصب نفس المنفلوطي وطواعيته للتجديد، وهذا الأسلوب يختلف اختلافاً هائلاً عن أسلوب المقامات الذي قلده محمد المويلحي في «عيسى بن هشام».. بل وحافظ إبراهيم في «ليالي سطيح»..

وأحسب بذلك كله.. لم تكن مفاجأة أن يفوز الكاتب والباحث الأكاديمي الأستاذ الدكتور «محمد أبو الأنوار» على جائزة الملك

فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٩٥م.. تقديراً لكتابه المرجعي عن «المنفلوطي: حياته وأدبه».. والذي أصدره عام ١٩٨١م في ثلاثة أجزاء، فقد كان «المنفلوطي».. بإنجازاته الأدبية في عمومها.. واللغوية في خصوصها.. يستحق كتاباً واثنين وعشرة، فالذي أنجزه لم ينجزه أحد من قبل.

الحلقة السابعة عشرة

ديستوفسكي

قبل ثلاثين عاماً تقريباً.. سألني أحد أقربائي المترفين.. من أصحاب الياقات البيضاء إن كنت قد قرأت رواية «الجريمة والعقاب»؟ وكان قد قرأ - صدفة - ترجمتها إلى الإنجليزية بعد صدورها في طبعتها الإنجليزية..؟ قلت، وقد أدهشني أنه قرأ تلك الرواية.. القاسية، المليئة بكل مشاهد الفقر وشظفه وعذاباته.. وإلى حد بيع النفس والكرامة والارتماء في أحضان الرزيلة: نعم قرأتها..؟

فأخذ يسألني بإلحاح: ولكن هل معقول أن يوجد فقر كهذا.. وفقراء كهؤلاء الذين تحدثت عنهم الرواية..؟!

كان ذلك، هو تأثير الرواية عليه. عميقاً مزلزلاً.. وهو المرفَّه الذي لم يعرف الفقر ولم يعشه. إنه ذات التأثير على كل من قرأ تلك الرواية من قبل أو شاهدها على الشاشة من بعد.. عندما قدمتها السينما في الخمسينات أو ستينات القرن الماضي، وتلك هي عظمة الرواية وكاتبها الروسي «فيودور ديستوفسكي» الذي عاش ومات في القرن التاسع عشر بين عامي ١٨٢١ إلى ١٨٨١م.. لكن أعماله لم تنتشر خارج روسيا ليس بسبب الستار الحديدي

الذي لم يكن موجوداً آنذاك لا هو ولا أصحابه.. ولكن بسبب غياب الاتصالات بين روسيا والعالم من خارجها، ولذلك لم يتعرف أحد على أعماله الروائية إلا في القرن العشرين وبعد أن شبع صاحبها موتاً لتشبع هي حياة.. مع انتشار حركة الترجمة بعد الحرب العالمية الأولى واتساعها بعد الحرب العالمية الثانية، ليقرأ الناس أولى أعظم رواياته.. «الجريمة والعقاب» التي كتبها بعد أن بلغ الأربعين، وفاض إناء حياته بؤساً ورعباً ونفياً وتشرداً.. فيتعرفوا على قلمه الساحر العميق الذي كتب به تلك الرواية.. وجسد به صور شخصياتها الذين كانوا يسبحون في بحر من الفقر متفاوت الأعماق، وقد توسطهم بطل الرواية «راسكولينكوف» الطالب الجامعي والمثقف الإنسان الذي لم يستطع أن يكمل تعليمه، والذي كان عليه أن يقبل أن تتزوج شقيقته الوحيدة بمن لا تحب ولا يحب.. لتمده بالمال الذي سيمكنه من إتمام تعليمه، والذي كان منذ نعومه أظفاره.. بالغ الثورة على الفقر. بالغ الشفقة على الفقراء والمعدمين والمحرومين. رائع في إنسانيته التي حملته وهو طفل في العاشرة ليقف إلى جوار الحمار الذي ظل يجلده صاحبه «ميكولكا» حتى مات لأنه لم يتمكن من شد العربة التي يشكل عائدها مصدر حياة صاحبها.. فيمسح على جبينه، ويقبله في عينيه، ثم ليستدير ليقفز على «ميكولكا».. ليضربه أو ليقتله إن استطاع لولا أن أمسك به والده وأبعده عن مسرح الحدث..

إن مشهد الظلم الذي رآه يقع على الحمار في طفولته.. رآه مجدداً في مطلع شبابه وهو يقع على من حوله من الفتية والفتيان

ممن كانوا يحتاجون - لفقرهم وعوزهم - إلى الاقتراض من تلك المرابية العجوز التي لا ترحم «الونا».. حتى تنادى بعضهم جهراً بقتلها، لا.. لأن قتلها وكما تبادر لأذهانهم ليس بجريمة «وإنما هو خدمة للإنسانية وللمصلحة العامة، لأنه في مقابل موتها وهي التي تملك مالاً وفيراً يمكن إنقاذ حياة الألوف من الدمار والإنحلال».. ليقوم هو نيابة عن الجميع بقتلها حتى ينقذهم من سُحْتها، وينقذ نفسه من العدم الذي كان يحاصره، وينقذ شقيقته من ذلك الزواج الكريه.. الذي لا تستحقه. ليتساءل بعد أن أقدم على قتل المرابية: «أهي جريمة أن أقتل حشرة شريرة سامة»؟؟.. ليدخل بعدها في سلسلة طويلة من العذاب أبدع ديستوفيسكي.. في تصوير جحيمه الذي لا يطاق.. فلم يرحمه منه إلا اعترافه بارتكابه الجريمة وانتظاره راضياً لحكم القضاء فيه.

إن هذه الرائعة الأدبية بمشاهدها وتشابكاتها الروائية.. بتحليلاتها النفسية العميقة، وشخصياتها المسحوقة فقراً وذلاً.. بدءاً من والدته «بوليخيريا» التي تعيش على معاش تقاعدي لا يفي بنصف احتياجاتها.. إلا أنها فخورة بابنها، واثقة من نجاحه وبلوغه أعلى المراتب، فهو كاتب تنشر له كبريات الصحف.. وهي تعيش على قراءة تلك المقالات لنفسها ولجاراتها في حيها وفي الأحياء المجاورة، إلى شقيقته الكادحة الجميلة والحازمة «دونيا» التي تتعرض لصنوف المعاكسات والتحرشات من زوج السيدة «مارفا» التي تعمل في بيتها دون استجابة منها.. إلى أن سمعت «مارفا» زوجها وهو يطارح «دونيا» أشواقه ولكنها مع ذلك انتصرت

لزوجها واتهمت «دونيا» في أخلاقها.. حتى طردتها بعد أن شوهت سمعتها وشرفها في المدينة كلها، إلى المستشار ورجل الأعمال المتعالي «لوجين».. ذو الثروة المرموقة الذي تقدم بطلب الزواج من «دونيا».. فلم يخف صلفه وعنجهيته في أول لقاء بأمها بأنه «يرتاح لمصاهرة النساء الفقيرات»!!، إلى الفيلسوف الخمسيني العاطل والبائس «ميرميلادوف» الذي استسلم لبيع ابنته في سوق الرذيلة لتعوله وتعول زوجته وأبناءها وإلا ألقت به في عرض الطريق.. تمثل بحق أبرع وأنبل الدعوات إلى الابتعاد عن الجريمة حتى وإن بدا لمرتكبها أن بإمكانه الإفلات من يد العدالة إن هو أحكم التدابير في ارتكابها..؟!

* * *

بعد تلك الرائعة التي أصبحت في صدارة التراث الأدبي العالمي.. كان لأعمال «ديستوفسكي» الأخرى بعث جديد على المستويين العالمي والعربي.. بعد ترجمة روايته «ملاحظات من تحت سطح الأرض» إلى الإنجليزية في الثلاثينات.. ثم ترجمتها إلى العربية في نهايات الخمسينات من القرن الماضي بعنوان: «الإنسان الصرصار»، لتُفاجأ بها أوساط الأدباء والكتّاب والمثقفين العرب بصفة عامة.. فيقبلوا عليها وعلى قرائتها بشغف ونهم رغم صعوبتها واستحالة خيالات بطلها «الصرصار» الحائر الذي يقول عن نفسه بأنه «إنسان مريض.. إنسان حقود» وأنه «كان يستمتع بإذلال الناس الذين يقفون على مكتبه ليستعلموا عن أي شيء» وأنه «كان يستمتع بذلك إذا أفلح فيه»، إلا أن لهذا الصرصار الحقود

ميزة تميزه عن البشر الحاقدين من أمثاله فقد كان «يخجل من حقده».. ليحمل قراءه على التعاطف معه في توصيفه الثاني لنفسه بـ «أنه لم يكن غير ضارب للأرض بلا هدف. يُفزع العصافير الآمنة في طريقه.. واجداً في ذلك متعة أي متعة»، وأنه «لم يعرف كيف يكون أي شيء».. إلى أن ينتهي إلى القول في هذه المرحلة من حياته: ساخراً من نفسه. ساخطاً على زمنه لـ «أن الفرد في القرن التاسع عشر يجب أن يكون مخلوقاً لا شخصية له. أما الإنسان الذي يتميز بالشخصية.. الإنسان الفعال، فهو مخلوق محدود.. هذا هو ما تعلمته طيلة هذه السنوات الأربعين»، وكان قد كتب هذه المذكرات أو الرواية وهو في الثالثة والأربعين من عمره..

ليكتشف القراء بعد ذلك بأن هذا «الصرصار» الحائر والفيلسوف كان موظفاً، وأنه عندما توفى أحد أقربائه وترك له ستة آلاف روبل «استقال من وظيفته وقبع في غرفة كئيبة مع خادمة عجوز خشنة الطباع كريهة الرائحة». يفكر ويتأمل، ويرقب الدنيا من ذلك القبو.. ليقول عن مرحلته الثالثة: «إن شدة الإدراك.. مرض حقيقي. إن حياة الإنسان المألوفة لا تتطلب منه أكثر من إدراك الإنسان العادي. أي نصف أو ربع الإدراك الذي يتمتع به الإنسان المثقف في هذا القرن التاسع عشر الكئيب».. والذي لم يختلف القرن العشرين عنه كثيراً بعد أن غرق نصفه الأول في بحر من الحروب والدماء لكن «ديستوفسكي» لم يعشه.. فقد مات قبل بدايته بعشرين عاماً تقريباً، على أن صرصاره الحائر لم يترك قارئه حائراً مثله... بل كشف له عن أزمته وأمثاله عندما قال في

نهاية مرحلته الثالثة: «ليذهب هذا النظام الكوني إلى الجحيم. إنني أطالب بحقي في التصرف كما أشاء.. بحقي في اعتباري نفساً جوهراً فذاً فريداً»!! ليجد الكتّاب والأدباء والمثقفون عامة.. أنفسهم فيما قاله هذا «الصرصار» الفيلسوف أو كاتبه «ديستوفسكي»، أما الكاتب البريطاني: «كولن ويلسون» صاحب أحد أشهر كتب القرن العشرين «اللامنتمي».. والذي تحدثت عنه وعن كتابه فيما سبق.. فقد قرأ تلك «الملاحظات» أو ما قاله «الإنسان الصرصار» أو «ديستوفسكي» على وجه الدقة.. قراءة دارسة متأنية مغتبطة. فقد وجد فيه ضالته.. وخير ما يقدم شخصية «اللامنتمي»: البائس واليائس والإنسان النبيل والمحترق بتميزه وتميز إدراكه، ليقول عن تلك «الملاحظات» أو «المذكرات» بـ «أنها أول رواية رئيسية تعالج فيها مشكلة اللامنتمي، وأولها في الأدب الحديث»..؟

* * *

عاش «ديستوفسكي» الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته.. مستقراً ناعم البال في رعاية زوجته الثانية «أنّا سنتكينا» التي اقترن بها بعد وفاة زوجته الأولى، والتي كانت تفهم نقاط ضعفه وقوته... باعتبارها عملت سكرتيرة له بعد أن تمكن من إعادة إصدار مجلته «الزمن»، باسم «الفترة» والتي كانت تتميز بحسن تدبيرها للأمور المالية التي لم يكن يعتني«ديستوفسكي» بضبطها كثيراً.. الأمر الذي مكّنه من التفرغ لأعماله الأدبية خاصة وأن اسمه كان قد رسخ تماماً في سماء روسيا القيصرية كواحد من ألمع وأبرز كتابها الروائيين، ليكتب خلال تلك السنوات ثلاثة من أجمل وأمتع أعماله

الروائية.. كانت أولاها: «العبيط» التي قدمت على المسرح أكثر من مرة وتم اقتباسها لكثير من مسارح العالم فيما بعد، وكانت ثانيتها: «شباب فج».. وكانت الثالثة وهي الأهم، والأعظم والأضخم والأشهر.. هي رواية «الإخوة كارامازوف» بأجزائها الثلاثة.. وهي التي أضيفت لعمليه السابقين «الجريمة والعقاب» و«ملاحظات من تحت سطح الأرض» أو «الإنسان الصرصار»... لتجعل من اسمه ثاني ثلاثة في الأدب الروسي: ليو تولستوي برائعتيه: «أنا كرنينا» و«الحرب والسلام»، ومكسيم جوركي برائعتيه: «العالم السفلي» و«الأم».

نعم.. كانت «الإخوة كارامازوف».. هي الدرة الثالثة في أعمال ديستوفسكي، فبقدر ما تخاطفها القراء العرب من حين نشر ترجمتها إلى العربية في عام ١٩٦٨م.. كان السينمائيون والمسرحيون في الغرب أسبق في تقديمها على المسرح ثم على الشاشة الفضية.. وماتزال كثير من تلفزيونات العالم تقدمها حتى اليوم..

كانت الرواية بأبطالها الأربعة الرئيسيين.. وهم: الأب «فيدرو كارامازوف».. وأبنائه الثلاثة: «ميتيا» بغرائزه وشهواته، و«إيڤان» بعقله ورشاده، و«إليوشا» بمشاعره الإيمانية والإنسانية.. تقدم لوحة إنسانية عريضة عميقة في شرحها المظلم والقبيح، وفي حكمتها البهية الساطعة.. وفي نسائم عواطفها الإنسانية النبيلة، والإيمانية الراقية وهي ترسم للبشر دروب الخلاص، بعد أن التحمت حياة

أولئك الأبناء الثلاثة في صراع بعد مقتل أبيهم الشره في غرائزه كأكبر أبنائه «ميتيا».. بسبب تنافسه على حب ذات الفتاة التي كان ابنه يحبها.. ليقتله الأخ غير الشقيق لـ «ميتيا»، ولكن ولأن «ميتيا» هو صاحب المصلحة في موت أبيه.. فقد حكم عليه بالنفي لعشر سنوات في صحراء سيبيريا.. لتجري حلقات الصراع الدامية بين كل الأطراف في عائلة «كارامازوف».. إلا أن بُعداً إيمانياً كان يلوح على الدوام في نسيج الرواية من خلال تحليله للكفر ودواعيه.. لا ليثبته ولكن لينقضه، ويهدمه، ويفسح الطريق أمام الإيمان وعودة الإنسان إلى ربه.. إلى إيمانه.

لقد صدق ذلك الناقد عندما قال «إن قصص ديستوفسكي كالمخدات المحشوة بالأسمنت.. لا تريح من ينام عليها»!! فهي حقاً لا تريح.. لأنها توقظ العقل.. وتشعل الوجدان.. وتهز الضمير..

ولكن هذا الذي أحدثته وتحدثه قصص وروايات «ديستوفسكي».. هو الذي منحها خلودها دون شك، وسافر بها من زمن كتابتها في القرن التاسع عشر.. إلى زمن انتشارها في القرن العشرين، وستسافر بها قرناً بعد قرن.

الحلقة الثامنة عشرة

احمد السباعي

بين كتابيّ شيخ الصحافة، الكاتب والأديب الأستاذ أحمد السباعي: «حبر على ورق»، والذي لم ينشر في الثلاثينات من القرن الماضي، وجرى التكتم عليه في حينه وما بعد من قبل صاحبه وناشره: حياءً من تواضع مستواه.. و«تاريخ مكة» الذي طُبع أربع طبعات متلاحقة في خمس سنوات.. كان آخرها في الربع الأخير من القرن الماضي.. تمتد طريق العصامية بكل رهقها وإرهاقها.. بكل صخورها وأشواكها ومنحدراتها وجفافها في كل شيء.. التي اختارها «السباعي» ليصبح في نهايتها: نجماً في الصحافة، ورائداً في «القصة»، وعلماً من أعلام كتاب التاريخ ورواته.

ورغم أنه وُلدَ في مطلع القرن وفي فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، لوالده الشيخ محمد الذي طال انتظاره لـ «ابن» يحمل اسمه من بعده.. بعد أن أوشك على بلوغ سن اليأس من الإنجاب.. فكان موضع تدليله وتدليل أمه له التي كانت تغنيه قائلة وهي تهننه: «أحمد حمادة لب القلادة.. أمهُ تُحبُه، وأبُوه زيادة»، ورغم أنه عندما حان موعد ذهابه إلى كتاب «زقاق الشّيش».. خصص له «عبداً» ليرافقه في ذهابه وإيابه، إلا أنه كان صارماً حازماً قاسياً

في تربيته.. كان كمعظم آباء ذلك الجيل من مدرسة «اللحم لك يا سيدنا والعظم لي. أنت كسِّر يا سيدنا وأنا أجبِّر»!! فإذا استشار أصدقاءه في أسلوب تربيته لابنه لم يسمع منهم غير ما عرفه من الاعتماد على «العصا» و«الفلكة».. و«الحبال المفتولة»: «رب ولدك وأحسن أدبه..! ما يموت حتى يفرغ أجله»!!

* * *

لقد أمضى أديبنا الكبير وعصامي العصاميين حقاً.. قرابة عام وهو يحاول معرفة الألف التي «لا شيون عليها» أي لا شيء عليها، ثم انتقل إلى ما هو أصعب.. إلى أرجوزة الأبجدية التي تضم حروف الهجاء جميعها: «أبجد هوز. حطي كلمن. سعفص قرشت. تخذ ضظغ».. والتي أرهقته طويلاً إلى أن استطاع نطقها كيفما اتفق في ظل والد يحمل عصاته طوال الوقت.. وهو يتعجل تعليم «وحيده» حتى يتباهى ويفاخر به وينفع نفسه بعد عمر طويل..

لكن العجيب في هذا الطفل المدلل نسبياً.. والمحاط برعاية أبيه.. أنه اختار في الكتَّاب الذي أمضى به ست سنوات جانب «الغلابة» من الأطفال الذين عادة ما تكون ظهورهم وأقدامهم وأبدانهم بصفة عامة أرضاً مباحة لـ «الشيخ» أو «سيدنا» بالحق قليلاً.. وبـ «الباطل» كثيراً، إذ إن الكتاتيب وفصول المدارس في تلك الأزمان.. وربما.. إلى أزماننا هذه.. تنقسم إلى قسمين: قسم المحظوظين من أبناء المتنفذين والقادرين والوجهاء.. وقسم «الغلبانين» من الأيتام وأبناء الفقراء والمساكين ومن لا حول ولا طول لآبائهم..

وقد حدث أن اتفق الطلبة المحظوظين على «الغلابة» ذات يوم.. فساروا خلفه ومن معه من (الغلابة) في أزقة مكة وهم يستهزئون بهم ويسخرون منهم قائلين فيما يشبه الزفة: «دولا مين.. دولا مين: دولا نصارى والاّ يهود... كُشّوا عليهم البارود»، فاختار هؤلاء الغلابة – فيما بعد – زميلهم «السباعي».. المتقدم عليهم مكانة وغنى لشكوى أولئك الطلبة المحظوظين عند شيخهم في اليوم التالي. استمع إليه الشيخ وعرف منه أسماء أولئك الطلبة، ثم صمت متأملاً قبل أن يستعيده ما قالوه، وعندما أعاد عليه ما قالوه «دولا مين.. دولا مين» أبدى الشيخ انفعاله وامتعاضه فجأة ومد يده إلى عصاه لينهال بها عليه ضرباً حتى دخل في غيبوبة من شدة الضرب.. بحجة قلة ذوق وقلة أدب هذا «السباعي» الذي يعيد على الشيخ كلاماً منحطاً كهذا!! ثم التفت الشيخ بهدوء إلى الطلبة المحظوظين ليقول لهم معاتباً بلطف: «يا واد ما تقعدوا عاقلين.. انت وهوَّ»..؟!

استطاع السباعي.. في النهاية وسط ضغط ومحاصرة وقسوة والده عليه أن يحفظ القرآن في ثلاث سنوات وأن يجوده، وعندما توقف عن الدراسة في يفاعه بعد موت أبيه.. كان قد حفظ «الأجرومية» وبعض «ألفية ابن مالك»، وأجاد الكثير من العلوم والمعارف التي كانت تتيحها (المدرسة الراقية) التي أقامها الشريف الحسين في قلعة جبل هندي، وكان جميلاً أن لا ينسى عندما استقام له القلم أن يلغي «ألف.. لا شيون عليها» من حياة التعليم قاطبة عندما ألف كتابه: «سلم القراءة العربية» في ستة

أجزاء.. ليحل تدريسه محل ألف «لا شيون عليها» و«أبجد هوز».. وبقية هذه الأحاجي.

لكن موت والده.. تركه وحيداً في مواجهة التزاماته العائلية التي كان لابد وأن تقع عليه.. إلا أنها تزامنت مع ردة فعله الطبيعية على سنوات القسوة والحرمان من أدنى ألوان الترفيه في ذلك الزمن: سواء أكانت لعباً في أحد الأزقة.. أو مشاهدة لـ «مزمار» في برحة.. أو مشاركة في لعبة «الكَبَت» ببرحة الفل في المسعى، ولذلك اندفع يعوض حرمانه من «قيلة» إلى «طلعة» إلى «سهرة».. مع «مطاليق» الحارة و«أشقيائها» في الوقت الذي كانت والدته فيه تعطيه الجنيه بعد الجنيه ليتاجر به في «الحراج» كما كان يدعي.. بينما كان في الحقيقة ينفقه على «قيلاته» وطلعاته، لكن روح المؤلف المبكرة فيه.. كانت قادرة على تبرير أفعاله، عندما كان يعود بين الحين والآخر ببعض الريالات ليسلمها إلى والدته باعتبارها «أرباحاً» حققها.. لتتلقف جدته لوالدته هذا الخبر السعيد قائلة: «شاطر والله.. يا ولدي. روح الله يكسِّبك»..!!

إلا أن تبريراته القصصية هذه لم تنفع ولم تشفع فيما بعد.. عندما وصل إلى آخر جنيه في «علبة» والدته دون أن يحقق شيئاً فعلياً من الأرباح.. حتى بدا له أن الحظ - الذي لم يكن يؤمن به - يعاكسه، وأنه قد يصبح كذلك «التاجر المنحوس» الذي شنَّع على نحسه أحد الأدباء.. قائلاً: «لو أنه تاجر في الزيت.. لمحا الله آية الليل»..!؟

ومع ذلك غيّر من طبيعة نشاطه: من «الحراج» و«الحلقه» إلى فتح «بقالة».. أعانه على رأس مالها أحد أقربائه، إلى جانب ما تبقى لديه من آخر جنيهات والدته، وأخذ يستقر فيها.. إلا أنه لم يُفلح «بقالاً» كما لم يفلح من قبل لا في الحلقة ولا في الحراج. لقد كانت جدته تقول عنه إنه «ولد متفلسف»..؟

لكن جدته هذه.. كانت تؤمن به، وبأكاذيبه الصغيرة، و«تلافيقه» التي يُخرج بها نفسه من استنفاده لجنيهات والدته، أو من تأخره أو عدم رغبته في الخروج ليلاً.. كيوم أن مرضت إحدى سيدات العائلة فنصحت بأن تشرب من ماء زمزم طوال اليوم.. فكان عليه أن يذهب – إلى بئر زمزم – لإحضار الماء مرات في اليوم الواحد، ولكنه عاد إليهم بعد يومين – وقد تعب من هذا المشوار – ليقول لهم بأنه «رأى يداً تمتد إليه من الجدار وتمسك بالدورق الذي ملأه وتقبض عليه.. فسحبه بقوة وعاد يجري»!! فأمّنت جدته على ما قال فوراً «لأن عيونك كشّافة، وصاحب اليد من الشياطين الذين لا يحبون ماء زمزم»!! وهي تطلب منه أن لا يخرج في الليل ثانية.. وهو الأمر الذي كان يسعى إليه. لقد كانت «جدة» تملك حشداً لا ينضب من هذه الرؤى العجيبة.. إلى جانب قصص لا تنتهي عن الملائكة والأولياء والجن و«أصحاب الخطوة» الذين يصلون الفجر في الحرم المكي، والظهر في المسجد النبوي والعشاء في بيت المقدس، فكانت تبهره حكاياتها وأساطيرها وخرافاتها.. كقولها بأن عين زبيدة هي من نهر دجلة، وأن أحد الجان أحب زبيدة.. فطلبت منه أن يوصل «دجلة» بمكة.. فأقام لها عين زبيدة،

أو كقولها.. بأن الأرض محمولة على قرن (ثور)، فإذا تعب قرنه الأيمن.. نقلها إلى قرنه الأيسر فتحدث الزلازل وتتفجر البراكين، حتى لأحسب أن تلك القصص والأساطير.. كانت تضع في قلبه وعقله شيئاً.. وربما أشياءاً لا حصر لها، وعندما اكتشف نفسه.. وعثر عليها بعد رحلة معاناته التعليمية وضياعه بين برحات الفل، والمروة، ووادي الزاهر، وفشله في التجارة.. «خُضرياً» أو «بقالاً»، كان مخزونه من قصص جدته وأساطيرها والتلافيق التي كان يبرر بها أفعاله أو يحقق بها أهدافه.. يشكل البئر أو المنجم التي متحت منها موهبته الأدبية التي تأخر ظهورها كما قال في كتابه الجميل «أيامي».. بأن «هلوسة الأدب أدركته في سن متأخرة»!! ومع ذلك فقد كان أول أعماله الأدبية التي ظهرت إلى الناس هي قصة «فكرة»، وكان ثانيها.. هو كتابه «فلسفة الجن»..!!

* * *

لقد جاءت نقطة التحول في حياة الشاب (أحمد السباعي).. والتي ستنقله من حياة إلى حياة عندما زاره أحد أصدقائه في بقالته ذات يوم، ليعرض عليه العمل «مدرساً» للقرآن الكريم في واحدة من هذه المدارس الجديدة التي افتتحت بعد «النهضة».. فتخابث رافضاً وقلبه يطير فرحاً بعرضه، ليوافق في النهاية.. ولينتقل إلى عالم التدريس وأوساط المعلمين الراقية وإن كانوا جميعاً مثله - كما قال - «خريجو كتاتيب عالية لم تتعد الطور الابتدائي أو المتوسط».. إلا أن تلك النقلة التعليمية كان لها الفضل الأكبر في توسعة أبواب قراءاته لينتقل من قراءة قصص حسن البصري،

و«دليلة المحتالة»، و«الشاطر حسن» الذي ساقته معشوقته من الجان إلى جزر واق الواق وفيها «رأى وراء المعمورة دنيا جديدة، تثمر بعض أشجارها رؤوساً كأنها رؤوس الآدميين، تنطق ألسنتها في أصوات عالية (واق.. واق. سبحان الملك الخلاق)».. إلى قراءة «الريحانيات» للأديب اللبناني الفذ أمين الريحاني.. وإلى «حديث القمر» لفنان الكلمة مصطفى صادق الرافعي.. وإلى جبران خليل جبران الذي أزاح عن نفسه الكثير من أرتال موروثاته البالية..

ومع عودة جريدة «بريد الحجاز».. من جدة إلى مكة لتصدر - بعد ذلك بسنوات قليلة - باسم: «صوت الحجاز» بإدارة محمد صالح نصيف، ورئاسة تحرير الأستاذ عبدالوهاب آشي.. وتَشَكُّل جيل أدباء الرعيل الأول في بداية الخمسينات الهجرية (الثلاثينات الميلادية) منه ومن محمد سرور الصبان، ومحمد سعيد العامودي، ومحمد حسن عواد، وجميل مقادمي، وعمر عرب، وحسين نظيف، وتفتح الأجواء لنهضة أدبية جديدة في بداية عهد الملك عبدالعزيز.. حمل المدرس الشاب (أحمد السباعي) مجموعة مقالاته التي كان يكتبها خفية ولا ينشرها، وقد قرر نشرها فيما يشبه «المجلة» أو «الكتاب» وذهب بها إلى الشيخ محمد سرور الصبان وقد «كانت له مكتبة في شارع اليوسفي لبيع الكتب الأدبية وكان له مركاز في ردهة المكتبة. ليعرض عليه فكرة طباعة تلك المقالات في كتاب».. فاقترح عليه بعد أن قرأ بعض تلك المقالات أو تلك «الخبصة» كما أسماها السباعي بشجاعته فيما بعد.. وأن يسميها: «حبر على ورق» (١١) وأن طباعتها - في القاهرة - ستكلفه عشرين جنيهاً.. مع موافقته

على اقتسام التكلفة بينهما. ثم أخذ منه العشر جنيهات «حيلة الشب يارب» - التي جاءه بها - كما قال الأستاذ السباعي فيما بعد.. ليودعها الصبان بين دفتي الكتاب، ويضع الكتاب نفسه على رف من رفوف المكتبة، وينسى الموضوع.. بينما أخذ المؤلف الشاب يتردد عليه متسائلاً عن الكتاب الذي لم يصل والشيخ الصبان يتعلل، ويتحجج في كل مرة بحجة.. إلى أن اعتزم السباعي السفر بنفسه إلى مصر وإلى المطبعة التي كان من المفترض أن تطبع الكتاب. ليفاجأ هناك بأن المطبعة لم تستلم الكتاب أصلاً.. وأنه لا علم لديها بهذا الكتاب لا من قريب ولا من بعيد، ليعود إلى الشيخ الصبان غاضباً.. فيقول له بدهائه المعروف: ماذا أفعل..؟ لقد عادت أصول الكتاب، وهو يسلمه إياه ومعه العشرة جنيهات!؟

لقد كانت «الصدمة» كبيرة على الكاتب الشاب، ولكن السباعي.. فهم الدرس، وأدرك المغزى.. بل وحمد للشيخ الصبان أن تستَّر على ذلك و«كتم الدم على القيْح» كما قال الأستاذ أحمد السباعي في كتابه الرائع «أيامي».. وهو يرويها بشجاعة الكبار حتى تتعلم الأجيال!!

لقد ولد في ذلك اليوم.. الكاتب أحمد السباعي.. والذي سيغدو نجماً ورائداً وعلماً بعد عقدين من الزمان: يقرأه الناس في لهفة.. ويتتبعونه في شوق.. وهم يفسحون له مكان الصدارة بينهم أديباً ونجماً وكاتباً ليترأس تحرير أكبر صحف تلك الأيام وأهمها: «صوت الحجاز».. ولينشئ فيما بعد «الندوة» اليومية.. ف

«قريش» الأسبوعية، وهو يصدر الكتاب بعد الآخر.. حتى نافت كتبه عن اثنى عشر كتاباً، كان فيها: الكاتب الفنان.. قاصاً في «فكرة» و«خالتي كادرجان» و«أبو زامل»، والفيلسوف.. مفكراً في «يوميات مجنون» و«فلسفة الجن»، والمصلح.. داعية في «دعونا نمشي» و«مطوفون وحجاج»، والمؤرخ.. راوياً في «تاريخ مكة».. الذي يعتبر بحق أهم وأعظم كتبه.

لقد كان «السباعي» عظيماً بكله: قلماً لا ينسى ونبضاً وطنياً متقداً.. وتاريخاً لا يغيب، وكان حصوله على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).. اعترافاً عادلاً بنجاحات صعبة في الزمن الصعب.

الحلقة التاسعة عشرة

همنجواي

ربما كان الكاتب «أرنست هيمنجواي» هو أشهر الكتاب الروائيين على مستوى العالم في القرن العشرين.. ليس بكثرة ما كتب، ولا بجمال وعظمة ذلك الذي كتبه في قصصه ورواياته.. ولكن لأنه كان يتناول العالم كله من خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما بينهما من حروب أهلية في أسبانيا.. وهو يرى بعد كل حرب من تلك الحروب التي عاشها جسداً وروحاً فظائع ما كانت تحدثه من انهيارات في النفوس، ودمار للقيم وضياع للقلوب وتوحدها مع أحلامها الصغيرة وأمانيها، ولأن السينما الأمريكية تولت بكل إمكاناتها الهائلة والمتنامية عبر الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من القرن العشرين.. نقل ذلك الذي كتبه وجسّده إلى أبناء المعمورة في كل أصقاع الدنيا، فلا يقرؤونه سطوراً أو فصولاً في رواية.. ولكنهم يرونه ويسمعونه ويبكونه في شخوص «أبطالها» وما حدث لهم وفيهم وما انتهوا إليه في رواياته الثلاث الأولى: «ولاتزال الشمس تشرق»، و«وداع للسلاح»، و«لمن تقرع الأجراس»..؟

* * *

كانت حياة «هيمنجواي» نفسها.. وكأنها رواية، فقد ولد في آخر سنوات القرن التاسع عشر في ولاية «ميشيجن» وغاباتها وشواطئها وبراريها.. حيث كان الناس يقنصون ويصيدون ويقرؤون للكاتب الساخر مارك توين: «إن كل شيء مرح إلا أن الحرب هي التي تسبب الاختلاف».. كما قال في قصصه الأولى، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية تم تجنيده في أواخر أيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. في وظيفة «سائق» عربة إسعاف في هيئة الصليب الأحمر الدولية في إيطاليا حيث رأى أوروبا الجميلة: فرنسا وإيطاليا وألمانيا.. وهي تقتتل وتحترق، ليصاب - في إيطاليا - بالعديد من الشظايا والجروح التي لم يشف منها إلا بعد وقت طويل، وهو الذي لم يكن جندياً على جبهات القتال.. بل «سائقاً» لعربة إسعاف، ليعود بعد ذلك إلى أرض الوطن ببقايا جروح في جسده.. والكثير منها في روحه، ليعمل مخبراً صحفياً في صحيفة «كينساس سيتي ستار»، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة.. وعاد إلى «باريس» ليراها - ويرى نفسه - وهي تعيش حياة اللامبالاة التي عاشتها معظم دول أوروبا الغربية ومدنها بعد الحرب.. وليكتب فيما بعد أولى أهم رواياته: «ولاتزال الشمس تشرق».. التي صورت جيل الضياع بعد الحرب الأولى، وليلحقها بعد ثلاث سنوات بروايته الثانية: «وداع للسلاح».. التي صور فيها بقايا صراع الحب والحرب، حتى لتكاد الروايتان تشكلان ثنائية تعالج أمراً واحداً.. من زواياه العديدة.

انتقل «هيمنجواي» الحائر والمشتت والذي أخذت تغلب عليه روح اللامبالاة بعد ذلك إلى أسبانيا.. ليسعده وهو الرياضي الذي يحب القنص في الأدغال، والصيد في البحار الهائجة.. منظر مصارعي الثيران الذين يجازفون بحياتهم كل يوم، فبدا له وسط تشتته وضياع معنى الحياة منه، أنه «لا يوجد أحد يعيش حياته بكاملها.. كمصارعي الثيران»!! لقد كتب عن تلك المرحلة روايته التي لم تحقق ذات النجاح السابق والكاسح: رواية «تلال أفريقيا الخضراء».. في عام ١٩٣٥م.. لتتجمع عليه خيبات الواقع الذي عاشه، وخيبات فشل روايته الإنسانية التي تقوم على مبدأ: «إن تملك أو لا تملك».. التي أعادت تقديمه كـ «لامنتم» أو رافض لحياة سقط عنها المعنى..!!

لكن الحرب الأولى والتي أصابته بدوار لم يُشفَ منه أبداً، أخذت تظهر له وتريه نفسها مجدداً في الحرب الأهلية الأسبانية.. ليدخل فيها كاتباً وطرفاً ومنظّراً تلفحه نيرانها وتبكيه صراعاتها حول العدالة الاجتماعية، وعندما انتهت الحرب بـ «المصالحة الوطنية».. كان قد انتهى من ثالث أعظم أعماله الروائية: «لمن تقرع الأجراس» عام ١٩٤٠م. والتي لا أظن أن أحداً لم يقرأها من جيل الخمسينات والستينات.. أو يشاهدها على شاشات السينما سكوب التي غزت العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م.. لتتسع شهرة هيمنجواي بإنجازاته الأدبية إلى أوسع مدى، وليغدو شخصية إنسانية ساطعة شديدة البريق.. يضاهي ببريقه وثقله الأدبي رواد الرواية الكبار من أمثال تولستوي وديكنز

وفلوبير، وهو يتماثل روائياً مع أترابه من أمثال: ألبير كامو وجان بول سارتر وألبرتو مورافيا، أما عالمنا العربي.. فقد كان آنذاك مايزال يحبو في عالم الرواية.. بعد أن شق الطريق إلى عالمها في عام ١٩١٦م الدكتور محمد حسين هيكل بروايته: «زينب»!!

* * *

لقد مضت سنوات الأربعينات الميلادية على «هيمنجواي».. وهو غارق في عمله الصحفي الذي عاد إليه بعد أيامه في أسبانيا، ورحلاته الأربع الطويلة إليها، وكتابته لروايته الخالدة «لمن تقرع الأجراس» ليستغرق في عمله.. وليستغرق بذات القدر في تأمله لـ «الإنسان» ومكابداته، ولـ «العالم» الشرير من حوله.. إلا أنه كان محاطاً برعاية زوجته الثانية «بولين»، وعمها المليونير «جساس بيفر»، الذي مكنه من الذهاب إلى أفريقيا وكتابة روايته الموسيقية الجميلة: «ثلوج كليمنجارو».. ليكتب في مطلع الخمسينيات «العجوز والبحر».. مصوراً نضال الإنسان في شخص بطل روايته العجوز الرائع: «سانتياغو».. ضد قوى الطبيعة التي لا تقهر، فهذا (العجوز) مضت به أيام وأيام.. وهو يذهب لصيد أي شيء من الأسماك ليقتات بعائدها، ولكنه كان يعود خائباً في كل مرة.. حتى قرر أن يهجر البحر والصيد لكن فتى صغيراً في عمر أحفاده أحبه وأشفق عليه وصحبه في رحلات صيده السابقة الموفقة.. أخذ بطفولته وعفويته يبث في «سانتياغو» روح «الأمل» و«المقاومة» والتصدي، وهو يذكره بـ «الشجاعة» التي تعلمها منه، والتي جعلته يقول له ذات مرة «من الممكن تدمير الإنسان ولكن ليس من الممكن

قهره».. لينطلق «سانتياغو» ومعه الطفل إلى أعماق البحر على زورقه.. فيصطاد ذلك «الحوت» الضخم، ثم يحاولان العودة به إلى الشاطئ في ملحمة نضالية رائعة.. ولكنهما عندما عادا إلى الشاطئ.. كان الحوت الضخم الذي يبلغ طوله ثلاثين متراً قد أصبح هيكلاً عظمياً..!!

كانت «العجوز والبحر» هي رابع أعظم روايات «هيمنجواي».. وهي التي نال بها جائزة «بوليتزر» الأمريكية عام ١٩٥٢م.. وهي التي رشحته إلى جانب رواياته الثلاث السابقة - فيما بعد - للحصول على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤م.

لقد أثرت «العجوز والبحر».. بعد نشرها، ثم بعد تقديم السينما الأمريكية لها.. على ملايين القراء والمشاهدين من مختلف أطياف المجتمع: من القراء العاديين.. إلى الأدباء والفنانين.. بل وإلى كبار المفكرين والساسة.. وهي تتساءل وسط نضال «سانتياغو» مع ذلك الحوت الضخم.. عن معنى الحياة: عن «الشجاعة كبديل للعنف والحرب في عالم شرير».. حتى إن الزعيم الفرنسي الراحل «شارل ديجول» صور خاتمة حياته بعد أن قدم استقالته الثالثة والأخيرة، وآثر الاعتزال وهو الذي أعاد فرنسا للفرنسيين من براثن النازيين.. بقوله: «إنني كالعجوز.. في رواية: «العجوز والبحر»، لم يعد إلا بهيكل عظمي»..!!

* * *

كان هيمنجواي «أمريكي» الولادة والنشأة في جانب كبير من حياته، ولكنه كان «أوروبي» الحياة والثقافة؛ فقد عمل في إيطاليا، وعاش في باريس، وناضل مع الأسبان في مدريد المحاصرة، وبالتأكيد فإن ثقافة أوروبا وحياتها وإلهاماتها.. كانت وماتزال.. تختلف كثيراً عن الثقافة الأمريكية وأنماطها وطبيعتها..!

ولكن العجيب أن هيمنجواي وهو الذي وجد أن معنى «الحياة» بعد طول وتنوع تجاربه فيها.. يكمن في «شجاعة» مواجهتها، مات برصاصة طائشة من بندقيته؛ خطأ على قول.. وانتحاراً على قول آخر.. فهل ضاعت «شجاعته» أم ضاع ساعتها منه معنى الحياة مجدداً..؟

إنه سؤال.. لا إجابة عليه.. فقد مات هيمنجواي.. وفقدت الرواية أحد كتابها العظام وهو في الثانية والستين من عمره، لكن ناشر أعماله «شارلز سريبذر» الذي أعاد جمع ونشر أعماله القصصية والروائية بعد عشرين عاماً ونشرها ملخصة وحسب ترتيب صدورها التاريخي.. في سفر ضخم جعل عنوانه: «مكابدات هيمنجواي» أو «المناضل هيمنجواي».. قال عنه: «إنه يستحق حياة بعد الحياة».. وهو الأمر الذي يتطلع إليه ويحلم به كل عباقرة الكتاب وعظمائهم، وقد كان «هيمنجواي» منهم.. كان في مقدمتهم.

الحلقة العشرون

توفيق الحكيم

لم يقل مثقفو مصر باطلاً.. عندما قالوا في أربعينات القرن الماضي بأن «الكاتب».. هو عباس العقاد، وأن «الأديب».. هو طه حسين، وأن «الفنان».. هو توفيق الحكيم!! ولو قالوا عنه بأنه (الفلتة) في دنيا الإبداع على اتساعها وتنوعها وتعددها.. لما خانهم التعبير أو تجاوزوا الحقيقة، فقد كان «الحكيم» شاعراً، قاصاً، روائياً، مسرحياً، فيلسوفاً.. فناناً وأستاذاً في كل ذلك، وهو ما جعل حياته المديدة بامتداد القرن تحفل بالعديد من الألقاب والأوصاف والنعوت: تكريماً وتقديراً له واعترافاً واعتزازاً به، فهو (أب الرواية) الثالث بـ «روايته» المؤسِّسَة الرائعة (عودة الروح).. بعد محمد المويلحي وروايته (حديث عيسى بن هشام)، والدكتور محمد حسين هيكل.. وروايته (زينب)، وهو (صارية) المسرح المصري والعربي وفناره التي علَّمت وخرَّجت أجيالاً من كبار كتَّاب المسرح من أمثال نعمان عاشور وسعد الدين وهبة والفريد فرج ود. يوسف إدريس.. بإنتاجه الملهم الوفير الذي بلغ ما يزيد عن خمسة وعشرين مسرحية من ثلاثة فصول، إلى جانب اثنين وأربعين مسرحية أخرى.. من فصل واحد إلى فصلين، تتقدمها

جميعاً مسرحياته الكبرى الخالدة: «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«الملك أوديب» و«الأيدي الناعمة» و«يا طالع الشجرة» و«إيزيس» و«الصفقة» فـ «السلطان الحائر».. الجريئة سياسياً إلى أبعد الحدود، والتي كانت تحكي قصة الصراع بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» أيام زعامة عبدالناصر الهائلة، فلم يستطع عميد صحيفة (الأهرام) وقتها ورئيس تحريره الأستاذ محمد حسنين هيكل بكل مكانته وإمكاناته... إجازتها للنشر على صفحات الأهرام، إلا بعد أن يطلع الرئيس عبدالناصر عليها.. لقراءتها، وإجازتها أو عدم إجازتها.. فـ (أجازها) من منطلق إيمانه بـ «الحكيم» وفكره وقلمه، وأن ليس هناك في مصر من يجرؤ على منع «الحكيم» من نشر مسرحية له.. ليقرأها ويطلع عليها الناس، أو أن تَمثَّل.. ويشاهدها الناس، وهو ما حدث بعد ذلك.. عندما قدمتها فرقة المسرح القومي عام ١٩٦٢م.

* * *

وُلد هذا الفنان العبقري عام ١٨٩٨م.. أي قبل عامين من بداية القرن العشرين.. في مدينة (الإسكندرية) التي تفخر على الدوام بأنها المدينة الحاضنة لعباقرة الفن والأدب والسياسة في مصر، فهي التي أنجبت (سيد درويش).. رائد الموسيقى المصرية والعربية، و(سيف وانلي) و(محمود سعيد).. رائدا الفن التشكيلي الحديث، و(عبدالحليم حافظ).. أعظم مغني عصره وهي التي تربى في كنفها عبدالناصر، وهي نفسها التي أنجبت.. هذا الطفل (توفيق الحكيم) من أم تركية متعالية متعجرفة، وأب مصري

(فلاح) من ملاك الأراضي أو (اصحاب الطين) كما يقول الفلاحون.. هو (إسماعيل الحكيم).. الذي أراد بالزواج منها طلب الوجاهة الاجتماعية والارتقاء عن طبقة الفلاحين الموصومة من قبل المجتمع التركي الأوروبي المتسيد في مصر آنذاك.. بـ «التخلف» والجهل والهمجية وربما أكثر، ليكون هذا المشهد العائلي.. هو أول مشاهد (الصراع) التي يراها الطفل (توفيق) في حياته.. بين (الأرستقراطية) التركية المتغطرسة و(الغلابة) البائسين من الفلاحين، ليجد نفسه.. مع مضي سنوات حياته.. وقد انحاز إلى الفلاحين المساكين.. وإلى درجة (الخجل) بداية من الثياب الجميلة التي كانت تحرص والدته على توفيرها له، وحمله على ارتدائها.. إلى أن تحول نهاية للدفاع عن تلك الطبقة البائسة المسحوقة.. جهاراً نهاراً، بعد أن استوى عوده وأصبح الكاتب المعروف.. ليلقي بـ (نابالم) دفاعه الساخر والجميل عنها، كقوله في «تحت شمس الفكر»: (إن النعيم الحقيقي فيما أرى هو في نصيب الفلاح المسكين، هذا المخلوق العاري القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة، كما نرى نحن وجه الحظ عابراً في طريق الحياة)..!!

(هذا الآدمي المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه آدميته إلا في أيام الانتخابات، فإن صوته الضائع مع الريح كأنه صوت كلب ضال.. هو اليوم «صوت» له خطره، وله سعره، وله طلابه، وله من يجري خلفه ويقدره، ويدفع فيه نقوداً، وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجبن ذي الدود.. تنتظرها اليوم الولائم، وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون)..!!

(وتلك الأقدام الحافية التي لم تعرف غير المشي خلف حمير «السباخ» توضع اليوم تحت تصرفها السيارات و«التاكسيات»، تنقلها من حفلة إلى حفلة.. نعم، إنها لا تحسب من عمر الفلاح، وهو بذكائه يعرف أنها لن تدوم، فهو يستمتع بها من غير غرور، ويراها تزول.. فما يأسف، ولا يزيد على أن يقول: كانت أيام «استنخاب»، ركبنا فيها «الاتومبيل»، وأكلنا فيها «زفر»، ودخلت جيوبنا «نقدية»)!!

لكن العجيب أن بذرة (الفن والأدب والموسيقى والفكاهة) لم تدخل قلب هذا الطفل (توفيق).. إلا عن طريق تلك الأرستقراطية البغيضة عنده، عندما أخذت تزور منزلهم في الإسكندرية.. الفنانة أو (العالمة) السكندرانية (الست لبيبة شخلع)، للترويح عن جدته المسنة.. وإزاحة الهم والغم عن نفسها، بظرفها وحكاياتها ونوادرها.. وغنائها وقفشاتها وزغاريدها، فقد كانت تخلط كل ذلك معاً.. في جلستها لينبهر الطفل (توفيق) بكل ذلك (العالم) الجميل والجديد الذي كانت تقدمه تلك (العالمة).. أثناء زياراتها الترويحية لـ «جدته»، وهو ما أسلمه فيما بعد لعالم (السينما).. بصوره وحركته «صامتاً»، وبحواره وكلماته وغنائه وموسيقاه.. (ناطقاً)!! ليستغرقه عالمها الباهر الأخاذ الذي يكاد لا يصدق.. كل الاستغراق: فهو إما قادم من مشاهدة فيلم.. أو ذاهب لمشاهدة آخر.. حتى خشي والده عليه وعلى مستقبله، وهو يأخذ عليه العهود والأيمان المغلظة بعد سهرة سينمائية طويلة.. بأن لا يذهب إلى السينما إلا كما يفعل معظم الناس: مرة في

الأسبوع أو مرة في الشهر.. فلم يحنث بوعده وعهده لأبيه، ولكن.. ومع انتقاله للقاهرة للالتحاق بـ «مدرسة الحقوق»، كانت القاهرة تموج آنذاك.. مع قرب سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) بجنود الإمبراطورية البريطانية الغادين والرائحين والعابرين بها من كل حدب وصوب، فـ «القاهرة».. هي إحدى عواصم الاحتلال البريطاني، المعادلة لـ«دلهي» الهندية الآسيوية، والتي كانت تُحكم استراتيجياً من قصر (الدبارة)، ومدنياً من (قصر عابدين).. فكانت تنتشر معها الفرق المسرحية الجادة والهازلة، وهي تتزايد ما بين شارعي (عماد الدين) و(محمد علي) وما حولهما، ليجد (الشاب توفيق الحكيم) بغيته في عالم المسرح الجديد عليه: بأضوائه ونجومه وستارته وجمهوره.. أو يجد على وجه الدقة نافذة جديدة لـ «غواية الفن»، التي تملكته صبياً ويافعاً وشاباً.. أو كما قال الناقد الأستاذ كامل الزهيري وهو يصف حياة الحكيم الأولى: (غواية تذهب.. وغواية تجيء)، ليشق طريقه إلى التعرف إلى نجوم ذلك العالم الجديد.. حتى يقترب منهم ويسمعهم، ويخالطهم ليتعرف على أسرار عالمهم السحري.. عالم المسرح، فكان أن تعرَّف على الموسيقار كامل الخلعي.. الذي عُرف آنذاك بتلحينه لـ «المسرحيات» والتمثيليات والأوبريتات الغنائية، وإلى الحد الذي كان يحمله على مرافقته من منزله في «حي القلعة» إلى «الأزبكية».. سيراً على الأقدام - رغم بعد المسافة - حتى يسمع أكثر.. ويناقش أكثر ليتعرف على المزيد من تلك الأسرار، فكان التعرف على (الخلعي) وفنه الموسيقي، وشخصيته البوهيمية..

التي لا تجعله يهتم إن غادر منزله بملابس النوم أو ملابس الخروج.. أو إن نزل إلى الشارع بحذاء أو بـ «قبقابه» الذي يذهب به إلى الحمام، أو إن اشتري «اكوازاً» من الذرة الحبشي - من باب تنفيع بائعه - وحمّلها لمرافقه توفيق الحكيم ليذهب بها إلى المسرح، فإن سأله الحكيم: وماذا يقول عنا الناس إذا رأونا على هذه الهيئة؟

فكان يرد عليه: هو إحنا سارقينهم!!

فكانت معرفة (الخلعي) في تلك السنوات المبكرة.. إضافة فنية - بأكثر منها معرفية - لمخزونه من الشخصيات (الكاركتر).. عندما يحين وقت استخدامها، وخروجها إلى النور.. ولم يكن ذلك ببعيد آنذاك.

* * *

فمع أجواء انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. وجيشان الشعب المصري المطالب بالاستقلال وزوال الاحتلال البريطاني.. الذي سبق قيام ثورة ١٩١٩م، ثم أفضى إليها بقيادة سعد زغلول ووصفي بطرس وعبدالعزيز فهمي وعلي الشعراوي.. كان توفيق الحكيم الشاب يكتب أولى مسرحياته الرمزية (الضيف الثقيل)، وهي وإن كانت تتحدث عن (محام).. هبط على صديقه لاستضافته في مكتبه ليوم أو ليومين.. فامتدت به الإقامة لشهر، ثم أخذ خلالها - وأثناء غياب صاحب المكتب - في استقبال أصحاب القضايا، والاتفاق معهم.. بل وقبض مقدم الأتعاب عن مرافعاته

التي سيتولاها نيابة عنهم، ليكتشف.. كل من قرأها فيما بعد بأن (الضيف الثقيل) لم يكن هو ذلك «المحامي».. بل هو «الاحتلال» الذي تحول من الإقامة على أرض لا يملكها إلى استغلال لها ولـ «ثرواتها»، وذلك هو شأن الاحتلال.. في كل زمان ومكان..!!

* * *

مع ثورة ١٩.. كان الشاب توفيق الحكيم الطالب بـ «مدرسة الحقوق».. يسير مع الثائرين المطالبين بـ «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» لبريطانيا في شوارع القاهرة وميادينها، فهو (محسن) أحد أبطال روايته الخالدة (عودة الروح): التي قرأها البعض (رواية)، وشاهدها البعض شريطاً سينمائياً، وتابعتها الأغلبية مسلسلة على الشاشات الصغيرة، والتي كتبها عن تلك الثورة.. بعد ابتعاثه لـ «فرنسا» لدراسة القانون بين عامي ١٩٢٥-١٩٢٨م، فكان أن كتب تلك الرواية في «باريس» عام ١٩٢٧م - تماماً وكما فعل صنوه من قبل الدكتور هيكل عند كتابة روايته (زينب) عام ١٩١١م - إلا أن «عودة الروح» لم تكتب برومانسية الحنين التي كُتبت بها (زينب)، ولكنها كتبت بروح المقاومة والبعث من جديد.. بروح « أوزوريس» الذي تمزق جسده ثم تكامل من جديد، وعادت إليه الحياة.. وبروح «الفيضان» الذي يعود.. وبروح «مواسم الحصاد» التي تتجدد كل عام، وقد صدَّرها بـ «نشيد الموتى» الفرعوني.. وهو يخاطب مصر: (عندما يصير الزمن إلى خلود.. سوف نراك من جديد، لأنك صائرة إلى هناك.. حيث الكل في واحد)..!!

لقد كان ابتعاثه لـ «فرنسا» ودراسته في «باريس».. وكأنه هدية القدر له ولمواهبه الفطرية الكامنة والجائعة لمزيد من المعرفة.. ليتلقاها في مستوياتها (الباريسية) الأضخم والأعرق والأعمق، والممتدة لكل ألوان الفنون وآدابها.. من المسرح إلى السينما.. إلى التشكيل والنحت.. إلى الموسيقى والزهور.. إلى المكتبات والمقاهي.. إلى الأطعمة والمشروبات وذوقهما: في مثلهما الباريسي الأعلى بحق.. في كل الدنيا.

ولذلك.. عب الشاب المبتعث (توفيق الحكيم) من كل ذلك.. وكأنه لا يشبع ولا يرتوي من تلك المنابع والمصادر التي كانت أمامه دون حسيب أو رقيب، فـ «قرأ» وكتب وشاهد وطَعِمَ وشَرِبَ.. على مدار ساعات أيام ابتعاثه ولياليها التي امتدت به لأربع سنوات، فلم يفته شيء من (باريس) وحياتها الأدبية الذاخرة المفعمة.. حتى عادة الكتابة في المقاهي حملها معه، وعاد بها ليكتب رائعته الخالدة (أهل الكهف).. في مقهى «البتي تريانون» في شارع سعد زغلول بالإسكندرية.

لقد قدم توفيق الحكيم، نفسه.. وصفاً سيمفونياً رائعاً لتلك الأيام التي أمضاها في باريس.. عندما قال في (زهرة العمر): «نعم.. لقد كنا هناك - أي في باريس - نجمع أعقاب العلم من كل مكان.. كما يجمع الغلمان في مصر أعقاب السجائر، إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران.. فصرنا نلتهم الأسفار التهاماً. إن باريس عندنا لم تكن امرأة فقط.. إنما كانت كتاباً هو سفر الحياة العليا»!! فإذا

لم يعد منها بـ «الدكتوراه».. فقد عاد منها شجرة مورقة محمَّلة بكل أطياف الآداب وفنونها، ليتدفق عطاءه الأدبي والمسرحي.. بادئاً بنشر روايته الأهم (عودة الروح) عام ١٩٣٣م والتي كان قد كتبها في (باريس) قبل ذلك بست سنوات، ثم.. تتابع نشر أعماله في ذات العام بنشر رائعة روائع مسرحياته (أهل الكهف).. فالخالدة (شهرزاد).. ليفيض نهر إبداعه كمياه النيل، فيبلغ مع نهاية عمره المثمر والجميل.. أكثر من مائة وثلاثة مؤلَّفاً، تضم جماع فنون الكلمة (مسرح، رواية، قصة، شعر، حوار، فكر، ذكريات).. على أن الملفت من بين أعوامه تلك - هو عام ١٩٣٨م -، الذي صدرت له فيه.. خمسة أعمال كان في مقدمتها رواية «عصفور من الشرق»، والتي كانت وكأنها الجزء الثاني من «عودة الروح»، إلا أنها تتحدث عن «الصراع» بين «الشرق» و«الغرب».. بين الروح والمادة، وليس بين «الخلود» و«الزوال» أو «الوطن الخالد» و«المحتل الزائل».. كـ «عودة الروح»، ثم تلتها.. كتبه الأربعة الأخر - في ذات العام -: (تحت شمس الفكر)، فرواية (أشعب)، فمجموعة (عهد الشيطان)، فأول روائعه الفلسفية (حماري قال لي)..؟! مما يجعلني أتذكر بكثير من الإعجاب والدهشة.. حساسية الفرنسيين في تفاخرهم بشاعرهم وروائيهم العظيم (فيكتور هيجو).. صاحب البؤساء وأحدب نوتردام.. عندما كانوا يقولون عنه: نعم كان عظيماً.. كان يكتب سطراً كل يوم!! فماذا كانوا سيقولون عن عظمة «الحكيم».. لو أنهم علموا حينها بأنه أصدر خمس مؤلفات في عام واحد..؟!

على أن «الحكيم».. سبق عامه هذا وما صدر له فيه، بإصدار

ثاني أو ثالث رواياته الأعظم: «يوميات نائب في الأرياف»، أو (مذكرات) نائب في الأرياف.. كما كان عنوانها الأول عند نشرها على حلقات أسبوعية في مجلة (الرسالة) بامتداد شهور - عام ١٩٣٧م - أيام رئاسة أحمد حسن الزيات لتحريرها، وحيث كان بائعو الصحف يصيحون عليها في الشوارع والميادين: (الحق.. نسختك من مذكرات نائب الأرياف)، فقد كانت بحق إحدى أعظم ثمار عمله كـ (وكيل للنيابة) في المحاكم المختلطة بـ «الإسكندرية».. إذ يكفيها وسط سطورها البهيجة الممتعة المتدفقة بضحكاتها ودموعها.. أنها كانت تدين - من وكيل للنيابة - (القانون): الذي يحكم على (فلاح) سرق كوزاً من الذرة أو غسل ثيابه في مياه ترعة (الباشا)!! ويغمض عيناه عن سرقة الباشوات والأفندية من أعوان المحتل والمتنفذين باسمه.. للأراضي والأطيان وأقطان مصر الفريدة.. التي كانت تعيش عليها مصانع (يوركشاير) البريطانية.

* * *

لقد كان «الحكيم».. عظيماً بكله: بإبداعه المسرحي والروائي. بفكره التعددي ورؤاه الوطنية. بـ «فلسفته» ورهبنته، وبإنسانيته المبكرة.. التي لم تجعله ينسى الموسيقار (كامل الخلعي) و(قبقابه) وملابس النوم التي ينزل بها إلى الشارع.. ليقدم له وقبل سفره إلى فرنسا مسرحية (خاتم سليمان) ليقوم بتلحين أغانيها، فلما تم له ذلك.. سأل (الخلعي) الأستاذ توفيق الحكيم ومخرج المسرحية: هل أعجبتكم ألحان المسرحية..؟

- إذن إيدكم على المكافأة (وهي غير القيمة التعاقدية على تلحين تلك الأغاني)؟

فقالا مستنكرين: ولكن.. (يقصدان.. الإشارة إلى العقد).

- مفيش لكن.. مادام الألحان أعجبتكم، فتدفعوا المكافأة.. تدفعوا «الحلاوة»..!!

ودفع الاثنان.. جنيهاً ونصف مناصفة.. وأخذا منه «إيصالاً» بقبض المبلغ.. لتصبح صورته «الزنكوغرافية» المتداولة.. شاهداً على ذلك الزمن الطيب الجميل.

كما لم ينس (الحكيم).. بعد عودته من باريس، وصعوده الصاروخي، وبلوغه القمة فكراً وفناً ومكانة لا تطال.. أن يهدي كتابه (أهل الفن) إلى العالمة السكندرانية (لبيبة شخلع) التي فتحت عيناه طفلاً على عالم الفن المسحور، وكأن أمراً طبيعياً - وقد امتد العمر به وبصديقه موسيقار الأجيال الأستاذ محمد عبدالوهاب - أن لا تفوت (الحكيم) ذكرى مرور أربعين عاماً على إنتاج فيلم (رصاصة في القلب) المأخوذ عن مسرحيته، والذي كتب له أجمل ثنائيته الحوارية (بين عبدالوهاب وراقية إبراهيم): (حكيم عيون) و(ح أقولك إيه عن أحوالي).. أن يعيد طباعة المسرحية (عام ١٩٨٥م)، وأن يهديها لصديقه الأستاذ عبدالوهاب.. وقد ذيلها بثنائياته الغنائية الحوارية.. التي تؤكد بحق أنه ملك الحوار غير المنازع.. تحية لذكرى الأيام الذهبية التي جمعتهما في ذلك العمل الفني الفريد.

* * *

ومع انشغالات (الحكيم) بـ «وظائفه» الإدارية وعضوياته الدائمة في «المجلس الأعلى للفنون والآداب»، و«مَجمع الخالدين».. خلفاً لـ«عبد العزيز فهمي» فـ«واصف بطرس»، وبالكتابة لـ«الرسالة» و«مجلتي» و«الثقافة».. وبإنتاجه الروائي والمسرحي، إلا انه تزوج وطلق حياة العزوبية وعداوته لـ «المرأة» التي «فبركها» الأستاذ محمد أحمد الصاوي للترويج لمجلته.. بعد أن ناف عن الأربعين من عمره.. حيث رزقه الله ببنت هي (أمينة)، وبابن هو (إسماعيل).. الذي مات يوم ثلاثاء وهو في الثلاثين من عمره، وكان قد ولد في الشهر الثالث (مارس).. ليتوجه (الحكيم) إلى الله جل وعلا، يبثه همومه وشكواه.. في أحاديثه الأربعة (مع.. وإلى الله)، والتي بدأ نشر أولى حلقاتها (يوم ثلاثاء) في الأسبوع الثالث من (الشهر الثالث) تخليداً لذكرى رحيل (ابنه) عنه، ثم جُمعت فيما بعد.. لتنشر في كتاب بعنوان: (الأحاديث الأربعة).. ليكون هو الأخير من بين أعماله، كما كان كتاب سيرته الحوارية عن الرسول صلى الله عليه وسلم (محمد) هو من يتصدر قائمة مؤلفاته رغم أنه كان الرابع تاريخياً بينها، لكن إيمان (الحكيم) لم يدعه يجعل شيئاً يسبق الرسول (صلى الله عليه وسلم).. ولا شيئاً بعد حديثه إلى الله!!

* * *

مات الأستاذ الحكيم بعد ذلك عام ١٩٨٧، وهو في التاسعة والثمانين من عمره.. كما يموت كل الناس، ولكن بعد أن ترجمت معظم أعماله إلى الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والإيطالية

والألمانية والروسية والصينية والرومانية، وشاهد العالم أكثرها على مسارح كبريات عواصمه، وبعد أن حجز مقعده مبكراً في قطار الصفوة حيث سار به إلى محطات الخلود، وبعد أن كرمه (عبدالناصر) رئيس الجمهورية العربية المتحدة.. بمنحه (قلادة النيل)، التي لم تكن لتمنح إلا لكبار الزعماء والقادة ممن أسهموا جذرياً في تحرير أوطانهم والارتقاء بشعوبهم من أمثال خروتشوف وتيتو ونهرو ونيريري وسيكوتوري وجومو كينياتا وكوامي نيكروما.. ليكون هو أول من يحصل عليها من المصريين.

لقد كان توفيق الحكيم.. حقاً، بـ «مفردات» حياته، و«مجمل» إنتاجه الأدبي، والمسرحي، والفكري.. الضخم: «كتاباً» معرفياً ثميناً فريداً.. من طبعة واحدة..!

الحلقة الحادية والعشرون

عبدالله عبدالجبار

نجم هذه الحلقة هو عبدالله عبدالجبار.. الأديب المبدع، والناقد المفكر، والباحث المدهش أو «طائر العنقاء» المستحيل في أدب الجزيرة العربية..؟ أو «طائر الخرافة الذي حط على زمن النسيان».. كما وصفته الكاتبة الصحفية البارعة الأُستاذة «ريمة الخميس»، الذي نفى نفسه – وهو في قمة عطائه – لعشر سنوات حتى حلّ له المنفى والصمت الأبدي من حوله، ولولا القلة القليلة الفاضلة.. التي أحاطت به في سنوات اغترابه ووحدته تسانده وتحاوره وتمسح جبهته وتكفكف دمعه.. لكان في عداد الراحلين من سنين طويلة مضت، فكان طبيعياً أن يختار البعد عن سواهم في منفاه.. وأن يختار القطيعة مع غيرهم حتى بعد عودته – في أوائل عام ١٩٨٧م – ليبقى صامتاً معتزلاً.. بعيداً عن الجميع، لتمضي به الأيام والسنون.. إلى أن غدا عَلَم الفكر والثقافة الكبير الذي تعرفه الجامعات والمعاهد العليا، ويعرفه الأكاديميون والباحثون والدارسون وعلية المثقفين.. وكأنه «نكرة» في وطنه يسأل عنه حتى أبناء الأربعينات من أبناء جلدته وجيله ! أما من دونهم.. فهم لا يعرفون قليلاً أو كثيراً عنه..!

لقد بدأ هذا الأديب والمفكر (الجبار).. اسماً وفعلاً، حياته.. طالباً بالمعهد العلمي السعودي بمكة في أوائل الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي.. فـ «خريجاً» من كلية دار العلوم القاهرية في أوائل الأربعينات منه.. فـ«مديراً» لمدرسة تحضير البعثات فـ «المعهد العلمي السعودي» في أواخرها، فـ«مراقباً عاماً للبعثات السعودية» بالقاهرة في أوائل الخمسينات.

ولكن كان في داخل هذا «المربي» الذي أوشك أن ينتهي إليه شيء آخر.. كان فيه منذ البداية كاتباً إصلاحياً يحمل جمرات الهم، وأديباً واقعياً يحمل نسمات الحلم، وقد اتخذ من مدرسة «الفن للحياة» مدرسة له.. نائياً وساخراً من مدرسة «الفن للفن» التي كانت تنادي بها «برناسية» القرن التاسع عشر. فالكتابة عنده ليست ترفاً أو حلية، وليست وجاهة أو جاهاً.. بل دعوة ملحة للحق والخير والجمال، وللحرية والنضال من أجل تقدم الأمة ووحدتها.. بمختلف أدوات التعبير ووسائله: مقالة أو قصة أو مسرحية.. أوصله مجموعها فيما بعد إلى رؤيته النقدية الفكرية الشاملة التي تضمنتها كتبه الكبرى الثلاث: «قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي»، و«التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية».. بجزئيه.

* * *

منذ البداية.. كان عبدالجبار يسير على طريق الرواد الأوائل من أمثال العواد، والصبان، والآشي، والعرب، والعامودي.. ممن كانوا يتهافتون ويتناوبون على قراءة كتب ومجلات مصر والمهجر،

لتقوده تلك القراءات إلى جانب دراسته المعهدية إلى ينابيع الفكر والثقافة والأدب.. إلى مناجم الماس ومغارات اللؤلؤ والذهب والسمير، وعندما استقام عوده أديباً وكاتباً في القاهرة.. سلم صديقه – شيخنا العزيز حمد الجاسر – ربما أولى قصصه وقد كانت بعنوان «ساعي البريد» لنشرها في مجلة «اليمامة» الوليدة آنذاك.. إلا أنها أثارت زوبعة على غير المتوقع، فمنع الرقيب استكمال نشر بقيتها في الأعداد التالية.. فلم يدر أحد من جيلنا عن أخبار تلك «القصة» لولا ما ذكره شيخنا (الجاسر) عنها في ذلك الملف الذي أصدرته صحيفة (الجزيرة) عن (عبدالجبار) قبل سنوات، ولكن يبدو أن منع الرقيب لقصة عن «ساعي بريد» قد أدهشه وأفزعه.. فدفعه إلى البعد بإبداعاته عن الصحف والمجلات والصحافة – المحلية – إجمالاً، إلى «الكتاب».. وعالمه في مصر، لينشر ما يشاء.. كيفما يريد.. حيث نشر في عام ١٩٥٤م قصة «أمي»، وهي وإن كانت ليست في ضخامة رواية «الأم» للكاتب الروسي العظيم ماكسيم جوركي.. إلا أن خاتمتها كانت تحمل ذلك النبض القومي المزعج لبعض الناس، فبعد أن استمع بطل القصة «صالح» إلى أمه وهي تروي له كامل حكايتها وحكايته ومعاناتهما الطويلة.. في الحياة معاً، كتب القصة وعنونها بعنوان «أمي».. ثم أهداها إليها، وهو يقول لها: «ولكنك يا أمي نسيت قصة أخرى أهم من هذه.. هي قصة أبي».. الذي يتضح من سياق القصة أنه كان أحد شهداء المواجهات الصهيونية العربية المبكرة في العشرينات أو ما بعدها.. ليطلب من زوجته ومن فوره أن تهيئ له حقيبة السفر

لأنه راحل غداً إلى «فلسطين» ليؤلف «قصة.. قصة جديدة، ولكني سأكتبها هذه المرة بدماء اليهود».. إذ «لا يشفي الدم إلا الدم» كما قالت له أمه، ثم أتبع تلك القصة في نفس العام.. بـ «تمثيلية» منشورة غير مذاعة، هي: «العم سحتوت».. التي تظل رغم المقدمة الطويلة التي صَدّرها بها في شرح الفوارق بين «التمثيلية» الإذاعية و«المسرحية».. أقرب إلى العمل المسرحي منها إلى العمل الإذاعي، فشخصية «العم سحتوت» المليونير البخيل في «المعلا» الذي كان يتلقى الصدقات على «باب السلام» في الحرم المكي.. تذكّر على نحو أو آخر بشخصية «شيلوخ» بخيل «شكسبير» المرابي في مسرحية «تاجر البندقية».. إلا أنهما بخيلان في زمانين ومكانين مختلفين، وبيئتين وثقافتين مختلفتين.. وإن لقي كلاهما مصيره المحتوم والمتشابه في النهاية.

فإذا كانت تمثيلية أو مسرحية «العم سحتوت» قد مرت بهدوء دون أن تثير أي قدر من الزوابع في وجه كاتبها.. رغم حدة إهدائها القريب من موضوعها، والبعيد عنه في ذات الوقت، والذي يقول «إلى الذين لايزالون سادرين في الظلام»!! فإن خاطراً يلح عليَّ.. بأنها كانت وفي أغلب الأحوال عملاً تجريبياً من قِبَل كاتبها الأستاذ عبدالجبار لقياس نسب النجاح بين المتلقين لمثل هذه الأعمال، والتعرف على ردود أفعالهم المحتملة.. تمهيداً لعمله المسرحي (الصريح) التالي، الذي صدر بعد عام أو عامين من صدور «العم سحتوت».. والذي فجر في وجهه أول وأعنف الزوابع في حياته، وأعني به «مسرحية: الشياطين الخرس» التي حظيت بـ «مقدمتين»:

أولاهما بعنوان «تصدير» بقلم الأستاذ محمد ناجي رئيس رابطة الأدب الحديث التي كان الأستاذ عبدالجبار – نفسه – نائباً لرئيسها، والتي كانت تعقد في داره بعض جلساتها واجتماعاتها.. حيث يقول في ختامه بنغمة حب عالية البهجة والرنين: «وبعد أيها الكاتب الصديق لقد عشت في مسرحيتك واندمجت في شخصيات مجلسك ساعة أو ساعات كنت أعلو وأنخفض.. في متعة هي كالموج، لكنها سارية تجري بنا حيث أردت، ولعل القارئ الكريم يتمتع بكلماتك وحوارك.. مثلما مُتعنا»، وثانيتهما بقلم «العواد» وبعنوان «هذه المسرحية».. حيث روى فيها كيف تبلورت فكرة نشر هذا الحوار أو هذه «المسرحية» عندما قال: «في ليلة من ليالي القاهرة كنا نسمر عند صديقنا الأستاذ عبدالله عبدالجبار في داره المطلة على النيل، وكنا ستة من الأدباء لم يحو المجلس غيرنا.. ودار الحديث عن الأدب – طبعاً –، وكان صديقنا الفاضل صاحب الدار قد أعد حواراً رشيقاً، يدور بين بضعة أفراد، افترض فيهم أنهم يمثلون هيئة من الهيئات، التي أوكلت إليها بعض الشؤون العامة، وقد صور الحوار عقلية تلك الجماعة ونفسيتها.. بأسلوب ساخر، فاقترحت عليه أن يطبع الحوار وينشره بعد أن يراجع بعض مواقفه، بحيث تكون أكثر دلالة على واقع الهيئات التي يُحشر فيها هذا الصنف من عباد الله».. ثم يسترسل العواد في مقدمته بشيء من الدهاء المكشوف قائلاً: «والمجلس الذي يصف الأستاذ عبدالله إحدى جلساته وهو الذي لا ندري أين يقع من أرض الله المتأخرة: في دينها. وخلقها، وتفكيرها.. هو أحد هذه المجالس الممسوخة،

التي لا تكترث للضمير ولا للعدل الاجتماعي.. وإنما هي ملهاة مخزية تسود صحيفة الأمم.

«وينتظم هذا المجلس الممسوخ.. أعضاء، عدتهم سبعة كعدة أهل الكهف، ومنهم رئيسهم.. ويضاف إليهم خادم وأمين سر (سكرتير).

«فأما أحد هؤلاء الأعضاء السبعة واسمه في الحوار «ميمون» فرجل أجوف إمّعة متنفج تتكشف فيه هذه الخصال الثلاث، من لفظة واحدة يرددها مرتين أو ثلاثة أو أربعاً، حسبما يعن له، ويؤمّن بها على كل ما يقال في المجلس، وإن تناقض مقال ومقال. وهو يلفظها معبراً عن نفسه بصيغة الجمع. فيقول دائماً بعد كل رأي: «موافقون.. موافقون».. ويقول روحه من وراء هذه الألفاظ: «نحن جميعاً منافقون»، وتقول القاعة والكراسي: «اللهم اشهد أنهم منافقون وخائنون»..!!

.. وهكذا مضت هذه المقدمة الثانية للمسرحية على هذا النحو الذي زاد من طينة ردة الفعل عليها.. بلّة.

* * *

لقد تميزت أعمال الأستاذ عبدالله عبدالجبار الإبداعية عموماً بنكهتها السياسية الخفيفة حيناً والعالية النبرة حيناً آخر.. إلا أنها توقفت بعد ذلك وإلى الأبد وكأن أخدوداً قدرياً قد قطع عليها طريق استمرارها وتدفقها.. ومع ذلك فهي لا تمثل أهم وأعظم أعماله التي صنعت «قيمته» و«قمته» من جانب، وأزمته

وملحمته على الجانب الآخر.. حتى ليصح القول بأن أفضل عنوان يمكن أن يوضع لـ «ترجمة» حياته.. هو ذات العنوان الذي اختاره - مع الفارق - السياسي البريطاني الأشهر «ونستون تشرشل» للجزء السادس والأخير من «مذكراته» عن الحرب العالمية الثانية: «النصر والمأساة».. فقد حققت دراساته الكبرى الثلاث: «قصة الأدب» و«التيارات الأدبية الحديثة.. في قلب الجزيرة العربية» بجزئيه: المطبوع عن «الشعر».. والمنسوخ عن «النثر».. والتي أصدرها في أعوام ١٩٥٨م و١٩٥٩م و١٩٦٠م على التوالي، تلك «القيمة» التي يسعى إليها كل مفكر وكاتب وأديب، وتلك «القمة» التي يحرص على أن يطالها كل واحد منهم، وذلك «النصر» الذي يروم إليه كل صاحب رأي ورؤية بينهم.. إلا أن عناصر التفوق هذه والتي نالها عن استحقاق وجدارة.. كانت تحفر له في ذات الوقت دروب أزمته، وهزيمته، وانكساره.. وتلك هي «الملهاة» أو المأساة في حياة عبدالجبار..؟

فما الذي قاله الأستاذ عبدالله عبدالجبار في تلك الكتب أو الدراسات الثلاث حتى أهاج عليه كل تلك العواصف والأعاصير.. لتتهاوى معها في النهاية كل كواكب مجده، وإلى حد محاصرته ونبذه.. في داخل الوطن وبين المتنفذين من بنيه على الأخص..؟

أما في خارج الوطن.. فقد استُقبل ذلك الذي كتبه وقاله بحفاوة قلّ نظيرها، وترحاب وإعجاب لا يخلو من الدهشة والعجب في خروج كاتب عربي من غرب الجزيرة العربية، بكل هذه القدرة

والجرأة والرؤية المنهجية الواسعة والشاملة.. وبكل هذا الإبداع والإمتاع الذي سيطر به على جفاف الدراسات والأبحاث حتى جعل منها وكأنها قطع أدبية خالصة، يتخطف قراءتها جمهرة المثقفين.. كخاصتهم من الباحثين والدارسين الأكاديميين.

لكأني بالأستاذ عبدالجبار أراد في كتابه الأول.. من خلال رحلة غوصه التاريخية العميقة والبعيدة إلى العصر الجاهلي.. العودة من تلك الرحلة الأدبية الشاقة بـ «اكتشاف»: «عبقرية الزمان» في جزيرة العرب.. أو تجديدها أو التذكير بها، تماماً وكما فعل بعد عقدين من الزمان صنوه الدكتور جمال حمدان.. عندما غاص في بطون الأطالس وكتب الجغرافيا، وعبر سهولها وجبالها ووديانها بحثاً عن «عبقرية المكان» في «شخصية مصر».

أما في كتابه «الثاني» الأعظم والأهم: «التيارات الأدبية الحديثة»، والذي لاح لبعض المتنفذين بأنه أخطأ الطريق منذ البداية.. فدخل من بوابات السياسة ولم يدخل من بوابات الأدب، بدءاً من قبول صاحبه بـ «دعوة» الجامعة العربية له في تلك المرحلة من سنوات الخمسينات.. لـ «التدريس» في «معهد الدراسات العربية» الذي أنشأته الجامعة بـ «القاهرة» ليعرِّف طلبته والدارسين به بـ «آداب الأقطار العربية، وفنونها الشعرية والنثرية وجغرافيتها وتاريخها القطري المجهول بالنسبة للكثيرين منهم.. في ظل نهضة عربية جديدة تدعو لوحدة الوطن العربي».. وانتهاءً بتلك المحاضرات القيِّمة التي بدأها قائلاً وهو يتحدث عن

أدب الجزيرة العربية: «نحن إذن أمام أدب مجهول يشبه قارة مجهولة، وعلينا قبل أن نستخرج من ذخائرها وكنوزها أن ندل على معالمها العامة».. فكتب مائة وثلاثين صفحة، قدم من خلالها دراسة شاملة - وليست موجزة - عن جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها الاجتماعي والسياسي منذ العهد العباسي.. إلى العصر الحديث، حتى ليمكن القول بأن تلك الصفحات تكفي.. لأن تكون كتاباً مستقلاً موجزاً عن تاريخ الجزيرة العربية، وأحسب أن هذا القسم الأول من الكتاب وما قاله فيه.. كان هو المحرك الأول والأهم لتلك العواصف والأعاصير التي هاجت عليه..؟!

على أن قبوله بتلك الدعوة، وإلقائه لتلك المحاضرات.. حتى وإن بدا وكأنه استجابة لدوافعه القومية.. إلا أن دوافعه الوطنية الخالصة لم تغب عنها، بل وتكشف عنها وتؤكدها نصاً «الكلمة الأخيرة» التي سطرها في ختام هذا الجزء الأول من هذه الدراسة الباذخة والرائعة التي خصصها للحديث عن الشعر والشعراء في الجزيرة العربية.. عندما قال: «في قلب الجزيرة إذن.. شعر رائع، وشعراء يقفون جنباً إلى جنب مع الشعراء المجيدين في العصر الحديث.. ولكنها العزلة. عزلة الشعب العربي في سائر البلاد العربية.. عن آدابهم هي السبب في عدم نيلهم المكانة اللائقة بهم.

و«نحن نأمل أن تتكفل دراستنا هذه بتغيير آراء النقاد الذين كتبوا عن أدبنا خلال دراستهم للأدب العربي الحديث، أو عن طريق مقدماتهم لبعض الدواوين، ولم يكن بين أيديهم منه إلا نماذج ضئيلة لا يمكن أن تعطي فكرة دقيقة صحيحة».

لقد وصلت رسالة الكتاب إلى أدباء وشعراء مصر والشام والعراق.. لكنها لم تصل إلى أبناء قومه، فقد دخل الكتاب.. إلى «سرداب» داخل الوطن، وإن أدى كامل دوره في رسالة «التعريف» بأدباء الجزيرة وشعرائها عند أهل مصر والشام والعراق.. حتى أصبح الكتاب وكما قال تلميذه الدكتور عباس طاشكندي: «بمثابة قاسم استشهادي مشترك في جميع الأعمال التي تناولت بالبحث والدراسة تطور الحياة الفكرية والثقافية في المملكة العربية السعودية»، ولتثني عليه حفيدة تلمذته الأستاذة ريمة الخميس.. بقولها: «التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية للرائد عبدالله عبدالجبار.. سفر: موقعه في القيمة إلى جوار أمهات الأسفار في العصر العباسي. بأصالة المنهج فيه، وبحجم الجهد الذي تنوء به مؤسسة علمية أو ثقافية كاملة»..!!

* * *

أما ما قاله في كتابه «الثالث».. وهو الجزء الثاني من «التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية» الخاص بـ «النثر»، الذي لم يطبع في حينه (طبع مؤخراً) وبقي منسوخاً على «الآلة الكاتبة».. يتداوله الباحثون، وطلبة الدراسات العليا بـ«تصويره»، فقد أضاف إلى قيمته.. قيمة، وإلى نزاهته البحثية وموضوعيته.. أبعاداً غير تلك التي حققها في كتابيه السابقين، فإلى جانب الدراسة الفاحصة والمتأنية التي قدمها عن ميلاد (النثر) الحديث في قلب الجزيرة العربية ونشأته وتطوره التاريخي، والمؤثرات التي صبغت مراحله بألوانها.. من «المهجر» إلى «الثورة العربية» إلى «الأزهر»، وصولاً

إلى التيارات الأدبية الحديثة التي أخذت تتقاسمه: من الكلاسيكية، إلى الرومانسية، إلى الواقعية.. فقد أفرد فيه الحديث عن بعض الرموز الحقيقية في أدب الجزيرة وفكرها آنذاك.. عن «العواد» وحريته، و«الشحاتة» وثوريته، و«الجاسر» وشجاعته، و«الفلالي» وقوميته التي عاد الأستاذ عبدالجبار لتلخيصها في ختام هذا الكتاب: «وبذلك تتلخص قوميتنا في أمرين لا ثالث لهما: هما الدين واللغة.. فمن تكلم بلغتها كان منها أياً كان دينه، ومن دان بدينها كان منها أياً كان جنسه».. ثم «القصيمي» الذي خصه بما يزيد عن ثلث صفحات الكتاب.. حيث تتبع نشأته ودراسته وبيئته وأزهريته وظروفه التي عاشها، والمراحل التي مر بها قلمه من تقديس «التابوه» القائم إلى التمرد عليه.. حتى يمكن القول بأن ما كتبه عبدالجبار عن «القصيمي» يظل هو الأفضل والأشمل والأدق بين كل ما كُتب عن «القصيمي» في حياته وبعد مماته، فكان ذلك مما ضاعف من سرعة العواصف المتجهة نحوه. فقد أقام عليه الدنيا.. ولم يقعدها.

لكن هذا الكتاب والذي دخل إلى (السرداب) كسابقه أيضاً، أصبح مع جزئه الأول واحداً من أهم أربعة كتب في تاريخنا الأدبي: فكراً وإبداعاً.. فيما أحسب وأعرف: خواطر مصرحة.. للعواد، والتيارات الأدبية.. لعبدالجبار، وهذه هي الأغلال.. للقصيمي، وأخيراً هذه الرواية.. الصغيرة الحجم والبسيطة البناء «الكراديب» لكاتبها الدكتور تركي الحمد..؟

* * *

لقد توقف الأستاذ تماماً عن الكتابة والنشر بعد انطواء مرحلة معهد الدراسات العربية وما كان منها وفيها، فلم يظهر له شيء.. إلا في عام ١٩٦٥م مع رحلته إلى «بغداد» لحضور مؤتمر الأدباء العرب المنعقد فيها بدعوة من صديقيه الأديبين العراقيين: الدكتور يوسف عز الدين، والأستاذ هلال ناجي.. حيث قدم بحثاً عن «الغزو الفكري في العالم العربي»، ثم عاد من «بغداد».. إلى حياته في القاهرة بين «رابطة الأدب الحديث» وأعضائها و(أحديته) الشهيرة، التي كانت تضم ألمع نجوم الأدب والفكر في مصر وخارجها.. لتأتيه السياسة بتقلباتها إلى باب (شقته) في القاهرة على حين غرة، وبما لم يخطر له على بال، عندما اقتحم زوار الفجر عليه منزله ذات ليلة من ليالي صيف عام ١٩٦٦م.. ليقتادوه إلى المعتقل، ليجد أمامه أعضاء رابطة الأدب الحديث وقد سبقوه إليه.. حيث رحب به أحدهم وبصورة عفوية.. قائلاً: أهلاً بـ «الأستاذ»!! فكان ذلك مدعاة لسجانيه.. لأن يضعوه في سجن انفرادي.. باعتباره (كبيرهم)!!، ليجد نفسه وهو القومي العربي المدافع والمنافح عن القومية.. وحيداً في زنزانة في بلد القومية العربية الأول: الجمهورية العربية المتحدة.. لا «ابن» يسأل عنه، ولا «زوجة» تنتظره. فقد مرت الأيام، وضاع العمر.. كل العمر في سبيل الفكر والقلم، وقضايا الوطن وإنسانه.

وإذا كان قد أُخرج من زنزانته بعد ستة أشهر أو أقل.. عندما علمت القيادة العليا بسجنه، إلا أن نفسه كانت قد فاضت بأحزانها، فكان أن قبل وعلى الفور.. بـ «فكرة» الذهاب إلى «لندن»

عندما عُرضت عليه.. فلم يعد لديه ما يخشى فراقه: لا في وطنه الأول (الحجاز).. ولا في وطنه الثاني (مصر)..!! ليمضي هناك عشر سنوات.. لم ير له أحد شيئاً خلالها غير تلك المحاضرة التي ألقاها في بغداد.. عن (الغزو الفكري في العالم العربي).. والتي احتفت جريدة (الرياض) بنشرها على صفحاتها، قبل صدورها ضمن مطبوعات (المكتبة الصغيرة) عام ١٩٧٤م، فلم يفته رغم أحزان قلبه وجراحه النفسية الغائرة.. أن يكتب في آخر مقدمته الصغيرة لها قائلاً: «كم أنا سعيد أن يصدر هذا الكتاب بعد انتفاضة رمضان (أكتوبر) التي ردت لكبرياء الجرح النازف شيئاً من الكرامة والاعتبار».

* * *

في اعتزاله، وبعد عودته من منفاه الاختياري عام ١٩٨٧.. استطاع نفر من تلاميذه ومحبيه من أساتذة جامعة الملك عبدالعزيز أن يفوزوا بموافقته للعمل «مستشاراً ثقافياً» غير متفرغ للجامعة، فكان هذا الضوء الأخضر الكليل.. فاتحة لأن تستقطبه (شركة تهامة) عبر تلميذه البار وصديقه الحميم الأستاذ محمد سعيد طيب.. للعمل مستشاراً بقسم النشر الأدبي الثقافي الذي استحدثته - آنذاك - بين إداراتها، فكان أن استطاعت الكاتبة الشابة الأستاذة (انتصار العقيل).. أن تستدرجه بعواطف (ابنة) نحو (أبيها) لـ «كتابة» مقدمة لأول وأجمل كتبها والذي تولت شركة تهامة نشره عام ١٩٨٩م (موانئ بلا أرصفة)، فاستجاب.. وكتب لها مقدمة ضافية رائعة، ذكرت قراءه وعارفيه بـ «نَفَسِه» القديم والجميل، وذلك الألق والدفء والعمق.. الذي عُرف به قلمه، وكتب

به كتابه العصي على النسيان (التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية)، ثم لم يكتب شيئاً بعدها.. إلا فيما ندر، أما اللقاءات والحوارات والأحاديث الصحفية.. فقد ظل على قطيعة معها منذ أيام سجنه.. رغم مطاردة رؤساء تحرير الصحف والمجلات له، وكلهم تلاميذ ومحبون له.. فلم تفز بـ«اللقاء» والحوار معه إلا مجلة (الإعلام والاتصال) وبـ «شروطه» التي حددها قبل وبعد النشر - إبان رئاسة تحرير كاتب هذه السطور لها - ، فكانت (قصاقيص) ذلك الحوار - غير المنشورة - والتي لمعت خلال ساعاته الثلاث.. أجمل وأمتع من ذلك الذي تم الاتفاق على نشره.!!

قبل ذلك أو بعده.. شَرُفَ أحد تلامذته - من طلبة تحضير البعثات - الذين غدوا كباراً بمواقعهم ونفوذهم وسلطاتهم.. بزيارته في منزله بحي الأمير فواز النائي في «جدة»، فهاله حال المنزل.. وتواضع موجوداته وأثاثه، فكان أن بعث إليه بعد أيام من تلك الزيارة بـ «رسالة» حب واعتذار يشكره فيها على استقباله له، وهو يسأله (الصفح).. عن أي تقصير قد يكون بدر منه دون قصد نحو أستاذه ومعلمه الأول.. وقد أرفق بتلك الرسالة التي أجمع من قرأوها على أنها قطعة أدبية خالصة بأكثر من كونها رسالة من تلميذ مخلص مقصر لـ (معلمه) المحبوب.. شيكاً بمبلغ خمسة ملايين ريال لأمر أستاذه (عبدالله عبدالجبار)، فكان أن رد على رسالة زائره بما تستحقه من التقدير والإعزاز، ثم أعاد رقعة الشيك إلى مظروفها.. ليحشرها بين أحد أرفف كتب مكتبته.. التي لا يعرف أحد عددها من كثرتها، ثم.. نسيه تماماً..!!

* * *

في آخر سنوات ليله الطويل.. وشيخوخته التي أخذت تضغط عليه بأمراضها ومتاعبها وقد تخطى الثمانين حولاً وقارب التسعين، كان يأخذ قراره الأخير بـ «العودة» إلى (مكته) حاضرة (عبقرية الزمان) التي اكتشفها.. ليكون إلى جوار كعبتها المشرفة إذا جاءت ساعة الرحيل، لتهتز بعد عام أو أكثر أسلاك الهاتف في منزله لتعلنه وتهنئه باختياره (شخصية العام) في مهرجان الجنادرية للثقافة والتراث لعام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م وسط دهشة وإعجاب وسعادة المثقفين جميعاً.. لهذا التوفيق الذي صاحب أولى سنوات عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.. الأب الروحي للمهرجان، ورائده وراعيه، لتشهد قاعة الملك فيصل للمؤتمرات بالرياض في شهر المحرم من العام التالي - فبراير ٢٠٠٦م - حفل تسليمه وسام «شخصية العام» وسط حشود سعيدة من المثقفين: أدباء وكتاباً وشعراء وصحفيين وإعلاميين، فقد كان اختياره حتماً.. «تقديراً» لدوره واعتزازاً بما أنجزه، وإن جاء متأخراً.. و«إنصافاً» لمكانة يستحقها - دون منازع - بين أجيال الرواد.. وربما «اعتذاراً» عن نقيصة الوقوع في تجاوزه ونسيانه طوال الثلاثين.. إلى الأربعين سنة الماضية، وإذا كانت شيخوخته لم تمكنه من السفر إلى الرياض، والمثول إلى قاعة الاحتفالات في تلك الليلة وقد غصت بنجوم الأدب والفكر والإعلام عربياً ومحلياً.. فأناب عنه تلميذه الشاعر الأستاذ فاروق بنجر لاستلام (وسام شخصية العام)، فإن كوكبة المتحدثين على منصة القاعة.. من الأكاديميين والباحثين والكتاب، قد أثروا

تلك الليلة وأغنوها.. حتى جعلوا من غيابه حضوراً ساطعاً، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من صفحات حياته وفكره.. إلا وقدموها لحضور القاعة ولآلاف المشاهدين الذين كانوا يتابعون نقل وقائع تلك الليلة على الهواء مباشرة، ليموت الأستاذ عبدالجبار بعد ليلة عرسه تلك.. بخمس سنوات في الثامن من إبريل من عام ٢٠١١م.. محاطاً بأبناء أخته. قرير العين.. بأصدقائه الخلص، الذين ظلوا إلى جواره.. حتى أسلم الروح.

* * *

ما أعظم الشبه وأعرضه.. بين عبدالله عبدالجبار، وأديب أدباء فرنسا في القرن التاسع عشر الشاعر والكاتب الروائي والمسرحي (فيكتور هوجو) صاحب «البؤساء» و«أحدب نوتردام».. في اختلافهما، وفي سجنهما، وفي مدد نفيهما الإجبارية عند هوجو والاختيارية عند عبدالجبار، ثم في هذا المجد الذي آل إليه كل منهما.. وفي صفحات الخلود التي فتحت ذراعيها لهما في النهاية، فلم يكن لـ «الخلود» الفكري والأدبي معنىً.. بدونهما!

الحلقة الثانية والعشرون

جبران خليل جبران

ربما كان الشاعر الأديب والرسّام العربي اللبناني المهجري الأشهر (جبران خليل جبران).. أكثر شعراء وأدباء العربية في الثلث الأول من القرن العشرين: «شفافية».. في ألفاظه، و«جرأة».. في أفكاره، و«ملحمية» في رؤاه.. حيث تمتزج العواصف والعواطف عنده، وهي تقيم فضاءً كونياً ملهماً.. يجد فيه كل فنان، وكل مبدع، وكل فيلسوف متأمل.. مبتغاه: فهو فضاء «روحاني».. إلى السماكين، و«ترابي».. إلى سابع أرض، لأنه فضاء (جبران) الفريد.. بـ «أشواقه» و«روحانياته».. بـ «مكابداته» وأحلامه.. بـ«لذائذه» ومراراته، بعد أن وجد صاحبه نفسه وهو في أول الطريق، «يسعى إلى مجد غير مجد الناس، وعظمة.. غير عظمتهم».. كما قال صديقه وصنوه، ورفيق الخمسة عشر عاماً الأخيرة من سنوات غربته في مدينة (نيويورك) الأستاذ ميخائيل نعيمة: أول من أرخ لحياته.. وروى قصته بعد ثلاث سنوات من رحيله..!!

* * *

لقد بدأت قصة حياة (جبران).. ليس في يوم مولده عام ١٨٧٣م بقرية (بشرّي) الجبلية اللبنانية.. ولكنها بدأت في ذلك اليوم الخريفي من عام ١٨٨٥م وهو في الثانية عشر من عمره،

وقد قررت أمه الرحيل به وأشقائه الثلاث.. عن (بشرّي)، وركوب البحر إلى آخر الدنيا.. إلى مدينة (بوسطن) على الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن ضاقت بها سبل العيش - آنذاك - في تلك القرية أو المدينة الجبلية الصغيرة.

لقد صور (جبران) تلك اللحظة بعد أن بلغ الأربعين.. في أجمل وأعظم كتبه: (النبي).. أروع وأجمل تصوير عندما قال بداية:

(كيف أمضي بسلام وبلا حزن؟ لا، لن أغادر المدينة بدون جرح في الروح.

(ما أطول أيام الألم التي قضيتها داخل أسوارها، وما أطول ليالي الوحشة. ومن ياتُرى، يفترق عن ألمه ووحشته دون حسرة؟

(كثيرة هي أشتات الروح التي نثرتها في هذه الأزقة، وكثيرة هي بنات حنيني المتهادي عارياً بين هذه التلال، فكيف لي أن أتخلى عنها دون عناء ولوعة؟

ليس رداءً ما أنزعه عني، بل جلد أمزقه بيدي.

لا، ولا هو خاطر أتركه ورائي، بل قلب طاب بالجوع والعطش)..!

ليختتم تصويره لتلك اللحظة.. وقد اقترب من سفينة الرحيل، فرأى أن بحارتها هم من أبناء وطنه.. فذابت نفسه شوقاً إليهم وهو يقول لهم:

(يا أبناء أمي القديمة، أيها الراكبون ظهر الموج، كم مرة أبحرتم في أحلامي. والآن تجيئون في يقظتي، وهي حلمي الأعمق.

متأهب أنا للرحيل، وتوقي نشر أشرعته بانتظار الريح. نَفَساً واحداً فقط أتنفس به في هذا الهواء الساكن، ونظرة محبة واحدة أُلقي بها إلى الوراء.

وعندئذ أقف بينكم، بحاراً بين بحارة)..!!

* * *

لكن حياته في «الحي الصيني» المتواضع في (بوسطن)، الذي اختاره له.. وجود نفر من السوريين واللبنانيين من أبناء جلدته.. لم تكن بأفضل من حياته في مدينته (بشرّي)، فعاد إليها بعد عامين.. ليدخل «مدرسة الحكمة» في بيروت، حيث أتم دراسته لمرحلة (الثقافة) - كما كانت تسمى آنذاك - ، ومعها كانت تتفتح براعم موهبته في الأدب والرسم، ليعاود (البحار) الصغير.. لعبة ركوب البحر ثانية وقد غدا شاباً في مطلع الشباب، ولكن إلى (فرنسا) هذه المرة.. لـ «دراسة» الفن في محرابه: «باريس».. مدينة الحرية والفن والجمال، فكان من حسن حظه.. أن اتصل بالرسام العالمي (رودان)، الذي تناول على يديه سلافة الألوان والخطوط، تلك التي تصنع البهجة حيناً.. وتسيل الدمع حيناً آخر، وهو يواصل كتابة ونشر شعره (المنثور) والجياش عاطفة، والمحتدم شوقاً حارقاً للحرية والعدالة.. في صحف سوريا ولبنان، ولذلك لم يكن غريباً.. أنه عندما غادر (باريس) وعاد إلى نيويورك (١٩١٢م) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وبصحبته العشرات من (لوحاته) أن يحتفي به المجتمع العربي الأدبي المهاجر إلى أمريكا والأمريكيون أنفسهم.. وهم يرون فيه (رسّاماً) من طراز لم يألفوه، بينما كان

السوريون واللبنانيون يرون فيه (شاعراً) يبشر بمدرسة شعرية جديدة هي التي عُرفت فيما بعد: بـ «مدرسة المهجر» أو «شعراء المهجر».. التي تتلمذ على أسلوبها وفكرها ونهجها الحر الطليق العديد من أدباء العالم العربي وأدبائنا في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، لعل أبرزهم هو كاتبنا الكبير وأديبنا الفنان الأستاذ عزيز ضياء، فقد أخبرني وهو يروي لي أطرافاً من قصة بداياته، أنه عندما جاء إلى مكة قادماً من المدينة المنورة.. لزيارة مكتب صحيفة (صوت الحجاز) بعد نشرها لأول مقالاته، أنه لم يكن في حصيلته من النصوص الأدبية الحديثة.. غير ديوان «عواصف وعواطف» لجبران، الذي قرأه وأعجبه.. فحفظه عن ظهر قلب!!

* * *

كانت (نيويورك) التي عاد إليها (جبران) شاعراً شاباً.. ورساماً مفعماً بالأفكار والرؤى والأحلام، هي محطة انطلاقاته الكبرى، ففيها أنتج معظم شعره وكتب أجمل دواوينه: (عرائس المروج) و(رمل وزبد) و(المواكب)، وأوائل قصصه المثيرة في مواضيعها وعناوينها: (الأجنحة المتكسرة) و(الأرواح المتمردة)، وفيها تعلق بالفيلسوف الألماني (فريدرك نيتشه).. وما جاء في كتابه (هكذا تكلم زرادشت)، وفيها رأى مجدداً تلك المدرِّسة الأمريكية (مسز ماري هاسكل) التي عطفت عليه ورعته طفلاً عند قدومه إلى (بوسطن) في رحلته الأولى، فتعلق بها وأحبها رغم فارق السن بينهما.. بل وعرض عليها الزواج، لكنها آثرت الصداقة على الزواج.. إلا أنها ظلت ترعاه بـ (وفاء) محبة وإخلاص (شقيقه)،

فكان أن أهداها قصته الأولى: (الأجنحة المتكسرة).. التي كانت وكأنها تروي قصة حبه لها، ولذلك لم يكن مفاجئاً أن يكتشف ورثته بعد موته وهو في الثامنة والخمسين من عمره.. أنه كان قد كتب لها (كل) موجودات مكتبه ومرسمه - أو «مُحْتَرَفِه» كما أسماه صديقه النعيمة -، بكل موجوداته من الكتب واللوحات ومشاريع الدواوين.. بل وقصاصات الأفكار والخطوط أو (الكناسة) كما كان يسميها الأديب المصري الرائع (يحيى حقي).!! فقد كانت (ماري) رغم فارق السن.. هي الحب الأول والحقيقي في حياته!!

* * *

وكما شهدت مدينة (نيويورك) أعظم أيامه.. عندما أجمع أدباء المهجر على اختياره وهو في السابعة والأربعين من عمره (عميداً) لـ «الرابطة القلمية» عام ١٩٢٠م التي أقامها رموز التجديد من شعراء المهجر وأدبائه ومفكريه من أمثال: إيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة، وأمين الريحاني.. فكان قيامها ترسيخاً لمدرسة التجديد في الشعر والأدب، التي سرعان ما جعل منها (جبران) معادلاً مهجرياً شديد الجذب والتأثير على ناشئة الأدب.. أمام مدرستي (أبوللو) و(الديوان) القاهريتين.. الذائعتين في العالم العربي آنذاك.

.. شهدت (نيويورك) أيضاً.. أتعس أيامه وأكثرها ألماً وحزناً ودمعاً.. عندما فقد والدته، فشقيقه، فإحدى شقيقتيه.. على التوالي.. بداء (السل).. الذي كان كـ «الكوليرا» و«الجدري» آنذاك

قبل اكتشاف سلسلة المضادات الحيوية، ليكتب في شتاءات نيويورك وحيداً حزيناً.. قصيدته الجميلة الدامعة (سكن الليل):

(سكن الليل.. وفي ثوب السكون تختبي الأحلام

وسعى البدر.. وللبدر عيون ترصد الأيام)

ثم ثناها برائعته الفلسفية (أعطني الناي وغني)، التي يقول فيها:

(أعطني الناي وغنِّ	**فالغنا خير الصلاة**
وأنين الناي يبقى	**بعد أن تفنى الحياة**
هل جلست العصر مثلي	**بين جفنات العنب**
والعناقيد تدلت	**كثريات الذهب**
هل فرشت العشب ليلاً	**وتلحفت الفضا**
زاهداً فيما سيأتي	**ناسياً.. ما قد مضى**
أعطني الناي وغنِ	**وانس داء ودواء**
إنما الناس سطورٌ	**كتبت.. لكن بماء)**

فكان من حسن حظ الأغنية العربية.. أن يلتقط أولاهما الأستاذ عبدالوهاب، وثانيتهما الأستاذ نجيب حنكش.. ليقوما بتلحينهما وتسليمهما لـ «الرحبانية» ونجمتهما (فيروز).. لغنائها، فتجعلا منهما (سفرين) يضافان إلى أسفار الغناء العربي الخالدة في القرن العشرين، إلا أن ذلك لم يحدث - وبكل الأسف واللوعة - إلا بعد رحيل شاعريهما (جبران)، فلم ينتش بهما: (سماعاً).. كما انتشى بهما: (كتابة)..!!

* * *

عندما بلغ (جبران) الأربعين من عمره.. كان كل شيء قد أخذ يكتمل فيه: فكراً وأداءً وإنسانية.. حتى فاض إناؤه ليكتب، ولأول مرة في حياته بلغة غير لغة الأرض التي عشقها، والوطن الذي هام به، والدم الذي مازال يجري في عروقه، هي (الإنجليزية).. كتابه الأعظم: (النبي)، الذي أصبح بعد ترجمته إلى العديد من لغات العالم.. أشهر كتبه وأهمها، الذي يمثل بحق زبدة أفكار جبران وتجاربه ورؤاه، وحرقته وأحزانه وتطلعاته إلى عالم نضر شفاف يقوم في هذا «الوجود»..!!

كان الكتاب بحواراته الفلسفية، ورمزيته الشعرية الخلاقة.. يحلق في سماء الأثرة عند الأنبياء والنقاء عند الملائكة، وكأنه يعيد ولادة (جبران) من جديد.. (!!)، وأحسب أنه.. ولهذا السبب - وربما لغيره - تعددت ترجمات الكتاب إلى العربية.. بعد أن قدم مطران «الكنيسة الأرثوذكسية» في نيويورك (أنطونيوس بشير) أول ترجمة له في عام صدوره (١٩٢٣م)، ثم تبعه بعد ذلك بسنوات صديقه الأديب اللبناني الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمة.. عندما قدم ترجمة جديدة له عن أصله (الإنجليزي) عام ١٩٥٦م، لكن الملفت في هذا السياق.. هو ترجمة أبرز وزراء الثقافة المصريين في عهد ثورة يوليو عام ١٩٦٦م الأستاذ والأديب الفنان (ثروت عكاشة).. الأمر الذي يعكس القيمة الحقيقية لهذا الكتاب.. وأهميته، إذ إن من الندرة.. أن تتم ترجمة الكتاب الواحد، ولأكثر من مرة.. عن أصل واحد..!

ومع ذلك..

عندما أرادت (دار النهار البيروتية).. أن تصدر سلسلة من نفائس الكتب العربية.. بحلة أنيقة تليق بها - عام ١٩٦٨م - كان كتاب (النبي) لجبران في صدر تلك السلسلة.. ليس بـ «إصداره» عن أي من ترجماته السابقة، ولكن بـ «ترجمته» مجدداً.. وللمرة الرابعة، وعن طريق أحد كبار أدباء لبنان الأستاذ يوسف الخال، الذي حرص على أن تكون ترجمته، هي الأقرب لروح (جبران) وأسلوبه الوجداني الرمزي.. نظراً لتلك الصلات والروابط التي تجمعه بـ (جبران): تلميذاً.. من تلاميذه، وحوارياً.. من حوارييه، وعاشقاً.. من عشاقه، وقد مكنته تلك الأواصر مجتمعة.. من أن يحصل على تلك اللوحات الستة عشر، التي كان جبران نفسه.. قد رسمها خصيصاً لكتابه هذا، فكان ضمها ونشرها وبألوانها الطبيعية.. إضافة تميزت بها نسخة (دار النهار) الباذخة أو نسخة (يوسف الخال) الرائعة التي قام بترجمتها.

ومع ذلك..

ليس كتاب (النبي) وحده.. ولا لوحات جبران التي رسمها له.. أو لتلك التي رسمها بين (باريس) و(نيويورك)، ولكن يضاف إليهما.. حياته، وتجاربه، ومعاناته، ومجمل أعماله الشعرية والنثرية.. هي التي حملت اسمه مجتمعة إلى منصات الخلود، حيث يجب أن يكون: نجماً لا ينطفئ وشمساً لا تغيب. وهو ما كان.

فعندما مات فجأة في (نيويورك) وهو في الثامنة والخمسين من عمره عام ١٩٣١م.. وحُمل رفاته ليوارى في مسقط رأسه

(بشرّي)، كان اللبنانيون.. عند مستواهم الحضاري المعروف عنهم، إذ جعلوا منزله متحفاً: فيضم «القبر».. رفاته، ويضم «المتحف».. أعماله، وقد تصدرته تلك الترجمات الأربعة لكتابه (النبي).. إلى جانب آخر ما خطه قلمه (آلهة الأرض) قبل ثلاثة أشهر من لحظات وداعه للدنيا.

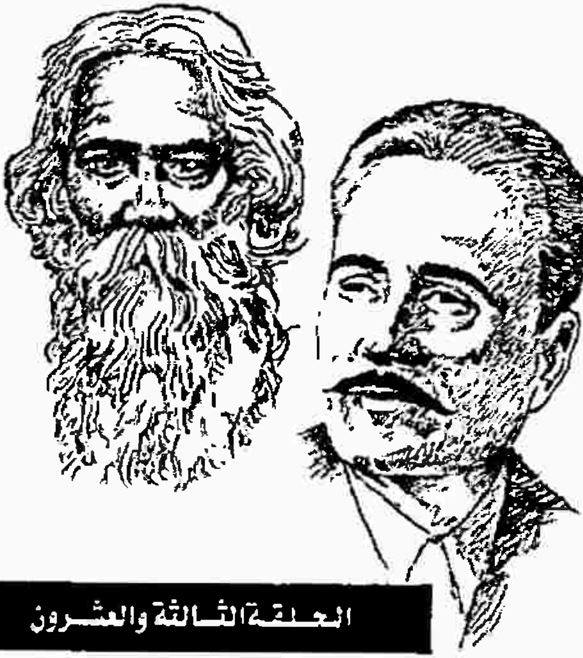

الحلقة الثالثة والعشرون

رابندرانات طاغور
محمد إقبال

في شبه القارة الهندية، التي حكمتها بريطانيا حكماً مباشراً قرابة مائة عام.. من عام ١٨٥٧م حتى منتصف القرن العشرين (١٩٤٧م)، كان هناك شاعران وفيلسوفان.. لمعا ليس على مستوى القارة الهندية وحدها، ولكن على مستوى العالم قاطبة، فليس هناك من لا يعرف (طاغور وإقبال)، وليس هناك من لم يقرأ لهما.. ويعشقهما، بعد أن أصبح لكل منهما تلامذته ومريدوه.. بامتداد الكرة الأرضية قاطبة، هما: «رابندرانات طاغور» و«محمد إقبال».. اللذان ولدا في زمن الاحتلال البريطاني، وتخرجا من جامعاته (كمبريدج)، وحارباه فيما بعد.. وطوال حياتهما بـ «الفكر» و«الكلمة». بـ «الشعر» والفلسفة، وبـ «النضال» السياسي.. إلا أنهما ماتا قبل هزيمته وانسحابه النهائي، الأول: عام ١٩٤١م، والثاني.. عام ١٩٤٨م.

عن هذا الفنان الخالد (طاغور)، وعن هذا الشاعر العبقري الملهم (إقبال).. أتحدث في هذه الحلقة، إذ ليس عدلاً أن أتحدث عن أحدهما دون الآخر، وليس إنصافاً أن أتجاهل أحدهما لحساب الآخر.. فكلاهما صفحة مضيئة من صحائف القرن العشرين،

وكلاهما قمة من قممه الأدبية والشعرية والفلسفية الشامخة.. لا تخطئهما الذاكرة الإنسانية ووجدانها النبيل، ولو أنني تجاوزت أحدهما.. لما غفرت لنفسي خطيئة هذا التجاوز أبداً.

* * *

ولد (طاغور) في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٦١م).. في مدينة الأدب والفن والموسيقى والغناء (كلكتا)، الشهيرة على مستوى العالم كله.. ولعل آخر ما قدم العالم عنها سينمائياً، هو الفيلم الأمريكي الأشهر (أوه.. كلكتا)!! ولأنه.. من عائلة شديدة الثراء، فقد كان سهلاً عليه بعد أن أنهى دراسته الثانوية.. أن يسافر إلى بريطانيا لدراسة القانون في جامعة كمبريدج، ثم عاد إلى أرض الوطن بعدها.. ليدير أملاك أبيه الشاسعة، فكان مفترضاً أن ينتمي بثراء أسرته وتعليمه البريطاني إلى طبقة الأرستقراطية الهندية.. المتفاهم بعضها مع الاحتلال البريطاني، إلا أنه اختار أن ينضم إلى الطبقات الفقيرة الكادحة من الفلاحين والعمال، بل وأن يجند أدبه وشعره وأغانيه.. لخدمة الحركة الوطنية التي كانت تطالب بـ «الاستقلال»، أما فلسفته.. فقد كانت تحلق بعيداً في تأملاتها الروحية العذبة.. وهي تبحث عن معنى (الوجود) وماهية الروح؟! ولذلك لم يكن غريباً أن يكون (برهمياً) وثنياً بـ «الولادة».. بينما يؤمن - في ذات الوقت - بوحدانية الله، بل ويرى أن روح الإنسان.. هي قبس من روح الله، كما لم يكن غريباً.. أن يُعجب المثقفون في النهاية بـ «تأملاته الفلسفية»، بينما يعجب الفلاحون والعمال بأغانيه وألحانه.

لقد استغرقت الكتابة حياته الطويلة التي امتدت لثمانين عاماً: قصة ورواية ومسرحاً ومائة ديوان شعري.. لكن هذا الإنتاج الأدبي الوفير.. كان غائباً عن عيون الغرب، صاحب الوسائط والوسائل و(الميديا) عموماً.. في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن عندما قام بترجمة أعماله.. إلى الإنجليزية لفت أنظار الغرب إليه، وبدأت تتجه إليه.. عيونه أو آذانه، ولذلك عندما كتب ملحمته أو قصيدته الشهيرة (جينتجالي).. جاءته بـ «نوبل للآداب» عام ١٩١٢م، ليكون أول أدباء وشعراء آسيا الذين يفوزون بـ«نوبل» للآداب، وأول المستفيدين منها.. فقد جعلت العالم كله يبحث عنه، وعن إنتاجه وأعماله الشعرية، والقصصية والروائية الكبرى كروايات (البستاني) والهلال ودورة الربيع.. التي تعتبر الأهم من بين أعماله وإن تقدمتهم روايته الطويلة والعظيمة (القلوب الضالة)، إلى جانب مؤلفاته الفلسفية: (الساداهانا) و(القومية) و(دين الإنسان).

لقد أثَّرت إبداعات (طاغور) الشعرية الغنائية.. والقصصية الروائية.. في الفن الهندي عموماً.. وعلى المستوى الغنائي والسينمائي خصوصاً، إذ كانت منجماً للأفكار والرؤى والأحلام.. يستلهم منها الفن الهندي الكثير من مواضيعه فضلاً عن مكانته وقيمته، وإلى الحد الذي حمل الرئيس أيوب خان.. ثالث رؤساء باكستان في الستينيات – بعد تقسيم الهند إلى دول ثلاث: (الهند، وباكستان، وسيلان) لأن يعبر عن إعجابه الشديد بالأغاني البنغالية الحزينة.. تلك التي لا أظن أن أحداً كتبها غير (طاغور)

نفسه، الذي كان شديد الاعتزاز بشعره وأغانيه.. وإلى الحد الذي كان يردد معه: (لا يهمني من يكتب للناس دساتيرهم.. مادمت أنا الذي أكتب أغانيهم)!!

* * *

عندما بلغ (طاغور) الأربعين من عمره.. ورغم نضاله الوطني ضد البريطانيين.. أخذ يؤسس مدرسة هي مدرسة (دار السلام)، التي كانت مناهجها تعبيراً عن إعجابه بـ (التعليم الأوروبي) الحديث.. رغم سخطه على ماديته وجفافه الروحي، وانفصاله عن منابع عظمة الوجود والخالق، لتتحول تلك المدرسة بعد واحد وعشرين عاماً.. وبـ «وسطيتها» بين الروح والمادة إلى جامعة (هي.. جامعة فيسفا بهراتي) التي ماتزال قائمة إلى يومنا هذا، لتفجع الهند بوفاته عام ١٩٤١م.. وهو في الثمانين من عمره، فلا يواسيها في فقده إلا تلك المكانة التي جلبها لـ «الهند»، واحتلها لنفسه.. بين الخالدين كواحد من أعظم رجالات شبه القارة الهندية ومبدعيها، وربما بذلك القفص الذي تركه في منزله بطيوره البنغالية الأربعة عشر.. التي كان يتفاءل بوجودها لتذكر أبناءه وأحفاده بأنه كان الابن الرابع عشر لأبيه!!

* * *

■■ أما عبقرية الشعر والفلسفة الهندية الإسلامية (محمد إقبال).. فقد ولد في مدينة (سيالكوت) الإسلامية الصغيرة عام ١٨٧٢م، حيث حفظ القرآن في كتاتيبها، ثم غادرها إلى مدينة لاهور — عاصمة ولاية البنجاب الأشهر - حيث نال الليسانس

والماجستير، ثم غادرها أيضاً.. إلى جامعة «كمبريدج» البريطانية لدراسة الفلسفة، ومنها إلى جامعة (ميونيخ) لدراسة القانون، ليعود بعدهما إلى أرض الوطن.. فيتفرغ لثلاثة أمور: الدفاع عن المظلومين.. والسعي لدعم استقلال ولايات الهند الإسلامية الكبرى الثلاث في دولة واحدة.. صاغ اسمها من تلك الولايات (البنجاب، وكشمير، والسند.. إلخ) فكانت (باكستان)، الذي تحقق حلم قيامها بعد وفاته بتسع سنوات عام ١٩٤٧م، وأخيراً.. الكتابة: فلسفة وشعراً، التي أخذته إلى (التصوف) بداية، فلم يعجبه ما يسمى بـ (التصوف العجمي).. لأنه يدعو إلى إنامة الأمة، بينما كان يناديه التصوف العملي.. ذي الطبيعة الجهادية، الذي كان مثله الأعلى فيه الرسول عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.. فـ «أبي بكر» وعمر، اللذين اعتبرهما نماذج «المتصوفين» العاملين لمجد أمتهم، لتنتهي به أبحاثه ودراسته الفكرية والفلسفية الإسلامية.. إلى الإيمان بأن العصر الذهبي للإسلام إنما كان عصر الفاروق عمر، ثم أخذته الكتابة بعد ذلك إلى البحث عن (الذات) الإنسانية.. التي رآها حقاً لا باطلاً.. لأن الإنسان الكامل – عنده – هو الأقرب إلى الله، ليشكل هذان الجناحان قوام فلسفته، التي كتب فيها وعنها الكثير بـ (الأوردو).. ككتاب (هدية الحجاز)، وبـ (الإنجليزية).. ككتاب (تجديد الفكر الإسلامي)، فكانت ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام للأول.. هي التي قربت (إقبال) إلى العالم العربي مهد الإسلام والرسالة المحمدية.. كما

قرب كتابه الثاني من صورته وصورة الإسلام البهي عند الغرب.. ليصبح (إقبال) معشوقاً للشرق وللغرب.

* * *

لكن، بعد مضي تسعاً وعشرين عاماً من وفاة (إقبال).. قام الأزهري الرائع الشيخ الصاوي شعلان بـ «ترجمة» قصيدة إقبال الخالدة أو (ملحمته) الشعرية الإسلامية الكبرى الفريدة: (حديث الروح) من «الأوردو» إلى «العربية».. بجزئيها (الأول)، وهو الشكوى، و(الثاني).. وهو جواب الشكوى، لتختطفها سيدة الغناء العربي (أم كلثوم) وتسلمها لأمير الموسيقى الشرقية: رياض السنباطي، لتشدو بها في ربيع عام ١٩٦٧م.. مبتدئة بـ(جواب) الشكوى الذي يبدأ بـ (حديث الروح للأرواح يسري وتدركه القلوب بلا عناء/ هتفت به فطار بلا جناح - وشق أنينه صدر الفضاء/ ومعدنه ترابي ولكن جرت في لفظه لغة السماء).. قبل (الشكوى) نفسها التي تبدأ بـ: (شكواي أم نجواي في هذا الدجى - ونجوم ليلي حسدي أم عودي/ أمسيت في الماضي أعيش - كأنما قطع الزمان طريق أسى عن غدي)، ويحلق مستمعوها في طول الوطن العربي وعرضه.. لبقية ما جاء في تلك القصيدة الخالدة، كقول (إقبال) أو (الصاوي شعلان):

[تحاورت النجوم وقلن صوتاً - بقرب العرش موصول الدعاء
وجاويت المجرة علّ طيفاً - سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك - يواصل شجوه عند المساء]

أو قوله:

[من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا - من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة - لم يبلغوا من هديها انوارا
هل أعلن التوحيد داعٍ قبلنا - وهدى القلوب إليك والأنظارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذي - صنع الوجود وقدر الاقدارا]

.. لتتدفق من بعده وقبله.. موسيقى ذلك اللحن السيمفوني الهادر، الذي لا أدري شخصياً كيف استطاع السنباطي.. أن يستلهمه!

* * *

لقد كان طريفاً.. أن يبعث السفير الباكستاني بالقاهرة آنذاك في طلب إحضار (طبلة هندية) من (كراتشي) لتشارك في عزف ذلك اللحن الرائع وغير المسبوق.. الذي جدد بحق محبة الناس وعشقهم لـ (إقبال) وشخصه ولقصيدته المعجزة!

لقد كان (طاغور) و(إقبال).. قمتين آسيويتين فريدتين في القرن العشرين، لن تتكررا! إنهما كـ (نهر الغانج).. في شمال شبه القارة الهندية: وحيد وفريد ومقدس.

الحلقة الرابعة والعشرون

كامل الشناوي

لم يكن يتوقع أكثر المتفائلين.. تفاؤلاً بأن يصبح ذلك الصبي (السمين) المعمَّم - ابن حي (السيدة زينب)، الهارب في أوائل عشرينياته من صحن الأزهر و«عالميته»، و«مقرراته» الدراسية الجامدة المرهقة - أي شيء ذي قيمة.. في مصر الذاخرة بأدبائها وشعرائها وكتّابها وعلمائها وفنانيها بعد الحرب العالمية الأولى، فضلاً عن أن يكون «نيزكاً» من نيازكها الشعرية.. فـ «شهاباً» من شهب صحافتها في الأربعينيات.. فـ «كوكباً» لامعاً من كواكبها الثقافية والأدبية والفكرية، تدور في فلكه نجوم الصحافة والفكر والأدب والموسيقى والغناء وهو يتربع على رأس المجتمع، ويشارك في توجيهه وصياغة مصيره في الخمسينات وإلى منتصف الستينات من القرن الماضي..!

لكنها، مواهبه.. وفطنته، وفطرته، وذكاؤه وخفة دمه.. بل «ومقالبه» التي كان يجيد صناعتها وصياغتها.. هي التي أخذت به مجتمعة من موقع إلى موقع، حتى غدا منشداً لشعر (شوقي) الذي كان لا يحسن إلقاء شعره.. فصديقاً و«جليساً» لرئيس وزراء مصر الحديدي (محمد محمود) باشا في أربعينات القرن العشرين،

وكان قد أصبح وقتها محرراً أدبياً بالقسم الأدبي في صحيفة (الأهرام).. عبر واحد من (مقالبه) الشهيرة.. وربما أولها، فقد كان بعد مغادرته الأزهر وانضمامه إلى إحدى «الجمعيات الشعرية».. يبعث ببعض قصائده إلى (الأهرام)، لكن رئيس القسم الأدبي بها.. كان يريد شعراً متقعراً في ألفاظه وقوافيه، وليس شعراً عذباً سلساً يحفل بالمعاني وحرارة الوجدان كذلك الذي كان يكتبه (كامل الشناوي).. فكان ينشر له قصيدة، ويرمي ببقية القصائد في «سلة المهملات»، فقرر أن يكتب له قصيدة من النوع الذي يستهويه، فكتب قصيدة.. ووقعها باسم أحد الشعراء الكبار، وأرسلها لتنشر في الأسبوع التالي.. وقد انطلت «الأكذوبة» على رئيس القسم عندما نشرها، لتكون فضيحة بجلاجل - كما يقولون - لرئيس القسم، ليجري بعدها تعيين الشناوي (محرراً) بالقسم الثقافي، فيكتشف رئيس التحرير الأستاذ تقلا باشا.. بعد شهور، أن كامل الشناوي.. على صلة وثيقة وعلاقة حميمة برئيس وزراء مصر (محمد محمود باشا)، وأنه من جلساء صالونه الذي يضم الوزراء والسفراء وعلية القوم، فيضرب كفاً على كف.. وهو يقول له مستنكراً: وتكتفي بكتابة القصائد يا (كامل).. وأنت بين يديك (منجم) الأخبار هذا..؟!

فوعده (الشناوي) خيراً، ليأتيه بعد أيام بـ«خبر» التقطه من صالون الباشا بـ«أن عثمان أمين - المعروف بولائه للإنجليز - سيقوم بزيارة للقدس ليجتمع بأحد المسؤولين الإنجليز، وأن مفاوضات على مستوى عال ستدور هناك»، وسلمه لـ (تقلا باشا)

الذي أعاد صياغته.. ونشره باعتباره مُرسَلاً من مندوب الأهرام في «القدس»، لتقوم الدنيا.. ويكتشف محمد محمود باشا، أن من أوصل الخبر إلى الأهرام... ليس مراسله في (القدس).. ولكنه مراسل من قصره وهو لا يدري!! فبلع ذلك (المطب).. وهو يترصد جليسه الأديب الشاب (كامل الشناوي) بالانتقام، عندما تلوح الفرصة، التي سرعان ما اختلقها (الباشا) عندما سرب وهو يتحدث في الهاتف - على مسمع من كامل الشناوي - بأن «جوبلز» وزير إعلام ألمانيا الهتلرية الأشهر.. قد وصل إلى القاهرة «سراً» ليبدأ مفاوضات مع القيادات المصرية عن ما ستؤول إليه حال العرب بعد الحرب، فطار (الشناوي) بالخبر إلى (تقلا باشا)، الذي لم يصدق «الخبر» بخبرته السياسية.. بل أخذ يتحرى الصدق فيه بسؤال أصدقائه من السفراء والقناصل، وإدارات الفنادق الكبرى والمطار.. عن حقيقة الخبر؟ فلم يجد له ظلاً في الحقيقة.. حتى بلغت الساعة الثانية صباحاً، فيضطر معها إلى التحدث إلى محمد محمود باسا نفسه.. في ذلك الوقت المتأخر كي يتأكد من صحة الخبر فينشره أو يرجئه أو يلغيه تماماً.. إذا لم يكن صحيحاً، فما أن سمع الباشا.. صوت (تقلا) إلا وأطلق ضحكة رنانة وهو يقول له: (علشان كامل يتعلم)!! وتعلم كامل الشناوي.. بل وحسم أمر تردده في العمل بـ «الصحافة» من عدمه، ليصبح بعد تلك التجارب (صحفياً).. يترأس تحرير كبريات الصحف والمجلات من (آخر ساعة) إلى (الاثنين) إلى (أخبار اليوم).. إلى (الجمهورية) مع الخمسة الكبار الذين كانوا يترأسون تحريرها معاً: د. طه حسين،

ناصر الدين النشاشيبي، إسماعيل الحبروك، إبراهيم نوار وسامي داود.

* * *

لكن (الصحافة).. وبكل أضوائها التي غمرته بها في الثلاثينات والأربعينات حتى جعلت منه ومن مجلسه الليلي في شرفة فندق (سميراميس) - القديم - في قلب القاهرة.. محجة للوزراء والسفراء والأدباء وكبار الفنانين من المطربين والموسيقيين والسينمائيين من المصريين والعرب من كل أقطارهم، لم تمنحه ذلك (المجد).. الذي لا يطال، والذي حفرته له فيما بعد في ذاكرة الأجيال.. مع نهايات الأربعينات: وطنيته وفلسفته وأحزانه وأسئلته الحائرة، التي لا تجد جواباً لها: (من أين.. وإلى أين؟ وأيهما أقسى: الحياة أم الموت..؟)، وشعره الوطني الملتهب.. الذي استهله أعظم وأروع استهلال مع مقاومة المصريين لجنود الاحتلال البريطاني في مدن القناة.. بعد هزيمة ٤٨م بـ (نشيد الحرية)، الذي عندما استمعت إليه كاملاً بصوت الأستاذ محمد عبدالوهاب.. وعلى موسيقاه، لم أصدق أن هناك.. شعراً وطنياً، يمكن أن يُكتب بكل هذا الصدق والعظمة والجرأة:

(كنت في صمت مُرْغم
كنت في صبرك مُكرَه
فتكلم، وتألَّم
وتعلَّم كيف تكره

* * *

عِرْضكَ «الغالي».. على الظالم هانْ
ومشى العارُ إليه وإليك
أرضك الحرةُ غطاها الهوان
وطغى الظلمُ عليها وعليك

* * *

قدِّم الآجال قرباناً لعرضك
اجعل العمرَ سياجاً حول أرضِك
غَضبةً للعِرض.. للأرض.. لنا
غضبةً تبعث فينا مجدنا
وإذا ما هتفت الهول بنا
فليقل كل فتى.. إني هنا
.. أنا يا مصر فتاك
بدمي أحمي حماك
ودمي ملء ثراك

* * *

أنا ومضٌ وبريق
أنا صخرٌ.. أنا جمرٌ
لفحُ أنفاسي حريق
ودمي نارٌ.. وثأرُ

* * *

بلدي.. لا عشتُ إن لم أفتدِ
يومك الحرَّ بيومي وغدي

.. نازفاً من دمِ أعدائك..

ما نزفوه من أبي أو ولدي

.. آخذاً حريتي من غاصبيها

.. سالبيها وبروحي أفتديها

هاتِ أذنيكَ معي واسمعْ معي

صيحةَ اليقظة.. تجتاحُ الجموع

صيحةً.. شدت ظهور الرُكّعِ

ومحت أصداؤها عار الخضوع).

ثم أعقبه عام ١٩٥٨هـ.. بـ «قصيدته» التي استقبل بها (أول وحدة عربية) بين سوريا ومصر، والتي كان عنوانها (أغنية عربية).. قائلاً:

(كان وهماً وأمانياً وحُلماً

كان طيفاً!

وصحى النائمُ يوماً

ورأى النورَ فأغفى

كلما استيقظ نام

وارتمى بين الظلام

* * *

ثم كانت صحوةٌ.. كالنار، كالتيار

.. كالقدرِ العنيد..!!

أيقظته، بعثته، خلقته
من جديد؛ من حديد
* * *

لا تسلني أين كنَّا؟
أين أصبحنا.. وكيفا
.. لا تسلني ما الذي وحَّدنَا
قلباً وصَفَّا
سَلْ جمـوعَ الشـهداء
سل دمـوع الأبريـاء)

.. إلى أن يقول في ختام تلك الرائعة الوطنية:

(عــرف الشــعـبُ طـريـقـه
وحــد الشـــعــبُ كفـاحــه
فــإذا الحــلـمُ حقيقــــــة
والأمـــــــــانيُّ إرادة!)

وتغير الزمان.. ليكتب الشناوي رائعته الوطنية الأخيرة (أنا الشعب).. قائلاً:

(على باب مصر تدق الأكف ويعلو الضجيج
جبالٌ تدور، رياح تثور، بحارٌ تهيج
وتصغي! وتصغي!!
فتسمعُ بين الضجيج سؤالاً وأي سؤال!!

وتسمع..

همهمةً كالجواب، وتسمع همهمة كالسؤال

أين ومـن.. وكيـف إذن؟

نعم كيف أصبح هذا الجلال

بأقصى مداه!؟

حقيقة شعب

غزاه الطغاة، وأي طغاة؟!

أمعجزةٌ ما لها أنبياء؟

.. أدورةُ أرض بغير فضاء؟!)

.. إلى أن يقول:

(وصاح من الشعب صوت طليق

قوي، أبـيٌّ، عريـقٌ، عميــق

يقول: أنا الشـعبُ والمعجــزة

أنا الشـعب لا شيء قد أعجـزه

وكل الذي قــاله أنجــزه..!!)

*** * ***

على أن الشناوي.. ورغم قلة قصائده إجمالاً، وتهيبه من النشر لـ«كتاب» أو «ديوان».. بعد أن استقرت في وعيه مبكراً «قولة» ذلك الناقد بـ (إن الإنسان يظل بعقله.. إلى أن يؤلف كتاباً أو يجمع ديوان شعر) ..!! فأراد أن يحتفظ بـ«عقله» ويمتنع عن النشر.. إلا أنه

كان ينشر وبانتظام مقالاته والقليل من قصائده في تلك الصحف التي كان يرأس تحريرها، وهو ما جعل أحدهم يتخابث بسؤاله عما يُنشر له من مقالات أو قصائد؟ فكان رده الفلسفي الجميل: (إنني لا أنشر شيئاً.. ولكنني أدفن بعض ما أكتبه في دفاتري الخاصة، وأدفن بعضه الآخر في مطابع الصحف التي أعمل بها، ومن حسن حظي أن ما دفنته في مطابع الصحف.. أصابه البعث، ولقي صداه عند قارئ أو أكثر.. فأصبحت كاتباً في رأي بعض القراء)..!؟

ولكن هذا الذي قاله.. لم ينطل على قرائه ومحبيه ومتابعيه، فقد كان يكتب مقالاته بانتظام.. بحكم مسؤولياته عن تحرير تلك الصحف التي كان يرأسها، أما شعره.. فقد كان يعكس نبض قلبه وفكره، وروحه الباحثة عن حب عصيٍّ لم يجده.. ليفاجئ العالم العربي في إحدى ليالي شتاء عام ١٩٦٠م وعلى أمواج إذاعة القاهرة وهو ينشد رائعة روائعه الخالدة بـ «صوته» الأجش العميق.. قصيدة (لا تكذبي)، التي روى فيها بأعلى درجات الصدق والعذوبة والأسى قصة حبه (الغادر) لإحدى فنانات مصر:

(لا تكذبي.. إني رأيتكما معًا
ودعي البكاءَ فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى
من عين كاذبةٍ
فأنكر وادعى!!

* * *

إني رأيتكما

إني سمعتكما

عيناك في عينيه. في شفتيه. في كفيه. في قدميه

ويداك ضارعتان.. ترتعشان من لهف عليه!)

لقد كانت تلك القصيدة.. وكأنها محضر شعري بـ (واقعة) خيانتها له، ليكتب فيما بعد قصيدته (الثانية).. إلى (حبيبها) الذي خطفها منه:

(حبيبها، لست وحدك حبيبها
حبيبها.. أنا قبلك!
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك

* * *

فلم تزل تلقاني
وتستبيح خداعي
بلهفة في اللقاء
برجفة في الوداع)

ثم يعود.. إلى قلبه.. في قصيدته (الثالثة) حول ذلك الحب الغادر، والتي جاءت بعنوان (قلبي).. ليسأله:

(أنت قلبي، فلا تَخَفْ
.. وأجبْ: هل تُحبها؟
وإلى الآن لم يزل
نابضاً فيك حُبها؟

لست قلبي أنا إذن!
.. إنما أنت قلبها!!

* * *

كيف يا قلبُ ترتضي
طعنةَ الغدرِ في خشوع؟
وتداري جحودها
في رداء من الدموع؟
لست قلبي.. وإنما
خنجرٌ أنت في الضلوع!)

إلى أن تنتهي قصة حبه الأول الغادر والأكيد.. بأن يحتمي بـ(كبريائه)، قائلاً في قصيدته (لست أشكو):

(لست أشكو منكِ
.. فالشكوى عذاب الأبرياء!
وهي قيد ترسف العزةُ فيه والإباء!
أنا لا أشكو
.. ففي الشكوى انحناء!
وأنا نبض عروقي كبرياء!)

لقد قام ديوانه الوحيد (لا تكذبي) بقصائده التسع والعشرين.. على قصة ذلك الحب الغادر، و(ملحقاته) الشعرية.. إلى جانب قصائده الوطنية (الأربعة الكبرى: نشيد الحرية، أغنية عربية، على باب مصر، وأوبريت جميلة بو حريد أو «جان دارك»

العربية الجزائرية)، التي تخاطف غناؤها كبار مطربي العروبة: عبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ وفريد الأطرش، ليصبح كامل الشناوي – بديوانه الوحيد.. هذا – كشاعر البحيرة العظيم (الفونس لامارتين).. الذي عاش ومات عن ديوان واحد (!!) هو (خواطر شعرية).. المكون من أربعة عشر قصيدة، من بينها (قصيدة البحيرة)، التي ترجمت لكل لغات العالم، وسافرت إلى أقاصي الأرض.. كما سافر شعر كامل الشناوي إلى كل أبناء العروبة في مواطنهم ومهاجرهم في القارات الست، إلا أنه لم يظهر له شيء بعد ذلك غير مجموعة مقالاته (بين الحياة والموت) ودراسته عن الشاعر العباسي (أبو نواس) وكتابه الفلسفي المبهر (ساعات)، وكتابه الآخر والأخير عن صديقه الموسيقار محمد عبدالوهاب (عرفت عبدالوهاب)، إذ كان كما قال مجايلوه وأصدقاؤه: عاشق من عشاق الليل والحياة و(الكلام).. لا يأوي إلى فراشه إلا عند الفجر، ولذلك وكما قال الأستاذ محمود السعدني بأسلوبه الساخر: (كانت روائعه.. حلقات في الهواء).. إشارة إلى أن ما كان يقوله الشناوي (كلاماً) لم يكن ليقل إمتاعاً عما كان يكتبه (سطوراً)، إن لم يزد!!

* * *

عندما بلغ السادسة والخمسين (عام ١٩٦٤م).. كانت متاعبه الصحية تتزايد نتيجة (سمنته) التي تضاعفت عما كانت عليه، وارتفاع ضغطه، وزيادة نسبة السكر في الدم عن معدلاتها، مما ألزمه التردد على عيادة صديقه الأستاذ الدكتور أنور المفتي..

أحد أشهر وأكبر أساتذة طب القاهرة، الذي أخذه جانباً.. ليشرح له حراجة وضعه الصحي، وضرورة التزامه بالبرنامج الغذائي والعلاجي الذي وضعه له، وهو يسلمه «روشتة» بالأدوية التي عليه أن يتعاطاها.. ثم صحبه لوداعه إلى باب العيادة تقديراً ومحبة له، ليكتب (الشناوي) عن ذلك المشهد في يومياته.. فيما بعد قائلاً: (أحسست وهو يودعني إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقاً.. ولكن يشيع جنازة)!!

لتأتيه مناسبة عيد ميلاده السابع والخمسين.. فيستقبلها دامع القلب والعينين.. قائلاً:

(عدت يا يوم مولدي
عدت يا أيها الشقي
الصبا ضاع من يدي
وغزا الشيبُ مفرِقي
ليت يا يوم مولدي
كنت يوماً بلا غدِ!!)

لتتناقل الصحف والإذاعات العربية.. في آخر يوم من أيام عام ١٩٦٦م نبأ وفاته المفاجئ، فتنخلع قلوب محبيه وعشاقه وتلاميذه، في مصر وبامتداد الوطن العربي من محيطه إلى خليجه.. حزناً عليه، وبكاءً لفقده.. وفقد الكلمةِ الشاعرة لواحد من أعظم وأندر مبدعيها في القرن العشرين.

لقد كتب أحد مجايليه – فيما بعد – قائلاً: (ستبقى حياة كامل الشناوي.. أعظم إنتاجه، كما كانت الحياة عنده.. أمتع هواياته)، وهو ما يدعونني لتذكير شباب ثورة الخامس والعشرين من يناير.. من الكتّاب والممثلين والمخرجين السينمائيين لتقديم قصة حياته على الشاشة الفضية، فـ «الكلمات» التي كانت تغطي سماء ميدان التحرير بشدو (أم كلثوم).. فتشحذ همم شبابه وهم يهتفون بسقوط الرئيس:

(عرف الشعب طريقه
وحّد الشعب كفاحه
فإذا الحلمُ حقيقة
والأمانيُّ.. إرادة)

هي لهذا الشاعر.. لهذا الملهم العظيم (كامل الشناوي).

الحلقة الخامسة والعشرون

أبو القاسم الشابي

كان «أبو القاسم الشابي».. الشاعر التونسي الثائر، الذي اختطفه الموت قبيل أن يتم عامه الخامس والعشرين.. كأنه (نبي) الشعر في تونس، و«رسوله» الذي حمل دعوته وسار بها في تلك الربوع من أجل «الحق» و«العدل» و«الحرية».. وهو يجابه الطغاة والظلمة والجبابرة بـ «كلماته» النائرة بداية.. فـ «الشاعرة» على الدوام. يصادمهم حيناً، ويسخر منهم حيناً، ويحرض عليهم في كل حين.. وهو ينادي (أبناء أمه).. أبناء وطنه. يستيقظهم ويذكرهم بأنفسهم، ويستصرخهم.. وهو ينتقدهم وينتقد نفسه على الدوام، فبعد أن أنهى دراسته الابتدائية أو الأولية في واحدة من تلك المدن التي كان يتنقل إليها مع والده في البر التونسي.. بحكم عمله «قاضياً» - حتى عرف أبو القاسم (تونس) كلها: سواحلها وبراريها وغيطانها وقفارها، وتقلب في مناطقها: من حر «قابس»، إلى ثلوج «تالة» إلى بساتين «رأس الجبل» - اصطحبه والده عام ١٩٢٠م إلى (جامعة الزيتونة) في العاصمة التونسية وقد بلغ الثانية عشر من عمره ليحصل على شهادة الـ (اجراجسيون)..

ليأتيه الشعر مبكراً وهو في الرابعة أو الخامسة عشر، لتكون أولى قصائده (أيها الحب).. بذلك النَفَس المدهش، وتلك المعاني التي تفوق عمره:

أيها الحب! أنت سر وجودي
وحياتي، وعزتي، وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري
وأليفي، وقرتي، ورجائي
يا سلاف الفؤاد! يا سُمَّ نفسي
في حياتي! يا شدتي! يا رخائي!
ألهيبٌ يثور في روضة النفس
فيطغى، أم أنت نورُ السماء؟
ليت شعري أيها الحب، قل لي:
من ظلامٍ خُلقتَ، أم من ضياء؟

فكانت قصيدته هذه.. وكأنها (بروفته) الشعرية الاولى، لينطلق بعدها بعام.. وفي الثاني من شهر يونيه من عام ١٩٢٥م وقد بلغ السادسة عشر من عمره.. هاتفاً بـ (تونس الجميلة) وحبها ومعاناتها قائلاً:

لست أبكي لعسفِ ليلٍ طويل،
أو لربعٍ غدا العفاءُ مراحهْ
إنما عَبرتي لخطبٍ ثقيلٍ،
قد عرانا، ولم نجد من أزاحهْ

ألبَسوا روحه قميصَ اضطهاد
فاتك شائك يردُّ جِماحهْ
أخمدوا صوته الإلهيَّ بالعسف
أمَاتُوا صُداحَه ونُواحهْ
وتوخوا طرائق العسف والإر
هاق توًّا، وما توخُّوا سَماحَهْ
هكذا المخلصون في كل صوب
رشقات الرَّدى إليهم مُتاحَهْ
غير أنَّا تناوبتنا الرزايا
واستباحت حمانا أي استباحهْ

* * *

أنا يا تونس الجميلة في لج
الهوى قد سبحت أيّ سباحهْ
شرعتي حُبُّك العميقُ وإني
قد بلوت مُرَّه وقرَاحهْ
لست أنصاع للواحي ولو مت
وقامت على شبابي المناحهْ
لا أبالي.. وإن أُريقت دمائي
فدماءُ العُشاق دَوْماً مُباحهْ

وبطول المدى تُريك الليالي
صادق الحب والوَلاَ وسَجاحهْ
إن ذا عصرُ ظلمةٍ غير أني
منْ وراء الظلام شمتُ صَبَاحهْ
ضيَّع الدهر مَجْدَ شعبي ولكن
ستردُّ الحياةُ يوماً وشاحهْ

ليتوجه بعد ذلك بعامين.. وهو في الثامنة عشر من عمره إلى (الطاغية) ذاته، وجبهته العريضة، ومن يمثلونه ويلتفون حوله من الأعوان والأزلام والمنتفعين به.. صارخاً:

لك الويل يا صَرْحَ المظالم من غدٍ
إذا نهض المستضعفون وصمموا!
إذا حطَّم المستعبدون قيودهم
وصبُّوا حميم السخط أيان تعلمُ!
أغرَّك أن الشعبَ مُغْضٍ على قذى
وأن الفَضاء الرحبَ وسنانُ مظلم!
إلا أن أحلام البلاد دفينةٌ
تجمجمُ في أعماقها ما تجمجمُ
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها
وينبثق اليوم الذي يترنمُ
هو الحق يغفو.. ثم ينهض ساخطاً
فيهدمُ ما شاد الظَّلام ويحطمُ

غدا الرّوع، إن هب الضعيفُ بيأسه،

ستعلم من منا سيجرفه الدمُ

ليعود بعد ذلك بشعره.. وقد بلغ العشرين من عمره (١٩٢٩م) إلى (ابن أمه) ووطنه، يستحثه ويذكّره بنفسه وهو يستنكر عليه صمته واستسلامه لألوان الظلم التي كان يتعرض لها من (بايات تونس) وأعوانهم وأتباعهم الذين كانوا وكأنهم ولاة فرنسيين.. وليسوا من أديم الأرض التونسية وترابها.. صائحاً مستصرخاً:

فما بالك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبّلوك الجباه

وتُسكتُ في النفس صوت الحياة القوي إذا ما تغنّى صداه

وتُطبق أجفانك النيّرات عن الفجر، والفجرُ عذبٌ ضياه؟

وتقنع بالعيش بين الكهوف، فأين النشيد؟ وأين الإباه؟

أتخشى نشيد السماء الجميل؟ أترهب نور الفضا في ضحاه؟

ألا.. انهض وسرْ في سبيل الحياة، فمن نام لم تنتظره الحياة؟

ولا تخشى مما وراء التلاع.. فما ثمّ إلا الضحى في صباه

* * *

لقد بدت تلك القصائد الوطنية الفوارة كما لو أنها أكبر من عمره وتجربته.. لكنها حتماً - وكما أثبتت له الأيام وللآخرين - لم تكن أكبر من «نبوته» الشعرية، و«رسالته» الأدبية.. في بعث الأمة من ثباتها، و«الشعر» التونسي من رقدته، فقد تربى ثقافياً على التراث العربي في أزهى عصوره بين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر، وروائع الآداب الغربية عبر ترجماتها...

وليس كما اعتقد الشاعر المصري الفذ الدكتور إبراهيم ناجي – صاحب أول وأجمل ترجمة لديوان (أزهار الشر) للشاعر الفرنسي الأعظم بودلير – بأن (ثقافته.. فرنسية)، بعد أن أخذ (الشابي) يراسل – منذ عام ١٩٣٢م – مجلة (أبولو) رائدة التجديد الشعري آنذاك.. وأخذت تظهر فيها تباعاً أعماله وصوره الشعرية أمام أساطين المجلة وروادها وشعراءها الكبار من أمثال الدكتور ناجي والمهندس علي محمود طه والدكتور أبو شادي رئيس تحريرها، الذي فُتن بـ (الشابي) وشعره وصوره الخلابة.. وإلى الحد الذي قدمه على كل من كان يعرفهم من شعراء وأدباء مجلته ليكتب له «مقدمة» ديوانه الوحيد (الينبوع)، على أن عشرينات القرن العشرين – ذاتها –.. كانت سنوات حافلة بالأحداث الجسام، والتقلات الكونية الكبرى على مستوى العالم كله.. فقد سقطت فيها إمبراطوريات، وزالت دول، وقام عالم جديد برعاية «عصبة الأمم» في مقرها بـ «جنيف».. حيث تطلع المشرق والمغرب العربي معاً.. إلى الحرية والاستقلال واسترداد مصيره وإرادته العربية الخالصة، فكان ذلك الفتى.. «نبي الشعر» التونسي، ورسول دعوته التجديدية الشاب (أبو القاسم الشابي).. ينتظر لحظته، يضاف إلى ذلك كله.. ما عبه من (المكتبة الخلدونية) بجامعته، وما وضعه والده الشيخ (محمد بن بلقاسم الشابي) في قلبه وعقله ووجدانه من أن (الحق.. خير ما في هذا العالم، وأن الحرية أقدس ما في هذا الوجود)!! فقد كان والده قد أمضى سبع سنوات للدراسة في الأزهر والإقامة بمصر، تعلم خلالها الكثير ورأى مصر

وهي تواجه في مطلع القرن العشرين أسئلتها الكبرى بين القبول بحضارة الغرب، أو رفضها كلها.. أو القبول بأحسن ما فيها، ثم عاد إلى تونس ليتم تعيينه (قاضياً) بعد عام من ولادة ابنه البكر (أبو القاسم الشابي).

لقد كان العام العشرون، في حياة أبي القاسم الشابي (١٩٢٩م).. عاماً عجيباً بكله!! ففيه.. بدت طلائع توهجه الشعري، وفيه قدم محاضرته الوحيدة (الخيال الشعري عند العرب)، التي هاجم فيها التقليديين من الأدباء والشعراء ومدرستهم، ومواقفهم الكلاسيكية من المرأة.. فثارت عليه ثائرتهم.. حيث رموه بعشرات الاتهامات الباطلة، لكن والده (القاضي)، وجمهرة الشعراء والأدباء التوانسة الشباب.. لم ينكروا عليه دعوته للتجديد، ومذهبه فيه.. حيث وجد (أبو القاسم الشابي) في تسامح (أبيه)، و«نصرة» شباب شعراء التوانسة ما يعزز جانبه ويثبت خطاه.. إلا أن الأقدار لم تشأ أن تُبقي له هذا الوالد العظيم بعلمه واستنارته.. بخلقه ونزاهته، وتربيته له.. فقد خطفته شاباً وهو (في الخمسين من عمره)، ليجد أبو القاسم الشابي نفسه وحيداً - وهو في العشرين من عمره - في مواجهة مسؤوليات «الأسرة» بعد موت أبيه، ومع ذلك (لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية) كما كان يفعل الكثيرون.. ورضي بحياة بسيطة زاهدة على رأس أسرته بمسقط رأسه «توزر».. حيث تزوج فيما بعد.

* * *

لقد ضاعفت «نكبة» فقد أبيه أحزانه.. والتي لم يغادرها أصلاً ولم تغادره منذ أن وعى حقيقة (وجوده) مبكراً.. وعاش تحت عتمة الخوف والتردد التي عاش تحتهما التوانسة، وتوسد ليل القهر الذي كانوا يتوسدونه.. لتأخذه (النكبة) إلى عالم «التيه» وعذاباته الجديدة.. فيكتب قصائده: (أغاني التائه)، وإلى (قلبي التائه) فـ (الأشواق التائهة).. إلا أنه لم ينس «الشاعر الرومانسي» فيه، ورسالته ودعوته إلى التجديد، ولذلك واصل كتابة قصائده التي كانت تنشرها له مجلة «النهضة» بداية ثم.. تحول بمعظمها - ومنذ أن راسل مجلة (أبولو) وتعرّف على رئيس تحريرها (أبو شادي) - إلى مجلة (أبولو)، ليعرفه شعراء المشرق العربي ونجومه في مصر والعراق وسوريا ولبنان والمهجر من أمثال شوقي وحافظ والبارودي والرصافي والزهاوي وجبران وأبو ماضي، ويحسوا بنبضه الشعري الثوري الجديد.. ربما بأكثر مما عرفه شعراء المغرب العربي آنذاك، الأمر الذي جعل منه حينها - وأكثر منه فيما بعد - «شاعراً عربياً».. بأكثر منه شاعراً تونسياً أو شاعراً من المغرب العربي، سيتغنى العالم العربي من محيطه إلى خليجه.. بـ «قصيدته» النارية (إرادة الحياة) أو (إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلابد أن يستجيب القدر).. عندما تأتي بواعث ولادتها. ولحظة كتابتها.. بعد أربعة أعوام من نكبة فقده لأبيه، وهو في الرابعة والعشرين من عمره..!

* * *

لقد شاءت المصادفات.. أو «مكانته» أو عضويته بنادي (قدماء الصادقية) أن يشارك بالحضور في مؤتمر جرى عقده بالعاصمة التونسية في خريف عام (١٩٢١م) بمناسبة (الذكرى الخمسينية) لانتصاب الحماية الفرنسية على تونس، فهاله ما رآه من سراة القوم وعلية التوانسة من الساسة والعلماء والفقهاء وهم يشاركون الفرنسيين فرحتهم بـ (الذكرى)!! وهو الذي يعلم ما فعله ويفعله قادة (الحماية) ورجالاتها وجنودها والمنتفعون بها من (تفقير وتجهيل للجماهير التونسية، ومن مسخ للذاتية القومية، وما شجع عليه من تجنيس حتى يذوب هذا الشعب في بوتقة الإمبراطورية الفرنسية، ويصبح هباءً منثوراً) كما قال السياسي والمفكر التونسي الأبرز ورئيس وزراء تونس الأسبق الأستاذ محمد المزالي، فغادر الحفل موجع القلب.. يائساً.. قانطاً، وهو لا يدري ما يفعل أو ما يقول في تلك اللحظة المخجلة.. إلا أنه نفَّسَ عن نفسه بتلك الأبيات الثلاث التي قالها بعد أسابيع قليلة من ذلك الحفل:

(لا ينهضُ الشعبُ إلا حين يدفعه
عزمُ الحياة، إذا ما استيقظتْ فيهِ
والحَبُّ يخترق الغبراء، مندفعاً
إلى السماء. إذا هَبَّت تناديهِ
والقيدُ يألفُهُ الأمواتُ، مالبثوا
أمَّا الحياةُ فيُبْليها وتُبْليهِ)

لكن تلك المشاهد التي رآها وسمعها كانت تأخذ طريقها إلى

أعماق أعماقه... لتستقر بين العقل والقلب.. بين ضميره الحي ووجدانه الثائر، لينفجر بركانه الشعري بعد عامين (١٩٣٣م) بقصيدته النارية:

(إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدرْ
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة
تبخَّر في جوها، واندثر
فويل لمن لم تُشُقه الحياة
من صفعةِ العدمِ المنتصر)!!

وإذا كان (الشابي) قد بدا آنذاك وكأن قصيدته (البركانية) تلك لم تكفه.. ولم تشفه، فأتبعها بقصيدتين في ذات العام: أحدهما لـ (التاريخ)، وثانيتهما لـ (الشعب).. ثم لحقهما بـ (ثالثة) بعد عام (إلى طغاة العالم)!! إلا أن قصيدته (إرادة الحياة) أصبحت جزءاً خالداً من التراث العربي والإنساني إذ لا يوجد عربي بامتداد الوطن العربي إلا ويحفظ بيتي مقدمتها (إذا الشعب يوماً أراد الحياة).. إلخ، ليغدو معها صاحبها (أبو القاسم الشابي) شمساً من شموس الوطنية، وقمراً فضياً من أقمارها يدوران في فلك الكون الرحيب، والأوطان المحرومة من حريتها.

* * *

لقد أصيب (الشابي) بعد تلك الليلة.. بداء «تضخم القلب» وهو في الثانية والعشرين من عمره.. ولم يجد آنذاك من يداوي قلبه الشاب، فقد كان طب القلوب يحبو في الثلث الأول من القرن الماضي.. ليموت قبل أن يتم عامه الخامس والعشرين، مأسوفٌ عليه، ومع ذلك قاد التوانسة مرتين في (حياته).. بـ «نصرته» لزعيم الوطنية التونسية «طاهر صفر».. ودعمه لقيام (الحزب الحر الدستوري الجديد) الذي التفت البلاد حوله حتى نالت استقلالها في منتصف الخمسينات، وبعد مماته بثمانية عقود.. بتلك الجماهير التونسية الحاشدة في شوارع وميادين تونس التي كانت تردد صباح مساء: (إذا الشعب يوماً أراد الحياة).. وهي تنتصر لـ (محمد بوعزيزي).. ملهم ثورتها الوطنية الخالصة عام ٢٠١١م.

لقد كان (الشابي) عظيماً.. في وطنيته، كما في إنسانيته، فلم ينس قبل أن يسلمْ الروح (والده) بالاعتذار له.. عن أيامه القليلة السعيدة التي لم يشاركه فيها!! كما لم ينس صنوه الشاعر القيرواني الضرير (أبو الحسن علي الحصري).. ليعارض درته (يا ليل الصب متى غده – أقيام الساعة موعده) بعد قرابة ألف عام!؟ بقصيدته (صفحة من كتاب الدموع).. وهو يقول له:

(غنَّاه الأمسُ وأطربَه

وشجاهُ اليوم، فما غده؟

قد كان له قلبٌ، كالطفل

يد الأحلام تهدهده

مـن كـان لـه مَـلَـكٌ في الـكـون

جـمـيـل الـطـلـعـةِ، يـعـبُـده

في جـوف الـلـيـل، يـنـاجـيـه

وامـام الـفـجـر، يـمـجـده)

ما أعظمك يا (أبا القاسم) في وطنيتك.. ما أندرك في إنسانيتك!! فإذا لم يكن «الخلود» لك ولأمثالك.. فلمن يكون..؟!

الحلقة السادسة والعشرون

أحمد قنديل

قليلون في هذا العالم على اتساعه.. مَن يُمتعون قراءهم إذا كتبوا.. بمثل ما يمتعون مستمعيهم إن تحدثوا. وقد كان الكاتب الأديب وشاعر الفصحى والعامية الفنان.. الذي عُرف بـ (الأستاذ) في عالم الوظائف الحكومية، وبـ (القنديل) في عالم الصحافة والأدب والشعر والفن.. أحدهم دون شك، أو رابع أربعتهم - بعد الزيدان، والشحاتة، وعبدالله بلخير -، فقد كان حديثه.. رشيقاً لا يُمل، ممتعاً.. إلى حد الإثارة والاستحواذ، موحياً.. تختلط فيه الضحكة بالدمعة، ويتقاطع في ثناياه.. الأسى مع الشجن!! ولذلك كان استحواذه على سامعيه.. سهلاً ميسوراً، فقد كان يأخذهم.. من حكاية لأخرى، ومن موقف إلى ذكرى، ومن استشهاد شعري.. إلى طرفة تصب في ذات الاستشهاد، وكأنها (الجواب) عند مطربي الليالي والمواويل، يساعده في ذلك صوت درامي جميل.. يتمازج فيه الهمس والشجن، ويمده مخزون قصصي روائي لا ينضب، نتيجة.. لتلك الحياة العميقة المتغلغلة والمفعمة بالأحداث.. التي عاشها بين جدة ومكة (مكاناً)، وبين الحربين العالميتين (زماناً)!!

فقد ولد الأستاذ القنديل في عام ١٩١٢م (١٣٣٢هـ).. أي قبيل عام من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ولذلك فقد عاش عقدي شبابه الأولين – مع مقدمات وذيول نتائجها من سقوط للدولة العثمانية، فسقوط لدولة الأشراف في الحجاز، فقيام لدولة الملك عبدالعزيز، وما تبعه من وحدة بين شطري الأمة في حجازها ونجدها (١٩٣٢م).. وهو في التاسعة عشر من عمره: ابن من أبناء جدة وبحرها.. وحاراتها وبرحاتها و(صهبتها) ومزمارها و(كَبَتِها) و(خرجاتها) إلى جزيرتي (الواسطة) و(أبو سعد)، وسهر (مقاعدها) و(دواوينها) على الدانات اليمنية والمجارير الطائفية والأغاني المصرية، وطالب من طلاب مدرستها الأولى (الفلاح) التي جمعت أكبر نخب الصف الأول من شعراء وأدباء الأيام الأولى من عمر هذا الوطن.. من أمثال العواد والشحاتة والعارف والحلواني والباحيدر.. فـ (القنديل) الذي كان أصغر معلميها وأساتذتها آنذاك سناً، والذي حملته مواهبه الأدبية والشعرية الفذة.. لأن يكون من بينهم.

لقد أعطته (جدة) وحياتها.. مخزونه الشعبي الهائل من القصص والأمثال والتجارب والحكايات: من (أبو عرَّام) إلى (أبو سنكيت) إلى (الدُّجِّيرة) وحكايتها الأسطورية المرعبة، ليتحول ذلك الزاد الثقافي العريض الضاحك الساخر والجميل.. فيما بعد لنصوص شعرية لأول دواوينه العامية (المركاز)، الذي كان يترفع عن التوقيع على قصائده بـ (اسمه الصريح).. عند نشرها منفردة لأول مرة، مخافة أن تلتصق به وبشعره صفة (العامية)..

فكان يوقعها باسم (هو)، ولكنه سرعان ما أدرك بأن العامية والشعبية.. لم تكن تهمة بقدر ما كانت قيمة وشرفاً لمن تملكوا ناصيتها ومقدرتها وأبدعوا فيها وبها، فهذا شوقي أمير شعراء الفصحى.. تتناقل عنه الصحف قولته، التي أطلقها تعبيراً عن قلق الفنان فيه: (إنني لا أخاف على الشعر العربي الفصيح.. إلا من بيرم التونسي، وعاميته)!!

* * *

مع انتقاله إلى العاصمة (مكة المكرمة).. بعد الاستقرار، وإعادة تشكل الوطن، وقيام وزارة المالية.. بضخامة وتعدد مسؤولياتها حتى سميت بـ (أم الوزارات).. بحثاً عن وظيفة، تدنيه منها دون شك مؤهلاته ومواهبه.. وجد أمامه كوكبة واسعة من المثقفين والأدباء والشعراء وقد تجمعوا فيها من كل أرجاء الوطن، فهذا العواد والشحاتة والعارف.. من جدة، وهذا الآشي والعطار والزمخشري والفقي والكتبي من مكة، وهذا الجاسر والمعمر من نجد، وهذا التوفيق والرجب والزيدان والضياء من المدينة المنورة، وهذا العقيلي والسنوسي من جيزان، وإلى جانب هؤلاء صحيفتي (أم القرى) و(صوت الحجاز).. مع ما يخلقه هذا التواجد.. في وزارة واحدة بفروعها المختلفة ومسؤولياتها المتعددة، وما يمكن أن ينبثق عنه من حياة أدبية زاخرة مفعمة.. كتلك التي تناقلتها فيما بعد حكايات مقاهي (الأولمب) و(المركاز) و(البيبان)، والتي كان في طليعتها قيمة وأهمية.. معركة العواد والشحاتة (الشعرية)، والتي انقسم فيها مجتمع العاصمة آنذاك إلى معسكرين: معسكر العواد

وأنصاره من العارف والحلواني والباحيدر.. ومعسكر الشحاتة وأنصاره من القنديل والضياء والعامر.. وما بين المعسكرين من المحايدين من أمثال الزيدان والسباعي والرجب والجاسر والعطار، وإن كان كل من هؤلاء المحايدين.. أراد أن يخفي نصرته لأي من المعسكرين أمام الملأ.. بينما كان الأستاذ عبدالسلام الساسي هو حامل وقود تلك المعركة وأخشابها بين المعسكرين بعد أن امتنعت الصحيفتان عن نشر ما كان خارجاً عن الأعراف والتقاليد من فاحش القصائد المتبادلة، إلا أن نصيري (العواد) و(الشحاتة).. تحملا مسؤوليات نصرتهما للشاعرين في حينه، وبعد أن انطوت تلك الأيام، ولعل قصيدة «صراع» التي كتبها (القنديل)، ونشرها في ديوانه (الأبراج).. تصور طبيعة الحماسة التي كان عليها في نصرته لـ (صديقه الحميم) حمزة شحاتة الذي أهداه الديوان نفسه.. وهو ثالث دواوينه.

على أي حال..

صعد الأستاذ القنديل سلالمه الوظيفية.. بسهولة ويسر، وقد حملته إمكاناته الشخصية إلى ذلك الصعود السهل واليسير حتى أصبح مديراً عاماً لـ(الحج).. وهي وظيفة أقرب إلى الوزارة أو نيابتها منها إلى المديرية العامة، ومع ذلك.. ظل هو وصديقه (الشحاتة) يتبرمان من حالهما وحال الدنيا معهما، التي تعطي (الحلق) لمن لا آذان له!! و(الطعام) لمن لا أسنان لديه..!!

* * *

لقد كتب القنديل الكثير من الشعر.. وأصدر ما يزيد عن العشرة دواوين بالفصحى والعامية.. كان أبرزها ذلك الجهد الذي بذله في كتابه (مكتي قبلتي)، وهو يحمل عنوان قصيدته الشهيرة والجميلة عن (مكة).. إلى جانب قصائد الشعراء الآخرين الذين كتبوا عنها مع ترجمة لحياة كل منهم، لكن ظل أجمل ما كتبه.. هو في تلك القصيدة (الجواب الضائع).. التي قال فيها:

(قال لي والتلال قد لفها الصمت كما لفنا الهوى بردائه
ويميني تحيط عطفيه والبدر مطلٌ واللحظ في اللحظ تائه
وابتساماته تفيض حناناً ودلالاً يزيد فرط بهائه
كيف أحببتني؟ وفسّر ما قال بإيماءة الهوى وذكائه
فتضاحكت حائراً مستزيداً سؤله المشتهى برغم خفائه
وأستحي، والحياء فن من الحسن، وضاع الجواب في استحيائه)

ولكن ربما كان أصدق ما قاله، وهو يكشف عن طبيعة «الفنان» فيه.. والتي لم تكتف بسماع الموسيقى والغناء وتتبع روائعهما العربية والمصرية منها على وجه الخصوص، بل اتجهت إلى تعلم العزف على (العود) وإجادته.. ومن ثم نقله إلى أقرب أصدقائه (الشحاتة) الذي أصبح بمعرفته الموسيقية التي تنامت بعد ذلك.. وكأنه من كبار الملحنين وأساتذتهم.. لا عازفاً يرضي عاطفته أو طموحه.. عندما عارض قصيدة (يا عروس الروض يا ذات الجناح.. يا حمامة) قائلاً:

(يا ملاك الحب، يا ذات الجمال والرشاقة
ناغني ما شئت، ما شاء الدلال والطلاقة
وارحمي قلباً شكا حر الملال واشتياقه
أطلقي في جوك السحري فكري والخيال
وأطلي من سنى الخلد بشعري بالجمال)

لكن المدهش في حياة «القنديل» الشعرية.. هو تقدمه عام ١٩٤٦م.. إلى مسابقة أجمل قصيدة عربية التي رعتها أم إذاعات العالم في الأربعينات (إذاعة لندن) بين الشعراء العرب من مستمعيها، ليفوز القنديل بقصيدة (البلبل) المنشورة في ديوانه الثالث (أصداء).. بـ (المركز الأول) على مستوى مناطق المملكة، وبـ (المركز الثاني) على مستوى بلدان الشرق الأوسط.

لقد شكل ذلك الفوز.. أحد أهم انطلاقاته فيما بعد. فقد كان فوزه.. اعترافاً بشاعريته.. وأفضليته، حتى إذا قامت إذاعة جبل هندي من مكة (عام ١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م).. كان الزمخشري كما كان القنديل.. أهم دعامتين لها.

لقد شاءت المصادفات وحدها.. أن تجمعني ذات ظهيرة - في طريق عودتي إلى البيت - بـ (الأستاذ القنديل).. وهو يلقي في مكتب رئيس تحرير جريدة البلاد الأستاذ عبدالمجيد شبكشي قصيدته (القرية الخضراء) بصوته المليء عذوبة وشجناً، فتمنيت ساعتها لو أن أحداً قام بتسجيلها له.. آنذاك. فقد كان رائعاً ساحراً.. ربما إلقاؤه، وربما القصيدة نفسها، ولكنني لم أعد

لقراءتها.. حتى لا يفسد ما استقر في نفسي بشأنها، لأقرأها ثانية.. قبيل أيام، لأكتشف أنها لا تتحدث عن قرية خضراء موجودة في وطننا.. ولكنها تتحدث عن قرية مفرطة الجمال في خيال شاعرها (القنديل)! لتجمعني به مصادفة أخرى وأخيرة.. عند مدخل (المؤسسة) أيضاً، عندما سألني عن ديوانه الجديد.. إن كنت قد قرأته أو لم أفعل؟ فسألته: ولكن ما اسم الديوان.. يا أستاذ؟

فقال (بلهجته الشعبية العامية الجميلة): (الأُفو). وهو يقصد كلمة (نار).. إذ إن ذلك.. كان هو عنوان آخر دواوينه..!

* * *

عندما مات الأستاذ القنديل.. بصورة مفاجئة، أحسسنا جميعاً. بأننا فقدنا (موليراً) عربياً آخر كـ (بيرم).. هو الأستاذ القنديل: صاحب «المركاز» و«أبو عرام» و«القناديل».. التي ظلت تضيء إلى يومنا هذا، وقد غدا صاحبها.. بـ (عاميته) - التي خشي منها ومن تأثيرها على مكانته - شمساً لا تغيب.. ونجمة لا تنطفئ!!

الحلقة السابعة والعشرون

برنارد شو

عندما يُذكر أدباء وكتاب (المسرح) على مستوى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه، في القرن العشرين، فلابد وأن يذكر في مقدمتهم (شو).. عبقري المسرح وفنانه، وساحره وساخره الذي لا يجارى، والذي ما كان يقارنه أبناء جيله من الأدباء والكتاب إلا بـ «عميد» كتاب المسرح البريطاني التاريخي العتيد (وليم شكسبير).. نفسه!! فقد أصبح (شو) بعد أن انتصف به العمر.. (قمة معاصرة) بأعماله المسرحية الفذة، التي تدفقت - بعد بلوغه الأربعين -: من «بيت الأرامل» و«تلميذ الشيطان».. إلى «قيصر وكليوباترة».. إلى رائعتيه الخالدتين: «القديسة جان دارك» و«العودة إلى مينوشالح».. اللتان حملتاه - وقد ناف عن السبعين - لنيل جائزة (نوبل للآداب) عنهما عام ١٩٢٥م.. أمام شكسبير وقمته (التاريخية)، التي أسرت القلوب والعقول واحتلت الوجدان بـ (رباعية) مسرحياته التاريخية الخالدة: «هملت» و«مكبث» و«عطيل» و«تاجر البندقية».

* * *

لقد كانت قصة صعوده إلى تلك (القمة).. هي التي تستحق أن تروى بدايةً لهذا الشاب الأيرلندي النحيل والطويل (شو)..

القادم من (دبلن) إلى (لندن)، وهو في العشرين من عمره.. بـ«مواهبه» وأحلامه و(حماسته).. في أن يصنع لنفسه (مجداً) في عاصمة (الإمبراطورية)، دون أن يعرف أحداً فيها أو يعرفه أحد.. كانت تتعثر به خطاه طوال التسع سنوات الأولى من قدومه إلى (لندن).. رغم رواياته الخمس التي أبدعها وقدمها طوال تلك السنوات.. على أمل أن تفتح له دوحة الأدب أبوابها، وتستقبله على الأقل.. كـ «أديب» واعد، لكن الأبواب لم تفتح.. فلم تلق تلك الروايات الشابة ذلك الرواج الذي كان يرجوه، بل ولا حتى إقبالاً متواضعاً.. يطمئنه على حاضره ومستقبله.. حتى كاد أن يجمع مقتنياته القليلة التي قدم بها.. ويعود أدراجه ثانية إلى (دبلن)، لولا حبه القديم والأصيل.. لـ «الموسيقى» – الذي يحتل المرتبة الثانية من اهتماماته – وعشقه وعنايته بأعمال كبار الموسيقيين من أمثال (فاغنر) وموزارت وباخ.. والذي فتح له الباب.. (مواربا) ليدخل منه إلى عالم (الموسيقى) في الصحافة، بـ«العمل».. ناقداً موسيقياً لمجلتي «النجمة» و«العالم»، لكن الصحافة البريطانية العتيدة والخبيرة.. سرعان ما اكتشفت فيه ما هو أكبر وأهم وأوسع من أن يكون ناقداً موسيقياً (فقط)، لتضعه في مكانه الطبيعي.. (ناقداً مسرحياً) في واحدة من كبريات المجلات التي تعنى بـ(المسرح) وشؤونه آنذاك، وما يُقدم عليه من أعمال مسرحية.. في بلد عرف بريادته للمسرح، ليسطع ويلمع.. وقد شارف الأربعين، فيقدم وهو في الثانية والأربعين.. خمس (مسرحيات) دفعة واحدة.. كانت وكأنها دقات إنذار بـ«قدومه».. حتى يفسح الآخرون له الطريق،

أو كأنها تعبير عن الانتقام من فشل رواياته الخمس التي قدمها طوال تلك السنوات التسع الأولى من قدومه إلى (لندن).. دون أن تجد آذاناً تسمع لها أو أعيناً تقرؤها!! كان عنوان المسرحيات - عند نشرها - ساخراً هازلاً: (مسرحيات سارة وغير سارة)..!! ولكن عند تقديمها على خشبة المسرح.. كانت تحدث زلزالاً من الإعجاب والهتافات والضحكات، فقد كانت من ذلك النوع.. الذي كان يبحث عنه جمور المسرح البريطاني ولا يجده: الفن لـ«الحياة».. لـ «الناس»، ولـهمومهم» وقضاياهم.. وليس الفن.. لـ «الفن» الذي كان السمة الغالبة على مسرح القرن التاسع عشر، الذي عرف بـ«برناسيته» فقد ضحك في تلك المسرحيات وأضحك البريطانيين وسخر منهم ومن عاداتهم وديمقراطيتهم وأحزابهم السياسية التي تدفع بـ «مجانينها» كل خمسة أعوام إلى قاعة (البرلمان).. بل ومن تقاليدهم الإمبراطورية البالية التي تجعل من حرس القصور والمتاحف بقبعاتهم السوداء الطويلة على رؤوسهم.. وكأنهم خُشب مسندة، لا يرف لها جفن، ولا يفتر لها ثغر.. حتى ليحسب المتأمل فيهم بأنهم (تماثيل) من رخام، لا بشر.. من لحم ودم!!

* * *

مع مضي الزمن.. كانت تتفتق إمكانات (شو) الإبداعية، وتتعتق سخرياته وهي تزداد عمقاً وألقاً.. حتى باتت جزءاً من صورته.. من سيرته، فليس هناك من لا يعرف قصة لقائه الأول - وهو الاشتراكي العمالي الذي لا يأكل اللحوم ولا يدخن ولا يشرب الكحول -.. مع زعيم المحافظين الأشهر (السير ونستون

تشرشل) بـ «سمنته» وأبهته و«سيجاره» الفاخر الطويل، عندما قال له (تشرشل) بعد أن رآه لأول مرة: (من يراك يا مستر شو.. يشعر كما لو أن في بريطانيا (مجاعة)..؟

فرد عليه (شو).. وعلى الفور: ومن يراك يا سيدي الرئيس.. سيعرف أسبابها..!!

إلى أن أبدع رائعته الخالدة: مسرحية (العودة إلى ميتو شالح).. التي أفسحت له مكانه فوق القمة، والتي شاهدها العالم على خشبة المسرح، وقرأها عالمنا العربي في ترجمة الأستاذ أنيس زكي حسن في مطلع الستينات من القرن العشرين.. والتي تتحدث عن «الإنسان» و«أزمته» مع (الزمن) وقصره، الذي لا يمكنه من إنجاز مشاريعه وأحلامه.. فيموت متحسراً، آسفاً، نادماً، فـ «بطل» المسرحية الراهب «ميتو شالح».. المولود في (جنة عدن) قبل أربعة آلاف عام من ميلاد المسيح عليه السلام، والذي امتد به العمر حتى بلغ تسعمائة وستين عاماً، فرأى كيف تبدلت أعمار البشر بعد ذلك.. وأخذت تتناقص إلى الستين والسبعين وحتى إلى الثمانين.. ليعترض عليها بأنها ليست بكافية ليعرف الإنسان خلالها (معنى.. الحياة)؟ وهي بالتأكيد ليست بكافية لينجز فيها مشاريعه وأحلامه، وأن العمر المثالي.. «يجب أن يمتد لثلاثة قرون».. فماذا لو تبنت بعض الأحزاب السياسية في برامجها الانتخابية الدعوة لـ «العيش» ثلاثمائة عام..؟ أما حياة (ميتو شالح) وعمره.. فإن (آدم) في جنة عدن يعترض عليها قائلاً: (كن عاقلاً يا ولدي.

أتستطيع أن تحتمل العيش إلى الأبد)؟، ليضيف قائلاً بحزن ومرارة: (لقد عرفت معنى الجلوس والتأمل.. تحت رعب الأبدية، والخلود. فكر في ذلك يا رجل)!!

وعند عرضها لأول مرة فوق خشبة المسرح القومي البريطاني.. كانت تثير عواصف من الإعجاب بـ (خيالاتها) المثيرة، وحوارها المتوتر الجذاب، وأسئلتها المحيرة، وسخرياتها الذكية التي لم تنقطع طوال ساعات عرضها، فلم ينس شو.. صديقه (اللدود) السير ونستون تشرشل (!!) فبعث له ببطاقتي دعوة لحضور عرضها في الأسبوع التالي.. وقد أرفق بهما رسالة تقول: (هاتان بطاقتان.. لحضور مسرحيتي الجديدة: واحدة لك، والأخرى لأحد أصدقائك.. هذا إذا كان لك أصدقاء)..!!

لقد كانت (سخرياته) من الحياة، والزمن، ومن أصدقائه وأعدائه.. بل ومن نفسه، تتدفق بتلقائية عجيبة على الدوام.. فيما يكتبه، وفي ما يقوله.. حتى ليحسب الآخرون بأنه ليس بريطانياً في أصوله وجذوره، فقد عُرف عن الإنجليزي - أو البريطاني.. بصفة عامة - بأنه (بارد)، صامت، متعال. لا حد لصبره وطولة باله، أو كما قال أحد الزجالين المصريين الظرفاء عنهم (الإنجليز.. حالهم يغيظ)، لكن (شو) كان.. وكأنه الفريد بينهم، فعندما قدمت مسرحيته (الإنسان والسلاح) واستقبلها الجمهور كالعادة بعاصفة من التصفيق والهتافات.. وصعد شو إلى خشبة المسرح ليحيي ذلك الجمهور ويرد على تحيتهم.. انتصب أمامه أحد

حضور المسرحية معرباً عن سخطه على المسرحية، ومنكراً.. لهذا الإعجاب الذي لا تستحقه، فتوجه إليه شو.. مواسياً وقائلاً: (أنا معك يا صديقي.. وأنت على حق، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل أنا وأنت أمام هذا الجمع الزاخر من المعجبين)..!!

* * *

عندما قارب (الثمانين).. كان ناشرو أعماله القصصية والروائية والمسرحية ومقالاته الموسيقية والنقدية.. يتفقون على جمعها وإصدارها فيما عرف فيما بعد بـ (الأعمال الكاملة)، ليفاجئوه بها.. في عيد ميلاده القادم.. محبة وتقديراً وعرفاناً له واعترافاً بمكانته، فكانت المفاجأة من نصيبهم.. كما كانت من نصيبه!! إذ بلغت (مجلداتها).. ثلاثين مجلداً.. لتكون أول (أعمال كاملة) بهذا الحجم الفريد!! لقد ترجم معظمها - إن لم يكن جميعها - إلى كل لغات العالم.. وقرأها مثقفو القارات الست، فليس.. في المعمورة بينهم من لم يقرأ لـ «شو»، ويعجب به، ويردد سخرياته.. وربما يتمنى لو أنه كان (شو) آخر، أو أن يظهر شو.. آخر، بـ (أجماله) وتفاصيل مفرداته!!

لقد كان على حق ناشر مسرحيته الرائعة (العودة إلى ميتو شالح).. عندما قال في تقديمها: (إنها مسرحية الزمن كله، ومراحل الإنسان كلها، والبداية والصراع والنهاية.. بقلم شكسبير العصر الحديث، الساخر.. الذي كانت حياته نفسها أعجوبة الأعاجيب)..!!

نعم كانت أعجوبة الأعاجيب.

فلم تتخل عنه فيها ملكاته الإبداعية والفكرية.. ولم يتخل هو عن سخرياته ولواذع كلماته فيها.. حتى آخر لحظة من حياته، فعندما عثرت به قدماه.. وهو يقوم بتشذيب أوراق حديقة منزله وتنسيق زهورها وورودها، وأجريت له جراحة..أقعدته عن السير على قدميه، وجعلته يعتمد على كرسي متحرك وهو في الخامسة والتسعين، بين يدي ممرضة شابة.. مفتونة به وبأعماله وسحر كلماته كان يقول لها ذات يوم ضاحكاً شاكراً ساخراً: (كم تحاولين أن تحافظي على هذه التحفة العتيقة؟ لقد فرغت من الدنيا وانتهى الأمر.. أنا ذاهب لأموت)!؟

فمات - بعدها - عام ١٩٥٠م.. وهو في السادسة والتسعين من عمره، ليكون أول المتفجعين عليه، والباكين لرحيله.. والراثين لقدْره ومكانته: (المستر كليمنت اتلى) رئيس حزب العمال البريطاني الأشهر، وهو يقول: (لقد كان شو. أعظم سامر فكه من سمارنا.. وأعظم معلم لنا.. وما من إنسان عمل أكثر منه على شحذ أفكارنا)، وليكون ثاني عارفي قدْره ومكانته والفجيعة في فقده (الباندبت جواهر لآل نهرو) رئيس وزراء الهند الأشهر.. الذي قال: (بيرنارد شو جزء من تفكيرنا الفردي.. وهو جزء من المناخ الذهني لأزمتنا الراهنة)..!! ليدفن رفاته.. في (الويست منستر آبيه).. مدفن عظماء الإمبراطورية ولتحلق روحه مع الخالدين.. مع تلك الشموس التي لا تغيب أبد الدهر!!

الحلقة الثامنة والعشرون

الشيخ طنطاوي

من على البعد عرفت وأحببت كثيراً من مشايخ الإسلام وفقهائه.. بل ودافعت ونافحت (فكرياً) عن بعضهم، كدفاعي - في محاضرتي الوحيدة والمفقودة في نادي الطائف الأدبي - عن ثائر الإسلام الأعظم (جمال الدين الأفغاني) الذي عاش ومات من أجل دعوته الجبارة النضرة في سبيل الحرية والعدالة والمساواة ووحدة الأمة في القرن التاسع عشر، كما اختلفت مع بعضهم (سياسياً).. كاختلافي مع رؤية الإمام (محمد عبده) شيخ الأزهر المحبوب، وصاحب صحيفة (العروة الوثقى) المهاجرة، وصديق (الأفغاني) وتلميذه.. الذي كان يرى - وحتى نهاية القرن التاسع عشر -.. بأن (التحرر) من الاستعمار البريطاني لن يتحقق لـ(مصر) إلا بتعليم المصريين ومحو أميتهم، لأعبر عن اختلافي معه.. في الحفل الذي أقامته (دار الهلال) في خريف عام ١٩٩٢م في القاهرة بمناسبة مرور مائة عام على صدور (مجلة الهلال)، التي أصدرها - عام ١٩٨٢ صاحب (الدار).. الأديب والكاتب والروائي المصري المعروف: الأستاذ جورجي زيدان.. الذي بهر المصريين والعالم

العربي برواياته (الإسلامية) الشهيرة.. من أمثال (المملوك الشارد) و(جهاد المحبين) و(عروس فرغانة).. وهو يحمل الصليب فوق صدره!! عندما قلت في كلمتي تلك بعد أن حييت مصر ودورها الثقافي والريادي السياسي الملهم والمعلم لأمتها العربية.. وكأن الإمام محمد عبده - رحمة الله عليه - يحضرنا: بأن من حسن حظ المصريين.. أنهم لم يستمعوا لرؤية (الإمام) التثبيطية حتى ينتظروا محو أمِّية آخر مصري لينالوا حريتهم واستقلالهم!! إذ لو أنهم استجابوا لتلك الرؤية.. لما غادر آخر جندي بريطاني أرضهم في شهر يونيه من عام ١٩٥٤م، وبمصر مايزيد عن الثلاثين بالمئة من الأميين.. إن لم يكن أكثر، فمع الاحترام والتقدير لرؤية (الإمام) التربوية.. بأن (العلم) هو طريق الحرية،، فإن هناك طريقاً آخر لـ (الحرية) هو نضال الشعوب المؤمنة بحقها في الحرية، وهو ما فعلته مصر عبدالناصر.. بعد عامين من قيام ثورة يوليه ٥٢م وكأنها تؤكد ما قاله شوقي في الثلاثينات:

(يا مصر أشبال العرين ترعرعت

ومشت إليك أسودا

والله ما دون الجلاء ويومه

يوم تسميه الكنانة عيدا)

* * *

أما على القرب.. فقد كان من حسن حظي في هذا الجانب أن أتعرف على شيخنا (علي الطنطاوي) سماعاً.. في النصف الأول

من ستينات القرن الماضي، عن طريق الصديق والزميل الدكتور سميح الخضراء.. الذي حدثني عنه، وعن علمه وثقافته وذوقه وخفة ظله وشعبيته الجارفة في بلاد الشام (ويعني بها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.. مجتمعة)، لأتعرف عليه (لقاءً).. في منتصف السبعينات بمنزل (الاستاذ) - على توصيف أهل مكة و- (الشيخ) - على توصيفي - محمد عمر توفيق.. وقد غدا (الفقيه) النجم بين فقهاء عصره.. عبر برنامجيه: الإذاعي التلفزيوني (نور وهداية).. والتلفزيوني (على مائدة الإفطار)، اللذان ظل يقدمهما.. بأعلى نسب المشاهدة والاستماع.. بامتداد سنوات حياته، وإلى أن ناف عن التسعين.. وقعدت به صحته عن مواجهة «مايكروفونات» الإذاعة وكاميرات التلفزيون، ليخبرني وقد تواصلت بيننا الأسباب.. بأن مجيئه إلى مكة والاستقرار فيها تأخر قرابة ربع قرن من الزمان، فقد دعت له (عمته) محبة فيه.. عام ١٩٢٦م بـ (أن يطعمه الله حجة والناس راجعون من الحج، وأن يتحول التراب في يده إلى ذهب)!! وقد تحققت «الأولى» ولم تتحقق الثانية.. فقد تاهت قافلتهم في الطريق إلى مكة.. ثمانية وخمسين يوماً، فلما وصلوها.. كان الحج قد انتهى وغادر معظم الحجاج إلى أوطانهم، إلا أن (مكة ملأته خشوعاً ورهبة).. تلك الأيام، ليعود إليها ثانية وبعد خمسة وعشرين عاماً: «أستاذاً» بكلية الشريعة.. دون أن يحمل الدكتوراه ولكنه كان يحمل علماً شرعياً، ولغوياً، وثقافة موسوعية لم تتأت لكثيرين من حملة الدكتوراه، وهو ما جعله (شيخاً) و(إماماً) للمسجد الذي كان والده يؤم الناس فيه.. إلى

أن مات، ليختاره أهل حي (العقيبة) - في أطراف دمشق - ليكون (إماماً) للمسجد.. خلفاً لأبيه وهو في السابعة عشر من عمره، ليصبح بذلك أصغر إمام تعرفه دمشق.. وربما مساجد العرب جميعاً، فكان بحكم سنه.. يضع طربوشاً على رأسه، ولكن اتفاقاً مع العادة في أن يكون الإمام (معمماً).. فقد اضطر لأن يلف عمامة على طربوشه!! إلا أن بعض رجالات الحي جاءوه ليقولوا له بأنه (لابد وأن تكون للإمام لحية)..؟ فأجابهم على طريقته البارعة في الخلاص من مطبات الأسئلة التي كان يتعرض لها في برنامجيه: (العمامة أتينا بها من (البزاز).. فمن أين آتي بـ (اللحية)؟!

* * *

لكن هذا الشيخ الصغير.. سرعان ما كشف عن مواهبه وقدراته وإمكاناته الكبيرة عندما أصدر كتابه (النقدي) الأول وهو في الواحدة والعشرين من عمره (رسائل الإصلاح)، الذي هاجم فيه المشايخ، وأساليبهم العقيمة وعلمهم المحدود كقول أحد أئمتهم في صلاة جهر: (ألف. لام. ميم.. نشرح لك صدرك) فكان المأمومون خلفه يصيحون (ألم.. ألم)!!.. فتكاتفوا بالرد عليه بمقالاتهم وكتبهم ككتاب (الإفصاح عن رسائل الإصلاح)، ثم كان كتابه الثاني (رسائل سيف الإسلام) وكان هجوماً على الشباب والمشايخ بحد سواء.. وهو ما جعله يخطف الأضواء من أشقائه الذين اعترف لهم - أو جاملهم - بأنهم كانوا «أنفع» منه!! ليثلث بكتابه (الهيثميات) الذي جمع فيه مقالاته التي كان يوقعها بـ (أبو هيثم).. ثم أعقب ذلك بإصداره (مجلة البعث)!!

التي عُرفت وانتشرت في الشام والعراق.. قبل أن يقوم الأستاذان صلاح البيطار وميشيل عفلق بتأسيس حزبهما السياسي المعرف بـ (البعث) العربي الاشتراكي بما يزيد عن العشر سنوات، لتفتح له مصر أبوابها للإقامة فيها.. و(مجلة الرسالة) صفحاتها للكتابة فيها، ليجاور قلمه أقلام أساطين الكتابة آنذاك من أمثال العقاد والرافعي والمازني وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات رئيس تحريرها الأسطوري، الذي توثقت علاقة (الطنطاوي) به.. حتى غدا وكأنه فرد من أفراد أسرته لا كاتباً من كتاب الصف الأول في مجلته.. التي كانت وكأنها إنجيل المجلات التي يتلقى عنها، ويتربى على فكر كتابها مثقفو الأربعينات والخمسينات في مصر وخارجها.. ليسافر عبر صفحاتها قلم الشيخ الطنطاوي واسمه وفكره وأدبه وثقافته إلى بقية أوطان العروبة، فتتضاعف شهرته ويزداد تألقه.. إلى أن بزغ نجم عبدالناصر وحقق في الخمسينات وإلى مشارف الستينات ما لم يحققه زعماء مصر الكبار في الثلاثينات والأربعينات.. ليكتب الأستاذ الزيات مقالاً - بعد الجيشان القومي الكاسح الذي استقبلت به الوحدة المصرية السورية وبطلها في (دمشق) - فضَّل فيه - كما قال الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته - عبدالناصر على الرسول (صلعم) وعلى صلاح الدين.. فانقطعت العلاقة بينهما على الفور، بل وانطوت المرحلة المصرية من حياة الشيخ الطنطاوي، وعاد إلى الشام.. ومنها إلى مكة، ليبدأ حياة جديدة تعتمد على وسائل العصر الجديدة.. من إذاعة وتلفزيون، ليغدو بعد سنوات قلائل نجم فقهاء زمانه بـ (سماحته) واستنارته وجرءته و(خفة

دمه)، التي لم تسلم من تعليقاته الضاحكة.. عندما أثنى عليها أحد مشاهديه، فرد عليه.. قائلاً: (بس إن شاء الله.. ما بتنتقل هذه الخفة من الدم إلى العقل)..!!

* * *

لم تأت هذه النجومية الكاسحة للشيخ علي الطنطاوي من فراغ.. وقد زحفت إليه بداية من (الشام) شاباً، وترعرعت معه في (مصر) كهلاً، وسطعت معه في (مكة) شيخاً: حتى أصبح أحد الثمانية - أو السبعة - المشايخ الذين لهم حق الفتوى في (المملكة) من خارج أبنائها.. ولكنها جاءته من تجاربه، وتراكمات ثقافته الأدبية: قراءة وإبداعاً، ومن وسطيته الإسلامية وعصريته الثقافية، وبعد نظرة في فهم الشريعة ومقاصدها دون تشدد أو تفريط، وجاءته من قبل ومن بعد.. من حلاوة ورشاقة حديثه الذي لا يمل، ومن جمال وذكاء تعليقاته.. ليكون المتفرد بين أقرانه من الفقهاء والمشايخ، الذي لا يخلو رد من ردوده.. من ثقافة، ولا يخلو آخر.. من (طرفة)!!

فـ (الأصل) في الزواج عنده.. (واحدة)!! ومن قال إن (الموسيقى) حرام؟! ومن قال إن الغناء حرام.. إلا أن يدعو إلى كفر صريح..؟ فإذا التقى بـ (الشيخ القمني) الإيراني.. في القاهرة، وقد جاءها في مطلع الستينات لافتتاح مركز للتقريب بين السنة والشيعة؟! قال له: (إن من الخير إقامته في طهران..)!! ثم أضاف قائلاً له: (لكم موقف من بعض الصحابة الذين نترضى عنهم جميعاً: فليس هناك سبيل للتقريب: فإما أن نفعل مثلكم..

وإما أن تفعلوا مثلنا وليس هناك حالة ثالثة)، إلا أنني أذكر إضافته العميقة.. عندما التقيت به في ديسمبر من عام ١٩٩٨م وقبيل عام من رحيله - المأسوف عليه - لإجراء حوار صحفي شامل معه وسألته في ختامه عن حقيقة الخلاف بين الشيعة والسنة؟ إذ قال لي (الخلاف معهم ليس دينياً في الأصول.. ولكنه خلاف سياسي كما يقولون)، ثم أضاف ضاحكاً.. إنه كالخلاف بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية!!

* * *

وبعــــد،

إذا كان للشيخ علي الطنطاوي.. أن لا يفتخر باختيار الداعية الإسلامي الأكبر الشيخ أبو الحسن الندوي.. له -- دون الآخرين على كثرتهم - لتقديم (ذكرياته) إلى قرائه وهم بمئات الآلاف.. حتى لا يقع في دائرة التباهي بـ «النفس»، فإن له - بالقياس نفسه - أن يفتخر بحالة (الأسى) التي عاناها لأن صديقه (ميشيل الراوردي) لم يدخل الإسلام وقد كان بينه وبين الإسلام خطوة، كما أن لقراء الشيخ الطنطاوي - في المقابل - أن يفتخروا ويعتزوا بـ (الرصيد) الفقهي والثقافي والأدبي العريض الذي خلفه من ورائه في عشرات المؤلفات، والتي يتصدرها دون شك سفر ذكرياته (ذكريات.. علي الطنطاوي).. أو قصة حياته، ومرحلته وجيله.. على وجه الدقة.. بأجزائه الثمانية، فقد كان تاريخاً وفقهاً وأدباً وفناً وذوقاً.. وخفة ظل لا تنتهي، لم ينس فيها أستاذه (محمد علي

كرد) وملهمه (شكيب أرسلان) وصديقه الأقرب إلى روحه (أنور العطار).. والأقرب إلى فكره (سعيد الأفغاني)، ومعلمه فن الجمع بين الجد والهزل في المواعظ (الشيخ عيد السفرجلاني).. الذي بزّه فيها وفي غيرها (الشيخ الطنطاوي)، إذ لا أظن.. أن أحداً نسي قفلته البديعة والمتكررة لبرنامجه (نور وهداية).. عندما يدع أكثر الأسئلة - المقدمة إليه - حرجاً.. إلى ما قبل نهاية البرنامج بثوان، فيذكر السؤال.. ثم ينظر إلى ساعته، ليحتمي ب (الوقت) وتجاوزه إذا أراد الإفلات من الإجابة على السائل.. قائلاً: (والله مو بإيدي.. شو باعمل «المخرج» عم بيأشر لي.. أن وقت البرنامج انتهى)!! ثم يشفع ذلك.. بابتسامة ونظرة لا تخلو من مكر وذكاء معجونتين بسماحته وطيبته!!

لقد حمله مجمل إنتاجه الفقهي والأدبي، وحضوره الدائم والشفاف عبر موجات الإذاعة وشاشة التلفزيون.. لأكثر من ثلاثين عاماً.. إلى عربات الخلود، ليبقى في سمع الأجيال وبصرها وذاكرتها: شمساً لا تغيب.. ونجمة لا تنطفئ.

وعندما دنا الأجل منه بعد واحد وتسعين عاماً..!! كان موته رحيلاً هادئاً.. وانتقالاً ناعماً.. من عالمه إلى العالم الآخر، فلم يتغضن وجهه، ولم يتساقط شعره، ولم تذبل ابتسامته الوادعة المطمئنة.. ليلقى ربه بـ «صورته» الوسيمة الجذابة التي كان عليها وعاش بها.. وعرفناه فيها!!

الحلقة التاسعة والعشرون

طه حسين

كان (طه حسين).. بحق علم أعلام الثقافة والأدب والفكر العربي طوال سنوات القرن العشرين.. حتى لُقب في منتصفه بـ(عميد الأدب العربي): بعمادته لآداب جامعة القاهرة، وبدونها من بعد.. وإلى أن مات عن أربعة وثمانين عاماً في السادس عشر من أكتوبر من عام ١٩٧٣م.. وإلى الآن وغد.. وإلى أن يشاء الله، لأن (عمادته) لا تخلع ولا تورث (؟) فليس هناك من لا يعرفه.. أو يعرف بعض أو كل إنتاجه التاريخي الباهر من (الفتنة الكبرى) إلى (على هامش السيرة) إلى (الشيخان) إلى (الوعد الحق) إلى (علي وبنوه)، وليس هناك من ينافسه في دراساته العميقة الحرة الرائعة عن (أبي العلاء المعري) وشعره وفلسفته وسجنه، أو عن (ابن خلدون) وفلسفته الاجتماعية، وليس هناك من يحازي أو يوازي تنوع.. نتاجه الأدبي الثر، من (الأيام) إلى (شجرة البؤس) إلى (دعاء الكروان) إلى (أديب)، بل وليس هناك - على الجانب الآخر - من لا يتمثل بـ «حياته».. باعتبارها النموذج الإنساني الأعلى لتجسيد (التحدي) البشري أمام أعنف المعوقات، وأشدها ضراوة في حياة الإنسان.. من (العمى المبكر).. إلى (الفقر

الدائم).. إلى المكانة العائلية (المتواضعة)، عندما كانت تحسب تلك (المكانة) في مطالع القرن الماضي.. بأطيانها وأراضيها التي تملكها أو التي ورثتها، الأمر الذي ضاعف من فرح والده (الشيخ حسين).. وهو يستعد لاستقبال ابنه العائد إليه من (القاهرة) بعد أن حصل على (أول) دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية، وبعد أن أقام له رئيس الجامعة (علوي باشا) حفلاً تكريمياً خاصاً بمنزله.. ليقدم له مكافأة تفوقه، وبعد أن التقاه (الخديوي) وتحدثت عنه الصحف وقد تقرر ابتعاثه وهو (المكفوف) إلى (فرنسا) لاستكمال دراسته العليا، ليقول (والده) محدثاً.. أبناء قريته وجماعته من فلاحي (وصمايدة) مركز (مغاغة) نشوان جزلاناً: (لله في خلقه شؤون. هذا أضعف بني وأخفهم عليَّ حملاً وأقلهم نفقة. قد أتيح له ما لم يتح لإخوته الأقوياء المبصرين الذين كلفوني من النفقة ما أطيق وما لا أطيق، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ولم يقابل الخديوي واحداً منهم، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوروبا كما سافر إليها أبناء الأغنياء. وكان قصارى ما تمنيت لابني هذا أن يجلس إلى عمود في الأزهر ليلقي الدروس على بعض طلابه.. فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الأعاجيب)!!

* * *

لكن هذا الشاب المكفوف الذي لم يكن ليحلم له والده بأكثر من عمود في صحن الأزهر، يدرِّس فيه لطلبته (نهج البلاغة) أو (البيان والتبيين).. كان يملك طموحاً بحجم جبل (المقطم)،

وشموخاً بارتفاع (أبو الهول) وقدرة خارقة على الدراسة والتحصيل.. حملت جامعته على ابتعاثه إلى فرنسا، إلا أن (البعثة) لم تتم.. كما كان مقرراً لها في الرابع من شهر أغسطس من عام ١٩١٤م.. بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى في الشهر التالي من ذات العام (سبتمبر)، ليُصدم (طه حسين) في أول فرحة حقيقية له بعد معاناته القاسية الطويلة.. مع بصره المكفوف وقلته القاتلة واستخفاف العامة به في (مغاغة)، وبين (الأزهر) وطلبته.. حيث يدرس، وفي (حوش عطا) و(درب الجماميز).. حيث يقيم، ليبقى في القاهرة مكلوماً حتى تنتهي سنوات الحرب أو تظهر معالم النصر لأي من الفريقين (الفرنسي البريطاني) أو (الألماني التركي).. ليعمل مدرساً بـ (جامعته) بأدنى أجر عرفه سلك التدريس الجامعي آنذاك.. خمسة جنيهات (!!) فيبقى على طعامه الأزهري القديم: الخبز والعسل الأسود نهاراً، وشيء من (البليلة) وحبات من التين.. مساءً.. (!!).

ومع أن دراسته عن أبي العلاء التي نال عنها درجة (الدكتوراه).. قد طلبت نشرها جريدة (السفور) تحت عنوان (في ذكرى أبي العلاء).. ثم أخذت تنشرها تباعاً على حلقات وهي تقدمه للقراء أجمل تقديم أرضاه ورفع من معنوياته، إلا أنه لم يتقاض عن نشرها مليماً واحداً، بل جاءه نشرها بما لم يكن في حسبانه.. عندما اتهمه أحد أعضاء (الجمعية التشريعية) بـ (الإلحاد)!! وهو يطالب الحكومة بإيقاف (المعونة) عن هذه الجامعة المصرية الأهلية التي تخرج (الملحدين).. بل وتمنحهم

شهادات الدكتوراه عن (إلحادهم)!! ولولا أن دافع عنه وعن تعليمه الأزهري السابق.. السياسي البارز وعضو الجمعية التشريعية آنذاك (سعد زغلول)، بل وهدده إذا لم يسحب طلبه.. بأن يدفع بأحد الأعضاء - من جانبه - للمطالبة بإيقاف المعونة الحكومية عن (الأزهر) نفسه في المقابل.. لربما تردى حال الجامعة وأغلقت أبوابها، وتضاعف بؤسه وشقاؤه!! لكن الله.. كان به رحيماً، إذ سرعان ما طلبت فرنسا - بعد أن اتضحت لها بوادر النصر على المحور الألماني التركي - بعودة الطلبة المصريين المبتعثين إليها لاستكمال دراساتهم العليا، إلا أن الجامعة صدمته بشرط دفع مرتب واحد له ولـ (مرافقه)، وأن عليه - والحالة هذه - أن يتدبر أمره بهذا المرتب (الشحيح) هو ومرافقه!! فقبل مضطراً.. ليعيش هو و(شقيقه) عيشة الكفاف في جامعته (مونبيلييه).. التي كان عليه أن يحصل منها على (ليسانس الآداب) الفرنسية بعد أن يجيد اللغة (اللاتينية) كالفرنسيين تماماً.. وقبل أن ينتقل إلى (باريس) ويلتحق بـ (السوربون)، فقبل.. وأخذ يبحث له عن مدرس يعلمه هذه اللغة الجديدة عليه، والتي لم تكن في حسبانه، فكان حظه حسناً.. عندما انشقت له الأرض عن مدرس (مكفوف) جريء، تعهد له بأن يعلمه اللاتينية ويجوِّد له (فرنسيته) حتى يصبح وكأنه فرنسي من قلب «باريس».. مقابل أجر بدا له معقولاً، ومع ذلك فقد كانت قدراته المالية.. أضعف من أن تسدد عنه هذا الأجر المعقول!! فكتب إلى الجامعة يستنجدها؟ ولكن الجامعة الأهلية.. بميزانيتها المحدودة اعتذرت له بعدم قدرتها، ليستنجد بصديقه الأستاذ

لطفي السيد رئيس تحرير صحيفة (الجريدة) التي كان يكتب فيها نقده الهادئ - أما نقده الصارخ فقد كان يخص به صحيفة الحزب الوطني.. وصديقه رئيس تحريرها (عبدالعزيز جاويش) - أيام تدريسه بالجامعة المصرية الأهلية، والذي قال عنه.. بأنه سيكون (موليير) مصر في المستقبل - الأديب الفرنسي الأشهر.. الساخر والسليط -.. فأنجده مستعيناً بـ (ولي العهد) آنذاك الأمير أحمد فؤاد، رئيس الجامعة الفخري.. ليقوم بسداد أجور مدرس (اللاتينية)، والذي صدق في تعهده.. فقد أجاد طه حسين اللاتينية كالفرنسية على يديه، وحصل على (ليسانس الآداب) الفرنسية.. ليكون أول مصري أو عربي يحصل على ذلك المؤهل، وهو ما هيأ له الانتقال إلى جامعة (السوربون) وبلوغ عاصمة النور والحرية (باريس)، حيث عرّفته إحدى صدفه السعيدة - النادرة - على من كان يسميها بـ (صاحبة الصوت العذب) سوزان، التي استفزها كفاحه وجلده وقتاله على كل الجبهات.. مما جعلها تعطف عليه وعلى طموحه النادر الذي أدهشها، بل وتتعهد بأن تقرأ له روائع الأدب الفرنسي شعراً ونثراً.. بقدر ما يسمح به وقتها، فكان صوتها العذب، وقصائد الشاعر الفرنسي (راسين) الرائعة التي بدأته بها.. هما النافذة التي أطل من خلالها على (الجنة) لتصبح حياته بعدها زهوراً ملونة، وحدائق غناء، وعصافير تزقزق بين أغصانها.

* * *

لكن جنته.. لم تدم، ولم تدم الحياة فيها طويلاً، فقد عصفت بجامعته (الأهلية) أزمة مالية خانقة.. اضطرت معها لأن تسحب جميع طلبتها المبتعثين، وأن تعيدهم إلى مصر..!! فعادوا وهم يجرون خلفهم حقائب من الأحزان والدموع بدلاً من أن يحملوا على صدورهم باقات الفرح والبهجة بالعودة إلى أرض الوطن.. فكان أول النائحين الباكين هو (طه حسين)، الذي سيفتقد بعودته إلى (مصر).. ليس فرنسا وباريس، وحياتهما اللتان مهما اشتدتا عليه.. فلن تكونا في شدة وبؤس حياته في صحن الأزهر وبين (حوش عطا) و(درب الجماميز).. ولكنه سيفتقد ذلك (الصوت العذب) الذي لولاه لما حلت الدنيا في عينيه، فكان شقاؤه مضاعفاً!! وقد زاد منه عندما اعترض أكبر أشقائه - وهو يستقبله - على (النظارة) البلاستيكية السوداء المتواضعة التي كان يستر بها (عيناه) أخذاً بأسلوب الفرنسيين في درء عين المكفوف عن الناس.. وهو يقول له: إنها (رخيصة) لا يزيد ثمنها عن (قرشين).. وهي لا تليق بك ولا بمن تلقاهم من الأساتذة وكبار المسؤولين، وأنه سيهديه نظارة سوداء جديدة ذات إطار ذهبي.. تتفق ومكانته، فكان سروره لا يوصف.. وهو يضع تلك النظارة ذات الإطا ر الذهبي - التي قدمها له شقيقه الأكبر - على أرنبة أنفه.. لكن (علوي باشا) رئيس الجامعة كانت همومه بعودة (طه حسين).. من نوع آخر، فقد كان حريصاً على أن يتم هذا (المبتعث) بعثته بنجاح.. يتكافأ وقدراته ومواهبه التي لم تخف عليه ولا على الكثيرين ممن عرفوا طه حسين.. آنذاك، فقرر أن يعيده بعد ثلاثة أشهر إلى باريس.. وأن يتحمل من جيبه

الخاص نصف مرتبه، على أن تتحمل (أسرة) طه حسين.. النصف الآخر، فكتب لشقيقه المقيم في القاهرة بذلك، ولكن (الشقيق) فاجأه بـ (اعتذاره).. وبأن الأسرة (فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تُراد عليه)، وهو يطلب من الباشا (أن يستعين بالسلطان على تعليم هذا البائس)!! دون أن يعلم والد طه حسين بأي شيء من ذلك الأمر! لكن الأستاذ لطفي السيد هب مرة أخرى.. لنجدة (الباشا) ومشروعه التربوي النبيل، وأخذ طه حسين يستعد للعودة إلى (باريس) ومعه صديقه (الدرعمي) - خريج دار العلوم -.. ليقول له (علوي باشا) وهو يودعه: (أقسم لك يا بني.. ما عاد صديقك هذا - يريد الدرعمي - إلى فرنسا إلا من أجلك.. ثق بالله ولا تخف)، وركب (طه حسين) القطار إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أشهر من عودته.. في طريقه إلى فرنسا عن طريق ميناء (نابولي) الإيطالي، ليجد في وداعه شقيقه الأكبر، الذي لم تثنه لحظة الوداع بكل شجنها.. عن أن يطلب منه استرداد برواز النظارة الذهبي الذي قدمه له عند قدومه.. لأنه يحتاج إلى (ثمنه)!! فأعطاه إياه مكلوماً.. ليأخذه القطار من (نابولي)، إلى (باريس) في ثلاثين ساعة، لم ينطق خلالها بكلمة واحدة، ولم يتحرك فيها من مكانه، ولم يدخل جوفه زاداً أو شراباً حتى ظن مرافقه (الدرعمي) بأنه خائف من هذا القطار (الأوروبي) المختلف عن قطارات مصر، وقد حاول أن يسليه.. بأشعار صديقه (المعري) أو بـ (بردة) البوصيري التي يعشقها.. أو بتلك الأغاني العربية الكلمات والفرنسية النغم التي كان يؤلفها وتستحسنها - فيما مضى - زميلاته الباريسيات

في الجامعة.. دون فائدة!! فقد كانت تضطرم داخل ذلك (الجماد) الصامت غير المتحرك الذي أصبح عليه (طه حسين).. دوامات وأعاصير من الحزن والأسى والكآبة.. تقابلها نسمات رقيقة واجفة من العواطف والحنان، وهو يسترجع صورة (علوي باشا) ومواقفه.. و(لطفي السيد) ونجداته.. أمام موقفي شقيقيه: (المعتذر) عن تحمل نصف مرتبه.. والمستعيد لـ (برواز) الذهبي، ومع ذلك التمس طه حسين العذر لهما عندما كتب مذكراته، وهو يرى أن (الحاجة) والقلة هما اللتان أجبرتاهما.. على ما فعلاه (ولم يكن ذلك صحيحاً.. من وجهة نظري)!!

لكن عندما أهلت عليهما.. نسمات (باريس)، وبلغا فندقهما في الحي (اللاتيني)، وطرق بابهما أول زائرين يستقبلانهما في باريس.. كانت صاحبة الصوت العذب (سوزان) إحداهما، تغير وتبدل كل شيء.. وتحول الصمت الطويل الكئيب إلى أحاديث متدفقة.. عن الأمس واليوم والغد.. والسوربون وأشعار راسين وابداعات فولتير وروايات شاتوبريان، وليبدأ منذ تلك اللحظة.. في رسم خطته لكتابة رسالته للدكتوراه عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية)، ليكتشف أنه في حاجة للحصول قبلها.. على (دبلوم الدراسات العليا) في (التاريخ القديم) الذي سيؤهله لكتابة وتقديم رسالته.. وكما تقضي بذلك أنظمة (السوربون)؟!

على أن أحاديث (السياسة) كأحاديث (الدراسة).. كأحاديث (الحب)، يختلط بعضها ببعض على الدوام في حياة الطلبة عموماً.. والمبتعثين منهم خاصة، فبعد أن انفض (مؤتمر السلام)

الذي عُقد في (فرساي) بعد الحرب.. وبدأت الشعوب تبحث عن استقلالها وفقاً لمبادئ الرئيس الأمريكي (ويدرو ويلسون).. الأحد عشر، أعلن البريطانيون عن عزمهم منح (مصر) استقلالها عبر (مفاوضات).. انقسم المصريون فيها حول من يفاوض بريطانيا: «الحكومة» أم «الوفد».. وإلى الحد الذي جعل (الوفد) وأنصاره يسيّرون المظاهرات في شوارع القاهرة وهي تهتف (الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي)..!!

* * *

كانت الدراسة تستغرق (طه حسين).. آنذاك، والتحضير لنيل (دبلوم الدراسات العليا) يشغله، و(سوزان) صاحبة الصوت العذب تقرأ له متون الفرنسية واللاتينية، وهو يدرس بـ (أذنيه) ويكتب بـ (لسانه).. حيث جاءته الجرءة أخيراً وبعد طول تردد في أن يفاتحها بـ (حبه) لها، فهي التي (جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة، وبؤسه نعيماً، وظلمته نوراً).. ولكنها اعتذرت عن أن تبادله هذا الحب، دون أن تخل بالتزامات الزمالة والصداقة نحوه، وهو ما خفف عنه (صدمة) رفضها.. فهي ماتزال تقرأ له المتون وتصحبه إلى (السوربون) ذهاباً أو إياباً، وتتابع كل صغيرة وكبيرة من شؤون دراسته حتى حصل على (دبلوم الدراسات العليا)، وبدأ إعداده لرسالة الدكتوراه عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية).. لتقرأ عليه (سوزان) بداية: الترجمة الفرنسية لـ (المقدمة).. التي كتبها ابن خلدون عن دراسته، والتي عُرفت واشتهرت بين الدارسين والأدباء والشعراء والمثقفين.. بأكثر من (الدراسة) نفسها..!

وفجأة.. مرضت (سوزان)..! مرض الصوت العذب.. ونامت صاحبته على السرير الأبيض مع قدوم صيف ذلك العام، ليكون أول من يزورها ويتردد عليها للاطمئنان على صحتها، ليعيد عليها وهي على السرير الأبيض.. قصة حبه لها وأمنياته في أن يجمعهما بيت واحد، فلم تصدمه باعتذارها هذه المرة.. ولكنها أخبرته وهي تستعد لمغادرة المستشفى، والذهاب إلى جنوب فرنسا.. لقضاء إجازة الصيف مع عائلتها.. بأنها ستفكر ملياً في الأمر، فإذا كتبت له من هناك.. تدعوه للقدوم إليها، فإن ذلك يعني.. أنها أجابت طلبه!

وغادرت المستشفى.. وباريس إلى الجنوب، بينما بقي هو في باريس.. ينتظر على أحر من الجمر تلك الرسالة الأمل: التي قد تأتي.. وقد لا تأتي، بين إشفاق زملائه عليه من صدمة رفض قد لا يحتملها..؟!

لكن قدره الرحيم.. جاءه بـ (الرسالة) الأمل قبل أن ينتهي شهر أغسطس من ذلك العام، ليطير إلى الجنوب.. ويتقدم لخطبتها من أبويها، فيكون قبولهما، لتصفو له الأيام.. فيكرس حياته وعلى نحو سعيد مطمئن لم تعرفه من قبل.. لدراسته وخطيبته التي سرعان ما أصبحت (زوجته).. رغم مماحكات إدارة البعثة وأنظمتها التي تقضي بعدم السماح للمبتعث بـ (الزواج) قبل أن ينتهي من دراسته!!

* * *

ليعود أخيراً إلى القاهرة بعد انقضاء سنوات بعثته بحلاوة أيامها وكفاح لياليها.. محملاً بثلاث شهادات: (ليسانس آداب، ودبلوم دراسات عليا ودكتوراه دولة).. و(لغتين) هما الفرنسية واللاتينية.. و(مكانة) لم يحظ بها مبتعث من قبل، ويده معلقة بيد (سوزان)، وعلى صدره ابنتهما البكر (أمينة)، ليبدأ حياته العلمية والعملية.. محاضراً.. فأستاذاً.. فعميداً.. فـ «مديراً» لجامعة الإسكندرية.. فوزيراً.. فرئيساً لـ (اللجنة الثقافية للجامعة العربية)، وليبدأ معها حياته الأدبية.. بـ (أول) سطورها (حديث الأربعاء).. فكتابه المدوي (في الشعر الجاهلي) الذي جر عليه مجدداً تهمة (الإلحاد)، بعد أن رفع ثلاثة من أعيان مصر (بينهم شيخ الجامع الأزهر).. بلاغات إلى (النائب العام) يتهمونه فيها بـ (الطعن) على القرآن الكريم، و(التشكيك) في نسب الرسول الكريم (صلعم)، و(التعدي) على دين الإسلام.. دين الدولة!! لكن النائب العام المستشار القضائي (محمد نور).. أرجأ أصحاب البلاغات إلى حين عودة الدكتور طه حسين من إجازته السنوية، ليبدأ التحقيق معه في تلك الاتهامات.. وفي مجمل ما جاء في الكتاب، في أكتوبر من عام ١٩٢٦م لتنتهي تلك التحقيقات في مارس من العام الذي يليه - عام ١٩٢٧م - بقرار النائب العام - الذي ربما كان هو وحده - الذي أعطى صفة (العدالة) للقضاء المصري منذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا.. عندما قال النائب العام في ختام قرار النيابة (وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر.. فلذلك، تحفظ الأوراق إدارياً)..!؟

ودارت الأيام، ليأتي هذا المتهم بـ (الإلحاد) عام ١٩٥٤م.. إلى المملكة بحكم رئاسته للجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، التي كانت تعمل على وضع مخطط ثقافي كبير، يعمق الفهم والروابط بين أبناء الأمة العربية الواحدة.. ليقول وهو يستقبل الكعبة المشرفة، داعياً: (اللهم لك الحمد. أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق ووعدك الحق. والجنة حق والنار حق والمنون حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت. أنت إلهي.. لا إله إلا أنت)..!! فكان (دعاؤه) الذي قد لا يحسن حفظه كثير من أدعياء الإيمان والتقوى.. خير برهان على صدق إيمانه، وخير دليل على دقة ما انتهى إليه قرار النائب العام المستشار (محمد نور).. عندما أمر بإغلاق ملف القضية وحفظ الأوراق إدارياً!!

* * *

نعم.. في البدء، كان طه حسين.. (ظاهرة) بين المكفوفين، ثم غدا (معجزة) بتحصيله المعرفي المحير، لينتهي (علماً) وراية تلهم المكفوفين أينما حلوا، وتقود كثيراً من المبصرين.. حيثما كانوا، ليكون مستقره في الختام: على صفحات الخلود.. بين صفوة الخالدين.

الحلقة الثلاثون

بودلير

ما أعجب الشبه، بين هذين الشاعرين العظيمين.. على طول المسافة الزمنية بينهما: شاعر العروبة الأول فيما يسمى بالعصر الجاهلي أو ما قبل الإسلام: «امرؤ القيس»، صاحب معلقة (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل/ بسقط اللوى بين الدخول فحومل).. وشاعر فرنسا الأول أو شاعر أوروبا الأعظم: «شارل بودلير» الذي خاطب شرفة حبيبته.. قائلاً:

(يا أم الذكريات، يا سيدة الحبيبات

أنت يا كل مسراتي وأنت يا كل واجباتي

أتذكرين حلاوة القبل

ورقة المأوى، وفتنة الأماسي)

.. فقد سمى النقاد الأول بـ (الملك الضليل).. والثاني بـ (الشاعر الرجيم) أو (الملعون).. بينما كان الشاعران يبحثان عن استرداد (سعادتهما)، الأول.. بـ (استعادة) إمارة أبيه، والثاني.. بـ (استعادة) مكانه بين أحضان (أمه) الدافئ وقلبها الحنون، ليموتا بعد أن عاشا سادرين لاهبين بين الخمر والنساء والغلمان.. ميتة متشابهة: الأول

بـ (الحلة المسمومة) التي أهداها إليه قيصر الروم (يوستينبان الأول).. والثاني بحلة (مرض الزهري) التي ألبسه إياها زوج أمه (الجنرال أوبيك) من حيث يدري أو لا يدري، بعد أن انتزعه من أمه.. وألقى به في إحدى مدارس ليون (الداخلية) الصارمة وهو في السابعة من عمره.. ليُطرد منها بعد فشله، ويصيع في شوارعها وأزقتها مع الصعاليك والمهمشين من أبنائها.. ليصاب بـ (الزهري) في آخر أيامه.. ويموت في عز شبابه المنهك وهو في الثامنة والثلاثين - أو.. الخامسة والأربعين - قريباً من صنوه، الذي مات.. وهو في الثامنة والأربعين..!! ولكن بعد أن بلغ كلاهما - رغم قصر عمريهما المأسوف عليه - ما لم يبلغه أحد من قبل في ملكوت الشعر وسمائه وأرضه.. من رائع البيان، وجميل الصور، وحداثة الأفكار والألفاظ.. في موسيقاها المترفة المتفردة.

* * *

بين عامي (٢٩) و(٦٧) من القرن التاسع عشر.. عاش (بودلير) رفاهه وأحزانه وصدماته وألق موهبته الشعرية، التي خاف عليها عندما بلغ السابعة والثلاثين وقد أخذت تشتد عليه مضاعفات (الزهري) وأوجاعه.. ليقول: (هناك ما هو أخطر من الأوجاع الجسدية، ألا وهو أن موهبتي الشعرية المعجبة ووضوح أفكاري وقوة رجائي التي تشكل في الواقع رأسمالي.. تهترئ، تأفل، تتلاشى في هذا الوجود الرهيب المليء بالهزات)!!

* * *

بداية.. أحب (بودلير) أمه العشرينية الشابة (كارولين).. التي كانت مشغولة به وبحبه ولا شيء سواهما، بينما والده (السبعيني) الذي كان وكأنه جده.. يطوف به حدائق (اللكسمبورج) الباريسية الشهيرة، ليطلعه على تماثيل مشاهير أوروبا من الزعماء والفلاسفة والفنانين والشعراء والأدباء.. الذين تزدحم بهم أرجاء الحديقة، وهو يشرح له مواطن الجمال في تلك المنحوتات.. إلى جانب أحاديثه المسترسلة عن روعة العمارة الفرنسية المحيطة بالحديقة، فقد كان هذا الوالد.. موسراً بقدر ما كان مثقفاً، وهو ما أتاح لـ (بودلير) عيشاً رغداً هانئاً.. بين (أمه) التي يحبها حباً (أوديبياً) مبهماً و(أبيه) الموسر ثقافة ومالاً، ولكن تلك الأيام.. لم تطل، ليصعقه نبأ وفاة والده وهو في السادسة أو السابعة من عمره.. لكنه تجاوز تلك الصاعقة مادامت ستخلي سبيل (الحب) بينه وبين (أمه)، والذي كان ينازعه - في بعضه - على الأقل (والده).. لتبقى له أمه بكل حبها وعواطفها وشبابها وزينتها وعطورها، فلا يشاركه فيها أحد!! ولم يدر بخلد طفولته.. أن أمه التي تحبه بجنون وإلى حد الغيرة عليه حتى من مربيته (ماريت).. ستتزوج - وبعد عام واحد.. لا أكثر - من رجل آخر هو (الجنرال أوبيك)، ليغضب عليها (بودلير).. غضبة العمر، وليصبح هذا الجنرال - أو أي رجل آخر كان سيحل محل أبيه - عدوه الأول، الذي يجب التصدي له وحربه، وقد فعل (الطفل) الصغير بودلير كل ما في وسع طفولته أن تفعله لزلزلة حياة هذا (الغريب).. هذا الجنرال، ولكنه لم يستطع أن يبلغ مراده.. بل توافقت (أمه) مع (الجنرال) على إيداعه إحدى

المدارس الداخلية ذات النظام الصارم في مدينة (ليون).. بعيداً عن باريس، ليذهب إليها وكأنه طريد الفردوس أو آدم الجديد الذي هبط من الجنة.. حزيناً مهموماً و(وحيداً) تماماً إلا من ذكرياته الحارقة.. فكان طبيعياً أن تسوء صحته، وأن يتعثر في دراسته، وأن يُفصل من المدرسة المرة تلو الأخرى.. فيرى البؤس وهو يحيط به من كل جانب.. ليبحث عن مخرج فكان هو (الشعر) الذي أحبه، والأدب الذي عشقه، وقراءة الكتب المحرمة في ذلك الوقت.. نكالاً في (الجنرال) المعتز باستقامته، إلا أنه تخرج في النهاية وحصل على (الاجراجسيون) بل وأصبح شاعراً وكاتباً.. لكنه لم ينس ذلك اليوم الأسود العاصف في حياته، يوم أن تزوجت (أمه) من الجنرال.. ليكتب عنه قائلاً: (حين يكون لامرأة ابن مثلي.. فإنها لا تتزوج للمرة الثانية)!!

* * *

بعد أن عاد إلى باريس.. وقد ناف عن الثامنة عشر عاماً، سكن في الحي اللاتيني.. بأضوائه وسهره وفنانيه وفناناته ومسارحه و(سينماته) وبائعات الهوى والحب الشريف معاً.. حيث عاش حياة حرة من كل قيد، فعل فيها ما يقال وما لا يقال من الموبقات.. علها تنسيه أو تعوضه أيام وحدته وحرمانه الطويلة في (ليون)، ولكنها - للأسف - أحزنته بأضعاف ما أسعدته، وشتته.. بأكثر مما وحدته، ليأتيه مرض الزهري باستحالة شفائه.. فكان حظه بالغ التعاسة، إذ إنه كلما أراد أن ينتقم من (الجنرال).. كان وكأنه ينتقم من نفسه!! ليتفق (الجنرال) مع (أمه) على إرساله في رحلة

ترفيهية بعيدة.. إلى جزيرة موريس - أو موريشيوس - في المحيط الهندي، ليعود بعدها - ربما على عكس ما توقع الجنرال - وقد غنم من أجواء تلك الرحلة (إلهامات وصوراً رائعة.. كانت ركيزة لصوره الشعرية الأصيلة).. كما قال الأستاذ مصطفى السحرتي في دراسته التي سبقت ترجمة الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي.. لديوان بودلير الأشهر والأعظم (أزهار الشر)، والتي قدمها.. قبيل رحيله عام ١٩٥٢م، وأعادت طباعتها دار العلم للملايين.. البيروتية عام (١٩٧٧م)، ليراها العالم العربي.. فيتعرف ولأول مرة على الدكتور ناجي (مترجماً) بعد أن عرفه (شاعراً) من خلال قصيدته (الأطلال) التي شدت بها سيدة الغناء العربي أم كلثوم بعد سنين من رحيله عام ١٩٦٦م، وليتعرف العالم – وهذا هو الأهم ثقافياً – على شاعر فرنسا العظيم (بودلير)، وعلى ديوانه الأشهر (أزهار الشر).. الذي اصطخبت فرنسا والعالم حوله عند نشره عام ١٨٥٧م، دون أن يعلم جنوب العالم العربي - ونحن في مقدمته - عنه شيئاً..!!

عندما عاد (بودلير) من رحلة المحيط الهندي.. كان قد بلغ الواحدة والعشرين، وهو ما أهله للحصول على ميراث أبيه، ليبدأ حياة تعويضية جديدة، أو مرحلة انتقامية جديدة من (الجنرال).. فـ (كان يبحث عن شقية خاطئة، تجمعه بها صلة الشقاء والخطيئة.. فيجد في هذا العامل المشترك بينهما ما يبعث على الشفقة والحنان عند كليهما).. ليقع في حب إحدى بنات الليل الزنجية السمراء (جان دوفيل)، ولكن روح الصلاح والإخلاص.. والتي لم تفارقه - رغم استغراقه في الرذائل بأبشع ألوانها وصنوفها – كانت تشق

طريقها لتظهر على الصفحة الأولى من ديوانه في تلك الكلمة (الحكمة): (سأظل دائماً، وربما إلى الأبد، كذئب وقع في كمين، أثب إلى قمة المثل العليا..).. وليعيشها في حبه العذري لـ (ماري دوبرين) رغم أنه كتب قصائد (أزهار الشر) بين ذراعي (جان دوفيل).. وليكتبها في قصيدته الرائعة (الفجر الروحي)، وهو يقول:

(عندما يطلع الفجر الأحمر على خطيئة
وبينما يختلج الشرف الغالي اختلاجة الندم
فإن هناك تعويضاً غريباً يقوم
إذ يستيقظ ملاكٌ.. من خلف هذه الوحشية
وتتفتح سماوات روحانيته في لازورد فضي
أمام عيني الرجل الخاطئ المتألم
تتفتح وتتمتع ويكون لها عمق الهاوية
هكذا يا إلهتي يكون الطهر والنقاء
اطلعي على أنقاض المعاصي ودخانها
اطلعي باهرة ساحرة لعيني
لقد غطت أشعة الشمس على أضواء الشموع
فانتصري دائماً
انتصري.. أيتها الروح العظيمة
أنت كالشمس الخالدة)..!!

* * *

لقد قال عنه مترجم ديوانه الدكتور إبراهيم ناجي: (أما أنه شاعر من الطراز الأول فهذا ما لا يختلف فيه اثنان، فالموسيقى التي في شعره لا تجارى. وألفاظه متخيرة تخيراً عجيباً. وكثيرٌ من شعره يُتمثل به، ويجري على الألسنة جرياً مدهشاً)، وأحسب أن هذا الذي قاله الدكتور ناجي عن شعره.. وأفكاره وألفاظه وموسيقاها.. حمل الروائية الفرنسية الرائعة (فرانسواز ساجان) بعد مائة عام من وفاة (بودلير).. على أن تضع قصيدته (الغريب) من ديوانه (قصائد نثرية) كـ (مقدمة) لروايتها ما قبل الأخيرة (السحب الرائعة).. والتي يقول فيها:

[- من تحب أكثر.. أيها الرجل الغامض. قل؟

أباك.أمك.. أختك. أوأخاك؟

- ليس لي لا أب، ولا أم، ولا أخت، ولا أخ.

- أصدقاءك..؟

- أنت تلفظ كلمة لازال معناها مجهولاً عندي حتى هذا اليوم.

- وطنك؟

- أجهل موقعه في العالم.

- الجمال؟

- سأحبه عن طواعية لو كان إلهاً وخالداً.

- الذهب؟

- أبغضه.

- إيه! من تحب إذن. أيها الغريب المذهل؟

- أحب السحب.. السحب التي تمر.. هناك.. هناك.. السحب الرائعة!]

لقد قال عنه جان بول سارتر.. الفيلسوف والكاتب المبدع والمتقد، الذي كتب عنه وعن حياته وعظمته ومأساته وحبه لأمه وسطو (الجنرال) عليها كتاباً تحليلياً فريداً من أربعمائة صفحة.. وبعنوان من كلمة واحدة (بودلير).. حيث قال في أحد سطوره: (إن بودلير.. يريد أن يكون في كل مكان.. إلا الأرض).. لكنه (لم يعش الحياة التي يستحقها)..!!

* * *

فإذا كان (بودلير).. لم يحصل على أي جائزة أدبية من أي نوع طوال عمره القصير والمبدد والشقي، إلا أنه حصل على الجائزة الكبرى أو (الجراند بريه) كما يقول الفرنسيون.. من المثقفين في عمومهم بامتداد العالم، ومن الأدباء والشعراء والنقاد في خصوصهم.. إذ يكفيه قولهم: (إذا بدأ الشعر الفرنسي بـ «بودلير» فإنه لابد وأن ينتهي بـ «رامبو»، وإذا بدأ بـ «رامبو».. فلابد أن ينتهي بـ «بودلير»)، وفي هذا ما يكفيه.. ليكون أحد رموزه الخالدين!!

الحلقة الحادية والثلاثون

ليوبولد سنجور

في إبريل من عام ١٩٥٥م.. تنادى زعماء «الحرية» و«الاستقلال» في كل من آسيا وأفريقيا، الذين استطاعوا (الخلاص) من ربقة (الاستعمار البريطاني) في الهند كـ (نهرو).. وفي مصر كـ (عبدالناصر)، ومن (الاستعمار الهولندي) في أندونيسيا كـ(سوكارنو).. إلى لقاء يجمعهم - بدعوة من الرئيس أحمد سوكارنو - في جزيرة (باندونج) الأندونيسية الجميلة الساحرة، لبحث وسائل التعاون فيما بينهم من أجل: تخليص دول وشعوب القارتين من الاستعمار البريطاني والفرنسي أو الهولندي أو الإيطالي أو البرتغالي أو الأسباني أو الألماني أو البلجيكي.. الذي كانت سحابته السوداء تغطي معظم دول القارتين الآسيوية والأفريقية إلى جانب معظم دول أمريكا اللاتينية، وقد دعوا إلى جانبهم الزعيمين.. الآسيوي الصيني: «شوين لاي»، والأوروبي اليوغوسلافي «جوزيف بروز تيتو».. لدورهما التحرري في رفع الهيمنة السوفييتية عنهما.. ليشاركا في ذلك اللقاء التحرري التاريخي الأول، الذي اختار له الرئيس سوكارنو - صاحب أحدث استقلال ١٩٤٩م - عنواناً سياسياً.. رائعاً.. خلاقاً: (الأمم الصامتة والمقهورة.. تتكلم)..؟

وقد تكلمت الأمم الصامتة، وتفاعلت شعوبها مع دعوة الحرية والتحرر التي بثها الزعماء الوطنيون الخمسة.. لتخرج من ثنايا لقاءاتهم الفوارة: (منظمة التعاون الأفروآسيوي).. التي قادت دول وشعوب القارتين إلى الحرية والتحرر، وهي تفرز زعاماتها التاريخية الآسيوية الأفريقية التي لا تنسى.. على الجانبين: من (نوردوم سيهانوك) الكمبودي إلى (هوشي من) الفيتنامي.. ومن (كوامي نكروما) الغاني إلى (أحمد سيكوتوري) الغيني إلى (جوموكينياتا) الكيني إلى (جوليوس نيريري) التانزاني.. إلى شهيد الحرية الزعيم الكونغولي (باتريس لومومبا).. لتقوم في أعقابها (كتلة عدم الانحياز)، التي ظلت منذ انطلاقتها.. المرجحة لقرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، والتي أخذت تسعى لـ (استرضائها) فيما بعد كل دول العالم.. للفوز بصوتها المرجح في محفلها!.

* * *

لقد كان حرياً.. بأن يكون هذا الأديب المثقف والشاعر الوطني السنغالي (سينغور) سادس أولئك الزعماء الخمسة، لولا (عضويته) في الجمعية التأسيسية الفرنسية، التي شده إليها وإلى الحياة السياسية عموماً - عام ١٩٤٥م - صديقه (لامين غواي).. أول محام أسود، وأول رئيس لبلدية (داكار) التي كانت تلعب دور (العاصمة) لما كان يسمى.. بـ (دول أفريقيا الغربية الفرنسية)، ولولا انخراطه - اضطراراً بأكثر منه اختياراً - في كتائب الجيش الفرنسي في مطالع الحرب العالمية الثانية وحتى أسره في معسكرات الجيش الألماني.. للذود عن (فرنسا) التي دعا زعماء (باندونج)

الخمسة إلى التحرر منها ومن بريطانيا واستعمارهما القديم والطويل في القارتين الآسيوية والأفريقية، رغم أن (جينات) الحرية والتحرر التي حملها «سينغور» مبكراً كانت تصب في ذات (النهر).. نهر الحرية والتحرر. فمع أول وظيفة يتقلدها - معلم لغات - بعد حصوله على شهادتي (الإجراجسيون) و(ليسانس الآداب).. من مدرسة (الليسيه) بداكار ف (السوربون) من باريس، كان يعلن عبر ديوانه الأول (أناشيد الظل): (أن همه - كـ (شاعر) قبل «المعلم» - ليس تعليم اللغة الفرنسية للسنغاليين.. ولكن في (إيقاظ شعبه على المستقبل الباهر)!؟ وهو يؤكد قائلاً: (بهجتي أن أخلق صوراً أعذّبه بها)!! ليس حباً في العذاب لذاته، أو لـ (سادية) ينكرها، ولم تعرفها حياته.. ولكن من أجل أن يفجر غضب أبناء شعبه بحثاً عن حريته المسلوبة كـ (أسود منبوذ مهمل.. في آخر صفوف البشرية: يباع ويشترى)!! وقد اكتمل له ذلك في صرخته الشعرية الرائعة التي أطلقها في طلب الحرية والمساواة مع (الأبيض): مستعمره وجلاده.. عندما قال، وكأروع وأجمل ما يكون عليه القول في قصيدته (وُلدت أسود اللون) بديوانه الثالث (أثيوبيات) الذي صدر له عام ١٩٥٨م:

(ولدت أسود اللون،
كبُرتُ أسود اللون،
ينتابني خوف.. أسود اللون،
وحين أموت.. أموت أسود اللون.

* * *

وأنت يا صاح.. يا أبيض اللون!
ولدت أزهر اللون،
تكبُر أبيض اللون،
تجلس في الشمس أحمر اللون،
في البرد أزرق اللون،
ينتابك خوف، أصفر اللون،
وحين تموت،
تموت أشحب اللون
وأنت لا تكف.. تدعوني بالملون!

* * *

لقد كانت أزمة الفتى الأفريقي (سينغور).. المكلوم بـ (سواده)، ونظرة (الأبيض) له.. هي في ذلك التناقض القدري الحاد الذي وجد نفسه في أتونه بين: (ولادته السوداء) في قرية (جوال) للصيادين في جنوب (داكار) عام ١٩٠٦م.. و(حياته البيضاء) في فرنسا منذ أن وصل إلى عاصمتها (باريس).. مدينة النور والحرية وهو في العشرين من عمره، ليلتحق بـ (جامعة السوربون).. ولكنه تركها والتحق بمدرسة (لوي لوغران).. استعداداً للدراسات العليا بعد عام، حيث تعرف هناك على (الشاب: جورج بومبيدو)، الذي سيصبح ثاني رؤساء الجمهورية الفرنسية الرابعة خلفاً لمؤسسها الزعيم الفرنسي التاريخي «شارل ديجول»، كما تعرف وفي ذات المرحلة على صديقه الطالب المارتينيكي الكاريبي (إيمي سيزار).. ليصدرا معاً – عام ١٩٣٤م في باريس – صحيفة (الطالب

الأسود)!! التي التزمت الدفاع عن الزنوج و(الزنوجة) أي الزنجية التي ابتكر لفظتها (سيزار).. وغدا (سينغور) فيلسوفها، المنظر لها حتى اتهم من قبل الأديب والمفكر والفيلسوف الفرنسي الأشهر (سارتر).. بمحاربة (العنصرية البيضاء) بـ (عنصرية سوداء)!!، إلاأن سارتر سرعان ما عاد عن ذلك وهو يتأمل بوعيه الإنساني الراشد عمق معاناة الأفريقي (الأسود) عبر سنين وقرون ذله، واضطهاده حتى تقدمت على (مكانته) الآدمية.. القطط والكلاب والحيوانات الأليفة، وهو يرى بعينيه وبحضوره الأدبي العريض: عشق (سينغور) لـ (فرنسا) وآدابها وأدبائها.. وهيامه بثقافتها ومثقفيها.. وجنونه بلغتها الموسيقية الساحرة، التي جعلت منه أستاذاً من أساتذتها ومعلماً من معلميها في المدارس الباريسية نفسها، وهو يتذكر «رسالة» سينغور الباذخة التي نال بها درجة (الماجستير) عام ١٩٣٢م عن أعمال بودلير الشعرية (الإغرابية عند بودلير).. ليكتب له عن قناعة به وإيمان بشاعريته: مقدمة ديوانه الثاني (قربان أسود) الذي صدر لـ (سينغور) عام ١٩٤٨م.

* * *

عندما عاد (سينغور) من (باريس) بعد اثنتي عشر عاماً من الإقامة المتصلة بها – عام ١٩٣٧م – إلا من زيارات قليلة متقطعة إلى (داكار).. دعته الغرفة التجارية السنغالية لإلقاء محاضرة بها، ففاجأ حضورها من الفرنسيين الذين كانوا يتصدرون مشهد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في (داكار)، ويديرون دولاب الحياة التجارية والصناعية في السنغال كلها من تجارة

(الفستق) إلى صناعة (الصمغ).. بمستوى طرحه الرفيع، ولغته الفرنسية الباريسية الراقية.. التي لم يكن أحد منهم يتوقعها، بل ولم يتوقع حضورتلك المحاضرة.. أن محاضرهم، الذي كان يتحدث إليهم يحمل شهادتي (الإجراجسيون) و(ليسانس الآداب) كأول أفريقي أسود يحمل المؤهلين معاً.. إلا عند تقديمه في تلك المحاضرة.. ليتم تعيينه مدرساً للغة الفرنسية في مدرسة (ليسيه مارسلان) بإحدى ضواحي (باريس).. وكأنه (فرنسي) وليس سنغالياً يصح أن يستفيد منه ومن إمكانياته وقدراته وطنه الأم (السنغال)، ليعود إلى باريس مجدداً.. وليقود مع صديقه الشاعر المارتينيكي سيزر (الانتفاضة السوداء) للنضال ضد العنصرية، ومساعدة (العالم الأسود).. في الانعتاق من العبودية والاسترقاق، ليبلغ الأربعين من عمره (١٩٤٦م).. فيقترن بالفرنسية النورماندية (جينيت اليبوي) وينجب منها غلامين.. لتمضي به الحياة في باريس، إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.. حيث تم تعيينه (أستاذاً للغات والحضارات الأفريقية) في (المدرسة الوطنية الفرنسية)، لينشئ عام ١٩٥٧م حزبه السياسي الأول: (حزب المؤتمر الأفريقي). والذي أصبح (أمينه)، لكن حظوظه السياسية لم تأخذ فرصتها الحقيقية.. إلا مع عودة الزعيم الفرنسي الراحل «شارل ديجول» إلى الحكم عام ١٩٥٨م بـ (فكره) الخلاق ورؤاه السياسية الحضارية والإنسانية، حيث أبدل علاقة (فرنسا) بـ(مستعمراتها) الأفريقية.. من الهيمنة المباشرة وإلغاء الهوية الوطنية.. إلى (رابطة فرنسية) معها و(حكم ذاتي) للشعوب

القادرة عليه.. وقد كان في مقدمتها: «مالي» و«السنغال».. اللتان سرعان ما طورتا حكمهما الذاتي بإلهامات (سينغور) إلى «وحدة فيدرالية» بينهما بعد استقلالهما عام (١٩٥٨م).. تحت مسمى (السودان الفرنسي)، إلا أنه لم يُقدر لهذه (الوحدة) الاستمرار بأكثر من عامين.. ليتم الإعلان عن انفصالهما واستقلال كل من الجمهوريتين تباعاً في أغسطس من عام ١٩٦٠م، حيث جرت أول انتخابات في جمهورية السنغال.. حملت (أب الاستقلال) السنغالي (سينغور)، المثقف والشاعر والأديب والسياسي إلى سدة الحكم.. كـ (أول) رئيس لجمهورية السنغال..!

* * *

ومع نجاحاته الثقافية كـ (شاعر) سنغالي متفرد.. يكتب بـ(الفرنسية) ويدخل إلى عالمها حشداً من المفردات السنغالية، وهو يتغنى في أشعاره على أنغام الطبلة الأفريقية الشهيرة الـ (ندوندو) كما كان يتغنى شعراؤنا القدماء على أنغام خطى الجمال في الصحراء (البحر البسيط).. والتي كانت تمضي في خط مواز مع نجاحاته السياسية في السنغال وبين أبنائه، كان العالم يقلده عام ١٩٦٨م.. جائزة (نوبل للسلام) بعد عامين من احتجابها (٦٦ و٦٧)، و(فرنسا) تقدم له بعد عام آخر (ديسمبر ١٩٦٩م).. مقعد العضوية في أعظم أكاديمياتها (الأكاديمية الفرنسية للدراسات الإنسانية والسياسية)، بينما أخذ المنصفون من السنغاليين يعيدون انتخابه.. ثانية.. وثالثة.. وهو (المسيحي) الكاثوليكي وسط غالبية سنغالية مسلمة تتجاوز التسعين بالمائة..؟!

لقد غدا (سينغور) بثقافته العريضة والعميقة، وخبراته السياسية والإدارية.. وسماحته الملفتة النادرة بين المتشددين من الجانبين أحد حكماء أفريقيا ومرجعيتها في حوار الحضارات والثقافات، ليفاجئ (سينغور) العالم كله.. بـ (استقالته) الطوعية عن (الرئاسة).. في آخر يوم من أيام عام ١٩٨٠م، في سابقة لم يعرفها العالم الأول.. فضلاً عن العالم الثاني أو الثالث، وبصورة أقرب إلى (الخرافة) منها إلى الحقيقة.. عندما قال في آخر سطر من سطور رسالة استقالته إلى (البرلمان) السنغالي: (..آملاً أن تقبلوا قسَم السيد عبدو ديوف رئيس الوزراء الحالي الذي سيحل مكاني)!! ليدوي خبر (خلافته).. وهو يغطي على خبر (استقالته)..!؟

فمن يتصور أن رئيساً منتخباً في العالم الثالث يحظى بكل ما كان يحظى به (سينغور) من تقدير وإكبار عالميين، ومحبة من أبناء شعبه.. يتخلى طواعية عن منصبه.. ويقدمه هدية لرئيس وزرائه (المسلم)!؟ ولكن ذلك هو (سينغور) الذي (جمع الأدب بمفهومه النبيل.. إلى جانب السياسة بمفهومها الأنبل، وقلما التقى هذا بذاك في قلب رجل واحد.. لكنهما اجتمعا في هذه الأرض الأفريقية التي عانت كثيراً من الجهل.. عدو الأدب، ومن الاستبداد أعدى أعداء السياسة النبيلة)! كما قالت مقدمة احتفالية (مرور مائة عام على ولادة سينغور) التي أقامتها (الأكاديمية الفرنسية الباريسية) أشهر أكاديميات العالم وأعظمها قيمة ثقافية وحضارية.. بعد أن استقبلته عضواً بها منذ عام ١٩٨٤م.

لقد كان معزياً.. أن لا تذهب سابقة (سينغور) في الاستقالة هباءً، فقد تبعه (عبدالرحمن سوار الذهب) في استقالته عن رئاسة السودان.. كما تبعه فيما بعد (جون دي كلارك) الأبيض باستقالته عن رئاسة دولة (جنوب أفريقيا).. وتسليمها إلى ابن الأرض (الأسود) نيلسون مانديلا.. ليكون ذلك من بين أعظم الدروس التي خلفها (سينغور) وتركتها القارة السوداء (أفريقيا) للعالم.. حتى ليصح القبول ساعتها بقول (سينغور) في (نشيد الأناشيد) الذي أعاد كتابته والحبيب الأسود يقول لحبيبته السوداء: (لأنك سوداء.. أنت جميلة)..!

* * *

في تقاعده الاختياري السياسي والشاعري النبيل.. لم تتركه السياسة ولا حياتها، فقد برزت مع عودة (الديجولية) إلى الحكم بوصول الرئيس جاك شيراك إلى قصر (الإليزيه).. فكرة العناية بـ (الفرنسية) وآدابها وثقافتها والمتحدثين بلسانها، لتتبلور في تأسيس (حركة فرنكفونية) ذات بُعد ثقافي، وسياسي «مرحب» به من قبل كل من يقاومون (أمركة) العالم من المتحدثين بالفرنسية ومن غيرهم.. بـ (مقر) و(أمين) لها.. فكان أن اختارت القاهرة (مقراً)، والدكتور بطرس غالي (أميناً)، وكان الأحق بمقرها (داكار) والأجدر بأمانتها (سينغور).. لولا بُعد السنغال الجغرافي على الشاطئ الغربي لأفريقيا، وعدم توسطها بين من يتحدثون (الفرنسية) في غرب وجنوب وشرق آسيا ومتوسطها، لكن مكانة (سينغور) وتاريخه وعشقه للفرنسية.. كانت تنتصر له ليتم

انتخابه بالإجماع (نائباً) للرئيس.. ليكون (فتى أفريقيا): النجمة السوداء.. التي ترصع بياض الفرنكفونية!

لقد كان (سينغور).. عظيماً بكل (تاريخه).. متفرّداً بـ(أعماله).. كبيراً بـ (إنجازاته) تحت رايات الثقافة والمعرفة والإبداع وحوار الحضارات والثقافات.. ليكون مكانه في الصدارة بين (شموس) القرن العشرين ونجومه.

* * *

فعندما مات (عام ٢٠٠١م) فوق كل تلك التلال من الأمجاد التي صنعها.. كان العالم يبكيه وهو يردد خلفه قصيدته الشهيرة (ليلة ليلاء).. ويغني:

(ها هو الليل

صياح وغضب

الليل

جلاد النائمين المتيقظين

والشهداء الذين يحترقون فوق أسرة مثلهم العليا)!! وكما كانت هي حال وحياة (سينغور) نفسه..!!

الفهرس

• تمهيد ٧
• الحلقة الأولى: العواد.. أول الرواد ٩
• الحلقة الثانية: حمد الجاسر ١٩
• الحلقة الثالثة: نزار قباني ٢٧
• الحلقة الرابعة: أندريه مالرو ٤١
• الحلقة الخامسة: عزيز ضياء ٤٧
• الحلقة السادسة: عبدالله البردوني ٥٧
• الحلقة السابعة: ألبرتو مورافيا - كولن ويلسون ٦٧
• الحلقة الثامنة: سارتر ٧٥
• الحلقة التاسعة: الزيدان ٨٣
• الحلقة العاشرة: الأخطل الصغير ٩١
• الحلقة الحادية عشرة: حمزة شحاتة ١٠٥
• الحلقة الثانية عشرة: ليو تولستوي ١١٩
• الحلقة الثالثة عشرة: يوسف إدريس ١٢٧
• الحلقة الرابعة عشرة: طاهر الزمخشري ١٣٩
• الحلقة الخامسة عشرة: فرانسواز ساجان ١٥٥
• الحلقة السادسة عشرة: مصطفى المنفلوطي ١٦٣
• الحلقة السابعة عشرة: ديستوفسكي ١٧٣

• الحلقة الثامنة عشرة: أحمد السباعي ١٨٣
• الحلقة التاسعة عشرة: همنجواي ١٩٣
• الحلقة العشرون: توفيق الحكيم ٢٠١
• الحلقة الحادية والعشرون: عبدالله عبدالجبار ٢١٥
• الحلقة الثانية والعشرون: جبران خليل جبران ٢٢٣
• الحلقة الثالثة والعشرون: رابندرانات طاغور - محمد إقبال ٢٤٣
• الحلقة الرابعة والعشرون: كامل الشناوي ٢٥١
• الحلقة الخامسة والعشرون: أبو القاسم الشابي ٢٦٧
• الحلقة السادسة والعشرون: القنديل ٢٨١
• الحلقة السابعة والعشرون: برنادر شو ٢٨٩
• الحلقة الثامنة والعشرون: الطنطاوي ٢٩٧
• الحلقة التاسعة والعشرون: طه حسين ٣٠٧
• الحلقة الثلاثون: بودلير ٣٢١
• الحلقة الحادية الثلاثون: ليوبولد سينغور ٣٣١